البحث اللغوي

عند

إخوان الصفاء

دكتور أبو السعود أحمد الفخراني

البحث اللغوي

عند

إخوان الصفاء

تأليف

الدكتور أبو السعود أحمد الفخراني

المدرس المساعد بكلية اللغة العربية
جامعة الأزهر بالبحيرة

الطبعة الأولى

١٤١١ هـ ـ ١٩٩١ م

مطبعة الأمانة

٧ شارع جزيرة بدران شبرا ـ مصر

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم النبيين ورحمة الله للعالمين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبة أجمعين .

وبعــــد ...

فهذه صفحات متواضعة ، تناولت فيها الجهود اللغوية التى سجلها اخوان الصفاء فى تراثهم المطبوع والمتداول بيننا الآن .

وكثير من مؤرخى البحث العلمى — وخاصة فى الغرب — يهملون دور العرب والمسلمين ، ويتناسون حلقة من أهم حلقات البحث العلمى فى اللغة ، فلا نكاد نراهم يذكرون فى كتاباتهم الا الهند واليونان ومن ورثهم كالرومــان ، وكأن العالم لم يشــهد بين حضــاراته الا هذه الحضارات القديمة المنهارة ، وكأن حضارة الاســلام لم تتقدم فى هذا الميدان ما لم يشهد له العالم نظيرا ، بشهادة الواقع الواضح فى خزانات الكتب ودورها فى كل أنحاء العالم .

والاهتمام بالتراث يعنى كشفه وتقويمه والأخذ بما يفيد ، وهذا ما حاولته فى تراث اخوان الصفا . فقد نقبت عما يتصل باللغة ، سواء كان موضوعها عاما أو خاصا باللغة العربية ، فقد نثروا أفكارهم اللغوية فى ثنايا فصول رسائلهم ولم يلتزموا بوحدة الموضوع منتهجين ما يعرف عند العلماء بأسلوب الاستطراد ، وعلى الباحث أن ينقر عما يريده وأن يفتش عما يقصد .

وقد أسفر التنقير والتفتيش فى النصوص المتناثرة عن جمع عدد من المسائل والقضايا اللغوية العامة والخاصة باللغة العربية وتيسيراً لدرسها والنظر فيها أدرجتها فى بابين : يختص أولهما بالقضايا اللغوية العامة ، وثانيهما بالقضايا الخاصة باللغة العربية •

وقد مهدت لهما بتمهيد تناولت فيه سبب اختيار الفلاسفة بصفة عامة واخوان الصفا بصفة خاصة للكشف عن آرائهم اللغوية • كما ألقيت الضوء فيه — بايجاز — على جماعة اخوان الصفا ورسائلهم بعامة ، ثم حددت الرسائل التى يظهر فيها فكرهم اللغوى بخاصة • كما أشرت الى المصادر التى استقى منها الاخوان فكرهم • ثم ختمت التمهيد بحصر القضايا الرئيسة التى أمكن استنباطها •

أما الباب الأول فقد اشتمل على سبعة فصول تتناوله القضايا اللغوية العامة وهى اللغة والفكر والعلاقة بينهما ، ونشأة اللغة بشقيها المنطوق والمكتوب ، وتطور اللغة وأسبابه ومظاهره ؛ والصوت العام : أنواعه ونشأته ومراحله ، والصوت اللغوى : مفهومه ، ومستويات نطقه ، ومراحله بدءا بانتاجه وانتهاء بادراكه ، والاكتساب اللغوى وطرقه ومستوياته وعوامله وأسباب تفاوت الناس فيه وأفضلية الانسان على ما سواه بقدرته على اكتساب اللغة وتعلمها • ثم أنهيت الباب بالفصل الأخير الذى يتناول ماهية كل من اللفظ والمعنى ، وأهمية كل منهما •

أما الباب الثانى فقد اشتمل على خمسة فصول تناولت القضايا العربية ، وهى : أفضلية العربية ، أصلها وتطورها ؛ أصواتها (عددها ومخارجها وعيوبها) ، وألفبائيتها (ترتيبها وعددها وميزتها) ، الخط العربى (مصدره ، صورته ، معايير جودته ؛ دوافع تجويده) ، ثم

أنهيت الباب بالفصل الخامس الذى يتناول من قضايا اللفظ والمعنى : الاشتراك اللفظى والترادف والتباين والتواطؤ والاشــتقاق ، والقلب والتبديل ، ثم بلاغة الكلام .

ثم أنهيت هذا الكتاب بخاتمة اشتملت على خلاصة البحث ونتائجه .

وبعد : فان كنت قد أصبت فالخير قصــدت ، وان كنت أخطأت فحسبى أننى حاولت وأخلصت .

وما توفيقى الا بالله عليه توكلت واليه أنيب ..

د. أبو السعود أحمد الفخرانى

القاهرة فى

غرة ربيع الثانى ١٤١١هـ

٢٠/١٠/١٩٩٠م

بين يدى الموضوع

ما أكثر اللغويين الذين عنوا بالدراسات اللغوية من نواحيها المتعددة : الأصوات والصرف والنحو والدلالة ، وما أكثر المصنفات اللغوية التى تزخر بها المكتبة العربية فى مختلف مستويات البحث اللغوى .

ولكن هل ترك البحث فى اللغة للغويين وحدهم ؟

كلا ، لقد رأينا علماء التجويد القرآنى يقننون أداء القرآن الكريم وينشئون قسما خاصا بصوتياته وتجويده ، وقد انتفعوا بمعارف اللغويين الأوائل من أمثال الخليل بن احمد وتلميذه سيبويه .

ونرى أفكارا لغوية متناثرة فى كتب الفقه والعروض والأدب والفلسفة والموسيقى وغيرها لم تجمع بعد جمعا وافيا ولم تدرس دراسة علمية منظمة فى ضوء المناهج العربية والمناهج الحديثة .

ورأينا من يدعو الى النظر فى كتب التراث لجمع ودراسة تلك الأفكار ، وقد امتد بصره الى قطاع الأدب فوقع نظره على زعيم البيان العربى أبى عثمان بن بحر الجاحظ ، ووضع أيدينا على تصور هذا الزعيم للجانب الصوتى والأدائى للغة (١) .

ورأينا من امتد بصره الى المحدثين والفقهاء والأصوليين ذوى

---

(١) انظر أ.د. عبد الله ربيع محمود : الملامح الادائية عند الجاحظ فى البيان والتبيين .
الطبعة الاولى ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م .

الاهتمام بعلوم اللسان وقد اشتهروا بغير اللغة ، ويحاول جمع معارفهم اللغوية فى مصنفات مستقلة (٢) .

من هنا كان اتجاهى الى غير من اشتهروا بغير اللغة فى دنيا العلوم والمعارف للتعرف على ما أثاروه وطرقوه من قضايا اللغة وجمع ذلك ودراسته فى ضوء المناهج العربية والحديثة .

ومن هؤلاء المهتمين بعلوم اللسان والمشتهرين بغير اللغة الفلاسفة ، وقد اتجهت الى حكماء القرون الأولى للهجرة واخترت من بينهم اخوان الصفاء وخلان الوفاء .

ومن حق القارىء أن يتساءل عن سبب اختيار الفلاسفة بصفة عامة واخوان الصفاء بصفة خاصة ؟

أما عن سبب اختيار الفلاسفة فانه يرجع الى أن هناك بحوثا عديدة أشترك فى بحثها اللغويون والفلاسفة ، ومن تلك البحوث علاقة اللغة بالفكر ، والدلالة ، وعلاقتها بالألفاظ ، ونشأة الكلام الانسانى وغير ذلك .

ولذا نرى بعض اللغويين والفلاسفة القدماء قد ربطوا بين اللغة والمنطق « ولبثه المنطقى يغزو ببحوثه بعض مناطق اللغات ، كما ظل اللغوى يقتحم ببحوثه بعض نواحى اللغة » (٣) .

---

(٢) أنظر : د. رشاد سالم : الاصوليون والنظريات اللغوية . رسالة دكتوراه من مكتبة اللغة العربية بالقاهرة ، د. عبد الوهاب ربيع محمود : النحو الشارد فى تشارق الانوار للقاضى عياض . مجلة كلية اللغة العربية بالمنوفية ص ٧٧٩ ـ ٨١٨ العدد السادس ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م .

(٣) انظر د. ابراهيم أنيس : من أسرار اللغة ص ١٣٣ الطبعة السادسة ١٩٧٨ م .

أما عن سبب اختيار اخوان الصفا فانه يرجع الى عدة أمور ، منها :

١ ــ أن تراث الاخوان ــ كما قيل ــ كنز فكرى ثمين ، فمعظم الذين جالوا فى مجال تاريخنا وفلسفتنا الاسلامية مجمعون على أن رسائل الاخوان هى أغزر مادة فلسفية وأقوم حجة عقلية ، وأثمن تحفة فكرية ، بل رؤى أن رسائلهم تمثل الرقى العقلى والتطور الفكرى ، وتعتبر من أقدم المصادر فى الفلسفة الاسلامية للتعبير عن الثقافة الواسعة ، وأغنى موسوعة بالعلوم والآداب (٤) •

٢ ــ أن الاخوان عاشوا فى فترة تعد من أخصب الفترات فى تاريخ الفكر العلمى واللغوى فى العالم العربى والاسلامى الذى كان يمثل وقتئذ العالم المتحضر •

٣ ــ أن مشاهير الفلاسفة العرب من أمثال الفارابى (٢٥٩ ــ ٣٣٩ هـ) وأبى حيان التوحيدى (٣١٠ ــ ٤١٤ هـ) ، وابن سينا (٤٢٨ هـ) ، وأبى حامد الغزالى ، حجة الاسلام (٤٥٠ ــ ٥٠٧ هـ) قد تأثروا باخوان الصفا فى بعض آرائهم (٥) •

٤ ــ أن بعض من تعرضوا لفكر هؤلاء الاخوان ــ فى القديم

---

(٤) انظر : عارف تامر ــ مقدمة تحقيق لرسالة جامعة الجامعة لاخوان الصفا ص ٥ ــ ٦ • دار النشر الجامعيين ١٣٧٨ هـ ــ ١٩٥٩ م ، د• نورى جعفر : آراء ومواقف تربوية ونفسية صائبة فى التراث العربى الاسلامى ص ١٨ وما بعدها • وزارة الثقافة والاعلام العراقية ١٩٨٢ ــ سلسلة دراسات « ٣٣٤ » •

(٥) انظر : حسينى احمد السيد حماد : الحضارة العربية ص ٦٦ ــ ٦٧ وزارة الثقافة ١٩٦٧ م ، د• محمد فريد حجاب : الفلسفة السياسية عند اخوان الصفا ص ٤٦ • الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٢ م •

والحديث ــ وقفوا على غايتهم الظاهرة والباطنة وحللوا أفكارهم وأهدافهم السياسية والدينية ، وطعنوهم فى دينهم (٦) ، ولم يتعرضوا لفكرهم اللغوى فيما أعلم •

والتراث الموجود بيننا المنسوب الى الاخوان ويحمل اسمهم وأفكارهم يحتوى على أفكار لغوية عديدة ــ وكثير منها يتصل بلغة القرآن الكريم ــ تظهر لكل من تصفحه ، لذا فانه من الواجب على المهتمين باللغة أن يقفوا على هذه الأفكار ، ويحققوا الحق منها ، ويبطلوا الباطل ، ويظهروا الغث من السمين • وهذا ما حاولت ــ جاهدا ــ صنعه •

٥ ــ أن المكتبة العربية تخلو من بحث مثل هذا ، يلقى الضوء على الفكر اللغوى لهؤلاء الاخوان ، على الرغم من احتوائها كثيرا من المؤلفات العربية وغيرها التى تبرز فكرهم فى المجال الفكرى غير اللغوى •

فمن هم اخوان الصفا ؟ وما الفترة التى عاشوا فيها ؟

لقد أطلقت جماعة اخوان الصفا على نفسها ــ كما تشير الى ذلك رسائلهم ــ اسم : « اخوان الصفا وخلان الوفا وأهل العدل وأبناء الحمد » (٧) • وكانت هذه الجماعة قد تألفت ــ كما يقول

---

(٦) انظر ابو حيان التوحيدى : الامتاع والمؤانسة ج ٢/٤ ــ ٢٦٣ تصحيح وشرح أحمد أمين ، وأحمد الزين • ط القاهرة ١٩٤٢م ، د• جبور عبد النور : اخوان الصفا ص ١٥ ــ ٣٤ • سلسلة نوابغ الفكر العربى رقم ٢٧ • ط ٤ دار المعارف ١٩٨٣ م •

(٧) انظر رسائل اخوان الصفا ٢١/١ ط بيروت •

أبو حيان التوحيدى ــ بالعشرة وتصافت بالصـــداقة ، واجتمعت على القدس والطهارة والنصيحة (٨) .

وقد تضاربت الآراء تضاربا شديدا حــول تحديــد العصر الذى ظهر فيه الاخوان ، فنرى كثيرا من العلمــاء يميل الى أن ظهورهم فى القرن الرابع الهجرى « العاشر الميلادى » ونرى البعض يميل الى أن ظهورهم فى أواخر القرن الثانى وأوائل القرن الثالث الهجريين . وأن رسائلهم بدىء فى تحريرها منذئذ ، ولم تأخذ شكلها واسمها حتى أوائل القرن الرابع الهجرى (٩) .

وتبع هذا التضارب تضارب فى تحديــد أشخاصــهم ، ومن أيد ظهور الاخوان ورسائلهم على مراحل رأى أن جماعتهم ضمت معظم الذين قيل انهم كانوا أعضــاء فى الجمــاعة ، أو أســهموا فى وضع رسائلها ، ومن هؤلاء : عبد الله بن المبارك (ت ١٨٢ هـ) ، وعبد الله بن محمد بن اسماعيل (ت ٢١٢ هـ) وأحمد بن عبد الله (ت ٢٢٩ هـ) ، وعبد الله بن سـعيد بن الحســين (ت بعد ٢٤٠ هـ) وزيد بن رفاعة وجماعته التى ذكرها أبو حيان التوحيدى ، من أمثــال أبو ســليمان محمد بن معشر البســتى المقدس ، وأبى الحســن على بن هــارون الزنجانى ، وأبى أحمد المهرجانى ، وأبى الحسن العونى وغيرهم (١٠) .

---

(٨) انظر : الامتاع والمؤانسة ٢/٥ .

(٩) انظر : د. جبور عبد النور ص ٥ ، وعارف تامــر : حقيقــة اخوان الصفا ص ٧ ــ ٨ ط بيروت ١٩٥٧ ، د. على سامى النشار : نشأة الفكر الفلسفى فى الاسلام ٢/٣٩١ ــ ١٣٩٨ ط دار المعارف ، د. محمد فــريد حجــاب .

(١٠) الفلسفة السياسية عند اخوان الصفا ٣٣ ــ ٥٤ .

انظر أبو حيان التوحيدى : الامتاع والمؤانسة ٢/٤ ــ ٥ ، وحاجى خليفة : كشف الظنون ١/٩٠٢ القاهرة ١٩٤١ ، د. محمد فريد حجاب ــ الفلسفة السياسية عند اخوان الصفا ٦٣ ــ ٧٩ .

أما عن تعمد الاخوان اخفاء أسمائهم عن عامة الناس فيقول أحد من كتب عنهم :

« ولعل اخوان الصفا تعمد اخفائهم عن عامة الناس حرصا على حياتهم المهددة من ملوك ذلك العصر الذين عاشوا خلاله ، ومبالغة فى كتمان هدف رغبوا ألا يصل الطالب الى معرفته بسهولة ، وزهـدا فى شهرة كانوا يعتقدون أنها زائلة ، وطمعا فى ثواب أملوا نيله » (١١) •

وقد عاش اخوان الصفا — على ما يقولون — فى البصرة ، وكان لهم فرع فى بغداد ، وقيل كانت بداية نشأتهم كحركة سريـة بمدينة « سلمية » بالشام ، ثم أسسوا فروعا لهم فى مختلف البـلاد ، اذ أن رسائلهم لا تكاد تخلو احداها من عبارة « وجميع اخواننا حيث كانوا فى البلاد » (١٢) •

وفى تلك الفترة وفى هذه المواطن كان أعظم علماء العربية وأرقى المفـكرين فيها •

وقد ضـمن الاخوان فكرهم فى اثنتين وخمسين رسـالة(١٣) ، ورسالة جامعة (١٤) اشتملت على حقائق هذه الرسـائل بأسرها ، ثم

---

(١١) انظر : عارف تامر : مقدمة تحقيق رسالة جامعة الجـامعة لاخوان الصفا ص ٥ •

(١٢) انظر : عارف تامر : حقيقة اخوان الصفا ص ١٠ — ١١ ، وبطرس البسـتانى : مقدمة رسائل اخوان الصفا ١/٥ ، د• محمد فريد حجاب : الفلسفة السياسية عند اخوان الصفا ٥٥ — ٦٢ •

(١٣) طبعت عدة طبعات : فى ليبزج ١٨٨٣ م ، وبومباى ١٣٠٣ هـ ، ومصر ١٣٠٦ هـ ، وبيروت ١٩٥٧ م •

(١٤) حققها جميل صليبا ونسبها خطأ للحكيم المجريطى ، وطبعت فى جزأين • ط المجمع العلمى العربى ١٣٦٨ هـ / ١٩٤٩ م •

جامعة الجامعة (١٥) أو (زبدة اخوان الصــفا) التى تعتبر فهرست الرسائل جميعها وخلاصتها •

ونجد الرسائل الاثنتين والخمسين مقسومة الى أربعة أقسام : الريــاضى التعليمى ، والجســمانى الطبيعى ، والنفســانى العقلى ، والناموس الالاهى ، وتلك الرسائل هى كالآتى :

- **الرسائل الرياضية التعليمية والفلسفية :**

١ ــ العدد •

٢ ــ الهندســة •

٣ ــ النجوم والأفلاك •

٤ ــ الجغرافيا •

٥ ــ الموســيقى •

٦ ــ النسبة العددية والهندســية فى تهذيب النفس واصــلاح الأخــــلاق •

٧ ــ الصنائع العلمية النظرية •

٨ ــ الصنائع العملية والمهنية •

٩ ــ الأخلاق وأسباب اختلافها وبيان عللها •

١٠ ــ الألفاظ الستة التى يســتعملها الفلاسفة فى المنطق وفى أقــاويلهم •

---

(١٥) حققها عارف تامر ، وطبعت فى جزء واحد ، ط دار النشر للجامعيين ١٣٧٨ هـ/ ١٩٥٩م •

١١ ــ المقولات العشر (الألفاظ العشرة التى كل واحد منها اسم الجنس من الموجودات كلها) .

١٢ ــ العبارات وأداء المعانى على حقها والابانة عنها .

١٣ ــ القياس .

١٤ ــ البرهان .

● الرسائل الجسمانية الطبيعية :

١٥ ــ الهيولى والصورة .

١٦ ــ السماء والعالم .

١٧ ــ الكون والفساد .

١٨ ــ الآثار العلوية (حوادث الجو وتغيرات الهواء) .

١٩ ــ المعادن .

٢٠ ــ الطبيعة .

٢١ ــ النبات .

٢٢ ــ الحيوان .

٢٣ ــ الجسد .

٢٤ ــ الحاس والمحسوس .

٢٥ ــ مسقط النطفة .

٢٦ ــ الانسان عالم صغير .

٢٧ ــ كيفية نشــوء الأنفس الجزئية فى الأجســاد البشريــة الطبيعيــة .

٢٨ ــ طاقة الانسان فى المعارف .

٢٩ ــ ماهية الموت والحياة .

٣٠ ــ ماهية اللذات والآلام الجسمانية والروحانية .

٣١ ــ علل اختلاف اللغات ورسوم الخطوط والعبارات .

● الرسائل النفسية العقلية :

٣٢ ــ مبادىء الموجودات العقلية على رأى الفيثاغوريين .

٣٣ ــ مبادىء الموجودات العقلية على رأى اخوان الصفا .

٣٤ ــ العالم انسان كبير .

٣٥ ــ العقل والمعقول .

٣٦ ــ الأكوار (الطبائع) والأدوار واختلاف القرون والأعصار

٣٧ ــ ماهية العشق .

٣٨ ــ ماهية البعث والصور والنشــور والقيمة والحســاب ، وكيفية المعراج .

٣٩ ــ كمية أجناس الحركات .

٤٠ ــ العلل والمعلولات .

٤١ ــ الحدود والرسوم .

● الرسائل الناموسية الإلاهية والشرعية الدينية :

٤٢ ــ الآراء والمذاهب فى الديــانات الشرعيــة الناموسية والفلســفة .

٤٣ ــ ماهية الطريق الى الله .

٤٤ ــ بيان اعتقاد اخوان الصفا ومذاهب الربانيين الإلاهيين.

٤٥ ــ كيفية عشرة اخوان الصفا .

٤٦ ــ ماهية الايمان وخصال المؤمنين المحققين .

٤٧ ــ مـاهية الناموس الإلاهى والوضــع الشرعى وشرائط النبــوة .

٤٨ ــ كيفية الدعوة الى الله بصفوة الأخوة .

٤٩ ــ كيفية أفعال الروحانيين والجن والملائكة المقربين والمردة والشــياطين .

٥٠ ــ كمية أنواع الســياسات وكيفيتهــا ومراتب المســوسين وصفات المدبرين لها فى العالم .

٥١ ــ كيفية نضد العالم بأسره وفى مراتب الموجودات ونظــام الكائنــات .

٥٢ ــ ماهية السحر والعزائم .

وتمثل تلك الرسائل موسوعة غنية بالعلوم والمعــارف ، ولما كان هدفنا من بحثنا هو الكشف عن المســائل اللغوية ــ ونميز الغث منها

عن السمين — وعدم الخوض فى غيرها من المسائل والأفكار البعيدة عن اللغة ، فقد أمكن استخلاص فلسفة الاخوان اللغوية من خلال تسع عشرة رسالة من مجموع تلك الرسائل : منها سبع رسائل فى القسم الرياضى وهى العدد (١) والهندسة (٢) والموسيقى (٣) ، والنسبة العددية والهندسية فى تهذيب النفس واصلاح الأخلاق (٤) ، والأخلاق (٥) ، ورسالتان فى المنطق (٦) .

ومنها ثمان رسائل فى القسم الجسمانى الطبيعى وهى : الكون والفساد (٧) ، والآثار العلوية (٨) ، والحيوان (٩) وتركيب الجسد (١٠) ، والحاس والمحسوس (١١) ، والانسان عالم صغير (١٢) ، وطاقة الانسان فى المعارف (١٣) ، وعلل اختلاف اللغات (١٤) .

ومنها ثلاث رسائل فى القسم النفسى العقلى ، وهى : العقل

---

(١) انظر رسائل اخوان الصفا حـ ١/٤٨ — ٧٧ .
(٢) نفس المرجع السابق حـ ١/٧٨ — ١١٣ .
(٣) نفس المرجع السابق حـ ١/١٨٣ — ٢٤١ .
(٤) نفس المرجع السابق حـ ١/٢٤٢ — ٢٥٧ .
(٥) نفس المرجع السابق حـ ١/٢٩٦ — ٣٨٩ .
(٦) نفس المرجع السابق حـ ١/٣٩٠ — ٤٠٣ ، ٤١٤ — ٤١٩ .
(٧) نفس المرجع السابق حـ ٢/٥٢ — ٦١ .
(٨) نفس المرجع السابق حـ ٢/٦٢ — ٨٦ .
(٩) نفس المرجع السابق حـ ٢/١٧٨ — ٣٧٧ .
(١٠) نفس المرجع السابق حـ ٢/٣٧٨ — ٣٩٥ .
(١١) نفس المرجع السابق حـ ٢/٣٩٦ — ٤١٦ .
(١٢) نفس المرجع السابق حـ ٢/٤٥٦ — ٤٧٩ .
(١٣) نفس المرجع السابق حـ ٣/١٨ — ٣٣ .
(١٤) نفس المرجع السابق حـ ٣/٨٤ — ١٧٧ .

والمعقول(١٥) ، وكمية أجناس الحركات(١٦) ، والعلل والمعلولات(١٧).

ومنها رسالة واحدة فى القسم الناموسى الإلاهى ، وهى الآراء والديانات (١٨) .

وقد استقى اخوان الصفا أفكارهم التى بثوها فى تلك الرسائل من أربعة مصادر رئيسية هى (١٩) :

١ — كتب الفلاسفة والحكماء من الرياضيات والطبيعيات .

٢ — الكتب السماوية المنزلة على الأنبياء مثل التوراة والانجيل والفرقان وغيرهما كما يقولون .

٣ — الكتب الطبيعية « وهى صور أشكال الموجودات بما هى عليه الآن من تراكيب الأفلاك ، وأقسام البروج ، وحركات الكواكب ومقادير أجرامها ، وتصاريف الزمان ، واستحالة الكائنات من المعادن والحيوان والنبات ، وأصناف المصنوعات على أيدى البشر » .

٤ — العلوم الباطنية (علم الأعداد والحروف ، أو علم الغيب) المعروف لدى الفرق الباطنية ، وهى التى يسميها الاخوان « الكتب الإلاهية التى لا يمسها الا المطهرون الملائكة التى هى بأيدى سفره ، كرام برره » .

أما القضايا اللغوية الرئيسية التى أمكن تكوينها من خلال

---

(١٥) نفس المرجع السابق ج ٣/٢٣١ — ٢٤٨ .
(١٦) نفس المرجع السابق ج ٣/٣٢١ — ٣٤٣ .
(١٧) نفس المرجع السابق ج ٣/٣٤٤ — ٣٨٣ .
(١٨) نفس المرجع السابق ج ٣/٤٠١ — ٥٠٤ .
(١٩) نفس المرجع السابق ج ٤/٤٢ — ٤٣ .

النصوص المتفرقة المبثوثة فى الرسائل والسالفة الذكر فيمكن اجمالها فى نوعين رئيسيين :

الأول : قضايا لغوية عامة ، تدخل فى نطاق علم اللغة بمفهومها العام .

الثانى : قضايا لغوية خاصة ، تدخل فى نطاق علم اللغة العربية.

وينطوى تحت النوع العام القضايا الآتية :

١ ـ اللغة والفكر وعلاقة كل منهما بالآخر .
٢ ـ نشأة اللغة بشقيها المنطوق والمكتوب .
٣ ـ تطور اللغة ، وأسبابه ومظاهره .
٤ ـ الصوت العام . أنواعه ونشأته ومراحله .
٥ ـ الصوت اللغوى . مستويات نطقه ومراحله .
٦ ـ اكتساب اللغة .
٧ ـ اللفظ والمعنى .

وينطوى تحت النوع الخاص باللغة العربية القضايا الآتية :

١ ـ أفضلية اللغة العربية .
٢ ـ أصواتها .
٣ ـ الخط العربى .
٤ ـ من قضايا اللفظ والمعنى فى اللغة العربية :

(الاشتراك اللفظى والترادف والتباين والتواطؤ والاشتقاق والقلب والتبديل وبلاغة الكلام) .

وفيما يلى تفصيل هذه القضايا وتوضيح رأى الاخوان فيها فى ضوء الدراسات العربية والحديثة .

الباب الأول

القضايا اللغوية العامة

الفصل الأول

اللغة والفكر

لقد جذب هذا الموضوع كثيرا من العلماء في القديم والحديث الى الوقوف أمامه ومحاولة التعرف على صلة اللغة بالفكر ، ولقد أخذ الفلاسفة والمناطقة على عاتقهم — منذ أقدم العصور — توضيح العلاقة بينهما ، وهو موضوع لما يفرغ المحدثون من الخوض فيه الى الآن .

ولقد طرق الاخوان هذا الموضوع ورأوا أن اللغة ذات شقين :

شق عقلي وشق لفظي ، والأول هو الفكر أو « النطق الفكري » ، والآخر هو الكلام أو « النطق اللفظي » ، يقول الاخوان موضحين الفرق بين الشقين :

« اعلم ياأخي — أيدك الله وايانا بروح منه — أن المنطق مشتق من نطق ينطق نطقا ، والنطق فعل من أفعال النفس الانسانية ، وهذا الفعل نوعان : فكري ولفظي ، فالنطق اللفظي هو أمر جسماني محسوس ، والنطق الفكري أمر روحاني معقول ، وذلك أن النطق اللفظي انما هو أصوات مسموعة لها هجاء ، وهي تظهر من اللسان الذي هو عضو من الجسد وتمر الى المسامع من الآذان التي هي أعضاء من أجساد أخر ، وأن النظر في هذا المنطق والبحث عنه والكلام

على كيفية تصاريفه وما يدل عليه من المعانى يسمى علم المنطق اللغوى، وأما النطق الفكرى الذى هو أمر روحانى معقول فهو تصـــور النفس معانى الأشياء فى ذاتها ، ورؤيتها لرسوم المحسوســـات فى جوهرها وتمييزها لها فى فكرتها ، وبهذا النطق يحد الانســـان فيقال انه حى ناطق (١) مائت ، فنطق الانسان وحيـــاته من قبل النفس وموته من قبل الجسد ، لأن اسم الانســـان انما هو واقع على النفس والجسد جميعا ، واعـــلم أن النظر فى هذا النطق والبحث عنه ومعرفـــة كيفية ادراك النفس معانى الموجودات فى ذاتهـــا بطريق الحواس ، وكيفية انقداح المعانى فى فكرها من جهة العقل الذى يسمى الوحى والالهام ، وعبارتها عنها بألفاظ بأى لغة كانت يسمى علم المنطق الفلسفى » (٢).

ولا يهمنا الآن أن نظهر ونناقش ما اشتمل عليه النص من العناصر التى تشترك فى عملية الاتصال أو التواصـــل اللغوى ، والتى تنـــال اهتماما كبيرا فى هذه الآونة من علماء اللغة والنفس ، فسوف نتعرض لها فى الفصل الخاص بالصوت اللغوى ، ولكن الذى أحب أن أبرزه أن الكلام ـــ كما يظهر من النص ـــ ادراك عقلى قائم فى النفس أولا ثم يتحول الى أصوات محســـوسة حيث تتم عملية تبـــادل بين المتكلم باللسان والسامع بالأذن .

فاللغة من هذه الزاوية التى طرقها الاخوان تعبير ومعبر عنه ، وهذا هو ما تصوره ابن جنى حين عرف اللغة بأنها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم » (٣) وهو تعريف اشـــتمل ـــ على ايجـــازه

---

(١) أى مفكر .
(٢) انظر رسائل اخوان الصفا ج ٣٩١/١ ـ ٣٩٢ .
(٣) انظر : الخصائص ج ٣٣/١ تحقيق الشيخ محمد على النجار ، الطبعة الثانية . بيروت .

ودقته ـ على أهم العناصر التى يحتاج الانسان اليها فى تصور اللغة (٤) .

ولا يختلف هذا التصور كذلك عن تصور عدد من اللغويين المحدثين فى الغرب ، هنرى البريطانى « هنرى سويت » يعرف اللغة بأنها :. « التعبير عن الأفكار بوساطة الأصوات الكلامية المؤتلفة فى كلمات » .

والأمريكى « ادوارد سابير » يعرف اللغة بأنها « وسيلة انسانية خالصة لتوصيل الأفكار والانفعالات والرغبات عن طريق نظام من الرموز التى تصدر بطريقة ارادية » (٥) .

فليست اللغة الا أداة لحمل الأفكار وقالبا لها ووسيلة لنقلها ، وليست مجرد أصوات مجموعة أو حروفا مكتوبة ، ولذا يقول الاخوان:

« فالألفاظ انما هى سمات والات على المعانى التى فى أفكار النفوس وضعت بين الناس ليعبر كل انسان عما فى نفسه من المعانى لغيره من الناس عند الخطاب والسؤال » (٦) .

وقد أكد اخوان الصفا حاجة الفكر الى التعبير فى فصل عنوانه « حاجة الانسان الى المنطق » قالوا فيه :

---

(٤) انظر : د. عبد الله ربيع ، د. عبد العزيز علام : فى فقه اللغة ص ٢٥ . الطبعة الاولى ١٣٩٦ هـ ـ ١٩٧٦ م ، د. عبد الغفار هلال : اللغة العربية : خصائصها وسماتها ص ٦ الطبعة الاولى ١٣٩٩ هـ ـ ١٩٧٦ م .

(٥) انظر : د. عبد الله ربيع ، د. عبد العزيز علام : فى فقه اللغة ص ٢٦ .

(٦) انظر : رسائل اخوان الصفا جـ ٣٩٨/١ .

« واعلم أيها الأخ أنه لو أمكن الناس أن يفهم بعضهم من بعض المعانى التى فى أفكار نفوسهم من غير عبارة اللسان لما احتاجوا الى الأقاويل التى هى أصوات مسموعة ، لأن فى استماعها واستفهامها كلفة على النفوس من تعليم اللغات وتقويم اللسان والافصاح والبيان، ولكن لما كانت نفس كل واحد من البشر مغمورة فى الجسد مغطاة بظلمات الجسد حتى لا ترى واحدة منها الأخرى الا الهياكل الظاهرة التى هى الأجساد الطويلة العريضة العميقة،ولا يدرى ماعندكل واحدة منها من العلوم الا ما عبر كل انسان عما فى نفسه لغيره من أبناء جنسه، ولا يمكنه ذلك الا بأدوات وآلات مثل اللسان والشفتين واستنشاق الهواء وما شاكلها من الشرائط التى يحتاج الانسان اليها فى افهامه غيره من العلوم واستفهامه منه ، فمن أجل هذا احتيج الى المنطق اللفظي وتعليمه والنظر فى شرائطه التى يطول الخطاب فيها » (٧) •

وفى قولهم :

وهكذا نرى أن الاخوان لا يفصلون بشكل عام بين التعبير عن المعبر عنه ، أو اللغة عن الفكر ، وأن تلك اللغة هى أداة الفكر التى توضحه وتبين عنه ، ومن ثم فكل منهما يؤثر فى الآخر ويتأثر به •

ولا يهمنا الان أن نبرز الفروق الدقيقة التى رآها الاخوان بين الأفكار والمعانى والأفكار ، فسوف تظهر ذلك فى الفصل الذى خصصناه للفظ والمعنى ورغم أن موضوع الصلة بين اللغة والفكر لا يزال موضوع نزاع بين علماء اللغة والنفس والمناطقة والاجتماع وغيرهم ، ولايزال من أشد المباحث تعقيدا الى الان فاننا نرى أن الاتجاه الذى أبرزه اخوان الصفا على النحو السالف الذكر هو الاتجاه الأكثر شيوعا وقبولا لدى العلماء المحدثين والمعاصرين •

---

(٧) انظر المرجع السابق ج ٤٠٢/٢ •

فالفكر ترتبط باللغة ارتباطا وثيقا ، والعلاقة بينهما علاقة متبادلة من حيث التأثير والتأثر ، فكل منهما يؤثر فى الآخر ويتــأثر به ، ولا نستطيع أن نتكلم بما لا نقدر أن نفكر فيه ، ولا نســتطيع أن نفكر بعيدا عن قدرتنا اللغوية (٨) •

وها هو العالم السويسرى « دى سوسير » يرى أنه « بدون اللغة تعد الفكرة شيئا غامضا وسحابة مجهولة ، لا وجود لما يسبق الأفكار، ولا شىء واضح قبل ظهور اللغة » (٩) •

ويشبه الفكرة والصوت بصــحيفة من الورق : « الفكرة وجــه الورقة ، والصوت خلفها ، لا يستطيع المرء قطع وجه الورقة من غير أن يقطع خلفهــا فى نفس الوقت • نفس الشىء فى اللغة فان المرء لا يستطيع فصل الصوت عن الفكرة ولا الفكرة عن الصوت ، يمكن عمل القسمة فقط بشكل تجريدى ، والنتيجة ستكون اما نفسية خالصة أو صوتية خالصة » (١٠) •

ان الفكر ــ وهو ذلك السر البشرى المتسامى المتطلع الى الكمال والى التجريد ــ يتأثر باللغة ويؤثر فيها آخذا بيدها فى رحلته الطويلة، يعينها ما استطاع على أن تتم معه الرحلة حتى نهايتها (١١) •

---

(٨) انظر : د• جمعة سيد يوسف : سيكلوجية اللغة والمرض العقلى ص ١٥٥ ــ سلسلة عالم المعرفة ، العدد « ١٤٥ » ط الكويت •

(٩) انظر : فصول فى علم اللغة العام ص ١٩٥ • ترجمة د• احمد نعيم الكراعين ، ط الاسكندرية ١٩٨٥ م •

(١٠) أنظر : المرجع السابق ١٩٧ •

(١١) وقد أورد د• حسن ظاظا بعض الامثلة لالفاظ رفعها الفكر من طينية الحس ــ على حد تعبيره ــ الى آفاق التجريد الفلسفى فى مراحل

وهناك اتجاهات أخرى حديثة خرجت عن هذا الاتجاه المشهور ، ولها أنصار يؤمنون بها فى المدارس الفلسفية والنفسية والاجتماعية ، ويعتبر بعضها أكثر تطرفا ، ويمكن — من خلال المصادر المتاحة — أن أحصر أهمها فى خمســة اتجاهات :

الاتجــاه الأول :

أما الاتجــاه الأول فيؤمن أصحــابه بالربــط الوثيق بين اللغة والفكر باعتبــار أن اللغة هى المظهر الخــارجى الذى يقدم الفكر من خلاله ، ويرون أن ما يدور بخــلد الانسان وان كان من الممكن التعبير عنه بأكثر من وسيلة كالرسم بالألوان أو بالموسيقى الا أن اللغة هى أكثر الأدوات شيوعا فى التعبير عن الأفكار ، لكن أصحاب هذا الاتجاه يرون أن التفكير يؤثر فى اللغة حيث ســبق عليها (١٢) ، زاعمين أن هذه مسألة تقع فى تجربة كل واحد منــا ، فحين يكون لدى الشخص فكرة يتحسس التعبير عنها نراه يخلع عليها — على التعاقب — ألفاظا

=

تطور هى بلاشك من صنع العقل البشرى مثل : المروءة ، والــروح والدين ، والعقيدة والعقل ، والادب ، والشرف ، والجنــة ، وجهنم والمعروف ، والمنكر ، والنفس ويقول عن النفس :

« أصلها من مادة التنفس ، أى استنشاق الهواء شهيقا وزفيرا ». ومن ذلك استعملت النفس بمعنى الكائن المحتوى على سر الحياة ، لانه يتنفس ، ثم سميت المرأة التى وضعت حملها نفساء ، لانه خرجت من بطنها نفس أخرى حية » .

وقال : « كل ذلك تطور مع احتياجات الفكر للتعبير ، ولم ينزل وحيا من السماء على بنى آدم دفعة واحدة » . أنظر : اللسان والانسان ٨٨ — ٩٤ ، ط دار المعارف ١٩٧١ م .

(١٢) انظر : د. جمعه سيد يوسف : سيكلوجية اللغة ص ١٥٢ .

غير ملائمة ولا مرضية فيطرح كل لفظ منها واحدا بعد الآخر الى أن يعثر آخر المطاف على اللفظ الذى يخيل له أنه مطابق للفكرة » (١٣) •

ويفسر بعضهم تقدم الفكر على اللغة وصدارته عليها بتقدم الرتبة أو الحيثية لا تقدم الزمان أو الوجود فى الأعيان ، ويؤكد تلك الصدارة بقدرة الانسان على التعبير عما فى نفسه بلغات عديدة غير لغة الكلام » (١٤) •

الاتجاه الثاني :

أما الاتجاه الثانى فيؤمن أصحابه بالربط بين اللغة والفكر ، ولكن يرون أن اللغة أكثر تأثيرا فى التفكير، اذ النسق اللغوى ليس أداة لاعادة انتاج الأفكار المنطوقة ، وانما هو المشكل للافكار ، وهو المبرمج والموجه للنشاط العقلى للفرد ولتحليل الانطباعات وصياغة وحدات التفكير ، وهذه الصياغة للأفكار ليست عملية مستقلة وانما هى جزء من النحو ، وتختلف من لغة الى أخرى (١٥) •

واذا كان أصحاب هذين الاتجاهين يؤيدون فكرة الربط بين اللغة والفكر ، فانهم بعدوا عن الاتجاه المشهور حين رأوا أن أحدهما سابق على الآخر ، وأكثر تأثيرا فيه ، وهذا مردود اذن اللغة والفكر ظاهرتان متعاصرتان ، وبينهما علاقة معينة لا علاقة سابق ولاحق ، فليس الفكر

---

(١٣) انظر : د• عثمان أمين : فى اللغة والفكر ص ٣٢ ط معهد البحوث والدراسات العربية ١٩٦٧ م •

(١٤) انظر : المرجع السابق ص ٣٣ •

(١٥) انظر : د• جمعة سيد يوسف : سيكلوجية اللغة ص ١٥٢ ، وكندراتوف : الاصوات والاشارات ص ٦٧ ـ ٧١ ترجمة شوقى جلال ط الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٧٢ م •

قبل الكلام ولا خارج عن الكلام ، انما الفكر فى الكلام ، وقد انطوى كل منهما فى الآخر ، والكلام ليس خــارج الفكر ، بمعنى أن الكلام لا يصوغ الفكر فقط بل انه يشكله بقدر ما يصوغه » (١٦) .

فالفكر والكلمة جسم واحد ، لا يحصل فكر بدون أن تحدث لغة، ولا تحدث لغة لا تكون ذاتها فكرا (١٧) .

الاتجاه الثالث :

أما الاتجاه الثالث فقد مزج أصــحابه بين اللغة والفكر مزجــا تاما ، ووحد بينهما ، اذ « التفكير عبارة عن تناول الكلمات فى الذهن، أو هو عبارة عن عــادات حركية فى الحنجرة ، أو هو حديث داخــلى يظهر فى الحركات قبل الصوتية لأعضاء الكــلام ، أى أن التفكير كلام ضمنى » (١٨) .

فنحن عندما نفكر نتكلم فعلا على الرغم من أن الكــلام لا يكون مســموعا (١٩) .

وقد أيد أصحاب هذا الاتجاه وجهة نظرهم بعمل أبحاث تجريبية انتهوا منها ــ على ما زعموا ــ الى أن عملية التفكير تكون مصحوبــة فعلا ببعض حركات اللسان وأجزاء أخرى من الجهاز الكلامى (٢٠) .

---

(١٦) انظر د. عثمان أمين : فى اللغة والفكر ص ٣٧ ــ ٣٩ .
(١٧) أنظر : كمال يوسف الحاج : فى فلسفة اللغة ص ٢٤ ط بيــــروت ١٩٦٧ م .
(١٨) انظر : د. جمعة سيد يوسف : سيكلوجية اللغة ص ١٤٤ .
(١٩،٢٠) انظر : د. سيد غنيم : اللغة والفكر عند الطفل : مجلة عالم الفكر المجلد « ٢ » العدد الاول ص ١١٠ .

ومن مؤيدى فكرة المزج بين اللغة والفكر فى عالمنا العربى المعاصر الدكتور زكى نجيب محمود (٢١) : فقد رأى « أن اللغة التى يضع فيها المفكر فكره لينقله الى سواه هى هى الفكر نفسه » ويرفض الاتجاه المألوف بين الناس فى نظره حين قال : « فالمألوف بين الناس أن ينظروا الى العبارة اللغوية نظرتهم الى وعاء يملأ بما يملأ به ، أو يترك شبه فارغ من مادة تملؤه ، أى أن المألوف بيننا هو النظر الى العبارة اللغوية المعنية نظرة تجعلها شيئا آخر غير المعنى الذى جاءت لتؤديه ، لكن اللفتة الجديدة التى نلفت الأنظار اليها — تمهيدا للوضوح الفكرى الذى نبتغيه — هى أن العبارة اللغوية هى نفسها الفكرة ، اذا غابت غابت معها الفكرة ، واذا اضطرب نظمها اضطرب معه معناها »

وقد رأى أن الامام عبد القاهر الجرجانى كان مدركا لهذه اللفتة حيث قال الدكتور زكى : « وليس هذا القول جديدا كل الجدة حتى على أبناء اللغة العربية والفكر العربى ، فقد كانت النتيجة التى انتهى اليها عبد القاهر الجرجانى من بحثه عن أسرار البلاغة — وتتذكر أن هدفه من بحثه كان آخر الأمر كشفه عن بلاغة القرآن الكريم ما سرها ؟ — أقول ان النتيجة النهائية التى انتهى اليها عبد القاهر الجرجانى من كتابيه « أسرار البلاغة ، واعجاز القرآن » هى أن السر كامن فى الطريقة التى ترتب بها مفردات الجملة ، وهكذا تكون الحال كذلك لو سألنا : ما سر الوضوح فى عالم الفكر ؟ كان الجواب : انه فى الطريقة التى تساق بها الكلمات » .

---

(٢١) انظر : حصاد السنين : مقال رقم « ١١ » بعنوان : رؤية واضحة « ٣ » جريدة الاهرام — العدد « ٣٧٦٣٢ » السنة ١١٤ . الثلاثاء ٢٠ جمادى الاولى ١٤١٠ هـ — ديسمبر ١٩٨١ م .

ونظرا للمزج بين اللغة والفكر فى نظر الدكتور زكى فقد رأى أن غموض اللغة يعنى غموض الفكر وقصور الابداع الفكرى ، والعكس بالعكس ، وألقى باللوم على العامة والخاصة من أبناء العربية فى عصرنا الحديث حين عقم تفكيرهم فامتنع ابداعهم ولجأوا الى الأخذ عن الأسلاف مرة وعن الغرب الحديث مرة أخرى وذلك حين أهملوا لغتهم الفصحى واستخدموها بالطريقة التى تدور على ألسنة الناس فى أحاديثهم الجارية فأوقعتهم فى « سقطات عقلية لا ينقذهم منها الا التدقيق فى استخدامهم للغتهم كلما كان موضوع الحديث من الجدية والأهمية والخطورة بحيث يستوجب أن تكون الفكرة المنقولة والمحمولة فى أصلاب التفكير اللغوى الذى ينقلها فكرة واضحة الدلالة فى المرحلة الزمانية والرقعة المكانية التى استخدمت فيها .

وقد ضرب أمثلة من تاريخ الفكر تبين كيف كان الانتقال بالفكر من عصر الى عصر يليه ويتقادم عليه مشروطا بنظرة جديدة الى اللغة لتجلعها منارة دقة ووضوح ، وذلك حين تساءل : « لماذا اشتملت الخطوة العلمية الأولى فى مسيرة الفكر الاسلامى على العناية باللغة عناية أريد بها أن يقام البحث فيها على أسس علمية دقيقة ؟ كان ذلك لأن كتابا كريما قد نزل بدين الاسلام ، ولابد أن تقام على ذلك الكتاب الكريم حضارة اسلامية وثقافة اسلامية وذلك يستوجب أن يحيط المسلم بلغة احاطة العلم الدقيق الواضح لكى يتاح له فهم الكتاب الكريم فهما يعول على صحته . ثم لماذا حين أرادت أوروبا أن تنهض من ظلام عصورها الوسطى قام فيها رجلان يرفعان للناس لواء اللغة الواضحة وهما ديكارت فى فرنسا ، وفرانسيس بيكون فى انجلترا . ونسأل للمرة الثالثة لماذا كان من أوائل ما صنعه رجال الثورة الفرنسية فى أواخر القرن الثامن عشر أن أقامت مجمعا للبحوث

العلمية جعلت أحد اقسامه مختصا بما أسموه للمرة الأولى فى تاريخ المصطلح الأوربى « أيديولوجيا » ، لكنهم قصدوا به معناه الحرفى ، وهو « علم الأفكار » وكان علم الأفكار عندهم يهتم أول ما يهتم بدراسة اللغة دراسة تهدى الى طريقة استخدامها على دقة ووضوح كلما اقتضى الموقف فكرا واضحا ودقيقا » .

الاتجاه الرابع :

أما الاتجاه الرابع فعلى النقيض من الاتجاه السابق ، اذ يفصل أصحابه بين اللغة والتفكير (٢٢) ، ويرى بعضهم أن الكلام تعبير خارجى للفكرة أو ثوب لها . ويرى بعضهم أن التفكير محرر من كل المكونات الحسية بما فيها الكلمات ، ويتصورون العلاقة بين الفكرة والكلمة علاقة خارجية بحتة ، ويدرسون خصائص التفكير مستقلا ، ثم خصائص الكلام معزولا عن التفكير ، ثم يتصورون وجود علاقة بين هذا وذاك على أنها ارتباط آلى خارجى لعمليتين مختلفتين (٢٣) . ويرى بعضهم أن هناك توازيا بين التفكير واللغة ، ولا ينبغى أن تؤخذ العلاقة بينهما على أنها علاقة سببية ، فقد تصاغ اللغة أو تتشكل من خلال الظروف البيئية والنظم الاجتماعية وأساليب التفكير السائدة ، وهذا لا يمنع من التأثير فى التفكير رغم أنه لا يمكن القول أن دراسة اللغة فى حد ذاتها يمكن أن تعين الخاصية العامة للتفكير لدى مستخدميها . ويرى بعضهم أن اللغة والتفكير مرتبطان تماما بالطفولة، ولكن مع الارتقاء يصبح تفكير الراشدين متحررا من اللغة بطريقة ما ، فهناك فرق بين فكر الراشد وفكر الطفل،ففكر الأول فكر مكيف للمجتمع

---

(٢٢) انظر : د. حسن ظاظا : اللسان والانسان ص ٧٢ ، ٨٦ .

(٢٣) انظر : د. جمعة سيد يوسف : سيكلوجية اللغة ص ١٤٩

وان كان بمفـرده ، وفكر الآخر فكـر مركـزى الذات وان كان فى جمـاعة (٢٤) •

وهكذا تتباعد الاتجاهات وتختلف الآراء ، ويحتـد الخـلاف ـــ ولا يزال ـــ بين العلماء وبخاصة علماء النفس ، وكل مدرسة تعـالج المشكلة من زاويتها الخاصة ، سواء على مستوى علم نفس الطفل ، أو علم النفس الاجتماعى أو علم النفس التربوى ، وان دارت جهودهم حول نقطة مركزية أساسية وهى تفسير السلوك الانسـانى فى ضوء النظريـات التى يتوصل اليها العلماء من دراستهم للسلوك العام الذى يدخل السلوك اللغوى فى تكوينه •

وقد ظهرت ـــ منذ القدم ـــ صناعات تهتم بالتعبير أو الألفـاظ والعبارات ، وأخرى تهتم بالمعبر عنه أو الفكر ، على أن الصـناعات الفكرية لا تستغنى عن الصناعة اللفظية ولا تفهم دونها نظر لارتباطهما على نحو ما قدمنا •

ويوقفنا الاخوان على جانب من تلك الصناعات حين قالوا :

« وأما علوم المنطق فهى نوعان : لغوى وفلسفى ، فاللغوى مثل صناعة النحو ، والأصل المتفق عليه بين أهلها هو معرفتهم بالأسـماء والأفعال والحروف واعرابهـا من الرفع والنصب والخفض ، ومثل صناعة الخطب التى الأصل فيها هو معرفة السجع والفصـاحة وضرب الأمثال والتشبيهات ، ومثل صناعة الشعر التى الأصـل فيها معرفة المفاعيل والأسباب والأوتاد والحروف المتحركـات والسواكن • فأما

---

(٢٤) انظر د• سيد غنيم : اللغة والفكر عند الطفل • عالم الفكر ، المجلـد « ٢ » العـدد الاول ص ١١١ ـ ١٢٤ ، د• جمعه سـيد يوسف : سيكلوجية اللغة ص ١٤٤ ـ ١٥٠ •

النظر فى فروعها ومعرفة المنزحفات منها والعويص وعللهـا فهم فيها متفاوتوا الدرجات بحسب تنوسم وطـول دربتهم ودوام رياضتهم .
وهكذا أيضا المنطق الحتمى هو فنون شتى ، منه صناعه البرهـان ، ومنه صناعة الجدل ، ومنه صناعة السفسطائيين ، يعنى المغـالطين .
فأما صناعة البرهان فان الاصل المتفق عليه بين أهلها هو معرفتهم بمعانى الستة الفاظ (٢٥) التى فى ايساغوجى [كتاب الكليات لفـور فوريوس اليونانى] ، والعشرة (٢٦) التى فى كتـاب قاطيغورياس [كتاب المقولات لأرسطو] ، والعشرين كلمة (٢٧) التى فى باريمينياس « كتاب العبارة لأرسطو » ، والسبعة (٢٨) التى فى أنولوطيقا « كتـاب القياس لأرسطو » . فأما ما يتفرع من فنون المعانى وما يعرض فيها من غرائب المباحث فبحر عميق قد تاه فيه أفهام كثير من الناظرين فيها ، وتحيرت عقول كثير من الباحثين عنها لدقة المعانى لهـذه الصـناعة ، وعجيب أصولها ، وكثرة فروعها ، وبعد مرامى أهلهـا ، لأن من هـذه

---

(٢٥) منها ثلاثة دالات على الصفات « المعانى » وهى الفصـل والخاصة والعرض ، وثلاثة دالات على الموصـوفات « الاعيـان » وهى الشخص والنوع والجنس . انظر رسائل اخوان الصفا ج/ .

(٢٦) وتلك الالفاظ التى تتضمن معانى الموجودات كلها ــ كما ذكر الفلاسفة ــ هى : الجوهر والكم والكيف والمضـاف والاين ومتى والنصبة « الوضع » والملكة ويفعل وينفعل ويسميها الحكماء والمناطقة المقولات العشر . راجع : رسائل اخوان الصفا ج ٤٠٤/١ ــ ٤١٣ .

(٢٧) وهى معرفة تلك الالفاظ السالفة الذكر وماتدل عليه من المعانى عند التركيب حتى تصير كلمات وقضايا ويكون منها الصدق والكذب . راجع المرجع السابق ج ٤١٤/١ ــ ٤١٩ .

(٢٨) وهى معرفة كيفية ترتيب تلك الالفاظ السابقة مرة أخرى حتى يكون منها مقدمات ونتائج . راجع المرجع السابق ج٤٢٠/١ ــ٤٢٨

الصناعة تعرف أداب الفلسفة ، وأدب الحكم ، وميزان العقل ، ومقاييس الحقائق التى تسمى البرهان » (٢٩) •

ويؤكد الأخوان حاجة المشتغل بتلك الصناعات الفكرية من برهان وجدل وبرهان وسفسطة الى علوم اللغة من نحو وعروض وغير ذلك حين قالوا :

« ولا يقرب على المتعلمين فهم علم المنطق الفلسفى ، ولا يسهل تأمله على الناظرين دون معرفة علم المنطق اللغوى » (٣٠) •

واذا كان المتعلمون والمشتغلون بالصناعات الفكرية فى حاجة شديدة الى علوم اللغة بعامة فان حاجتهم الى علم النحو ــ بخاصة ــ أشد ، كما ذكر الاخوان (٣١) •

ووصلت العلاقة بين الصناعتين : الفكرية واللفظية مدى بعيدا فى عقول فلاسفة اليونان قديما ، فقد صاغ أرسطو ومن نحا نحوه قضايا علم المنطق ومسائلة على نهج لغوى شبيه بكلام الناس ، اعتقادا منهم أن أساليب اللغة ليست الا وسيلة للتعبير عما يدور فى الأذهان ، ومثل الفكر الانسانى قبل النطق بمضمونه مثل الصورة الشمسية قبل تحميضها ، فاذا عولجت بقدر خاص من الأحماض اتضحت معالمها وتكشف خطوطها وملامحها • وهكذا شأن التعابير اللفظية مع العمليات الذهنية لا يكاد يعدو مهمة التوضيح وابراز المعالم والملامح للأذن الانسانية » (٣٢) •

---

(٢٩) انظر المرجع السابق ج ٣ / ٤٣٦ ــ ٤٣٧
راجع النص المذكور فى صور هذا الفصل •
(٣٠) انظر المرجع السابق حـ ٣٩٢/١ •
(٣١) انظر المرجع السابق حـ ٤١٤/١ ــ ٤١٥ •
(٣٢) انظر د• ابراهيم أنيس من اسرار اللغة ١٣٢ وما بعدها •

فهل يصلح المنطق أساسا للدراسة اللغوية ؟ وهل يمكن صب اللغات في قوالب منطقيه مثل ما فعل فلاسفة اليونان بلغتهم قديما ؟ وهل النحو ينبغي أن يطابق المنطق ؟ وما موقف الدراسة الحديثة من تلك التساؤلات ؟ وما موقف العربية وعلمائها من ذلك ؟

ان القول الفصل يحتاج الى بحث خاص ، وللمتعجل أن يرجع الى بعض ما كتب عن هذا الموضوع (٣٢) •

=

د• محمود السعران ، علم اللغة : مقدمة للقارىء العربى ٧٩ وما بعدها ط دار المعارف ١٩٦٢ م ، د• عبد الرحمن بدوى الصلة بين المنطق واللغة مجلة عالم الفكر المجلد •

(٣٣) العدد الاول ص ٦٥ ــ ٩٠ ، وكتابة : المنطق الصورى والرياضى •

الفصل الثانى

نشـاة اللغـة

تعد نشأة اللغة قضية من القضايا اللغوية التى نالت أكبر حظ من اهتمـام العلماء فى القديم والحـديث ، ولم يكن الاهتمام بهـا مقصورا على اللغويين ، وانما شاركهم أيضا الفلاسفة وعلماء الاجتماع والكلام والمفسرون •

وعلى الرغم من تضافر جهود العلماء طيلة العصور المختلفة ، فان أمر هذه القضية لم تقل فيه بعـد الكلمة التى يقـرها منهج البحث ، وذلك أنه لم يقل رأى الا تعقبه آخر يبطله ، ووصل الأمر بهذه القضية الى وجوب اغلاق البحث فيها ، حيث قرر أعضـاء الجمعية اللغـوية (بباريس) عدم مناقشة هذا الموضوع فى جلساتها ، وهو مانبـه عليه شر من قبلهم ـ فريق من علمـاء العربية ، ومنهم ابن السـبكى حيث « قال فى رفع الحاجب : الصحيح عندى أنه لا فائدة لهذه المسألة ، وهو ما صححه ابن الأنبارى وغيره » (١) •

وقد كان اخوان الصفا من بين الفلاسفة الذين استهواهم الخوض فى هذا الموضوع ، فقد عقدوا فصلين فى رسائلهم بعنوان « فصل فى معرفة بداية الحروف » ، « فصل فى معرفة أصل الصوت •• » تناولوا فيهما نشأة اللغة بشقيها المنطوق والمكتوب •

---

(١) انظر : السيوطى : المزهر فى علوم اللغة وانواعها جـ ٢٦/١ تحقيق محمد احمد جاد المولى واخرين ط عيسى البابى الحلبى •

أولا : نشأة اللغة المنطوقة :

أما عن نشأة اللغة المنطوقة فنراهم يقولون :

« اعلم أن الله تعالى لما خلق آدم عليه السلام الذى هو أبو البشر ومبدؤه ، جعله ناطقا متكلما فصيحا مميزا بالقـوة الناطقـة والروح الشريفة والقوة العاقلة القدسية ، وجعل صورته أحسن الصور ، وشكله أفضل الاشكال ، وطبيعته أصفى الطبائع الارضـية ، ومزاجـه أعدل الأمزجة مما هو خارج عنه ، وجعله سيد الحيوانات كلها ، ومليكا عليها، وأميرا ورئيسا فيها ، وملكه اياها ، وألزمها طاعته ، والسجود لها طوعا وكرها ، كما قال الله تعالى للملائكة « انى جاعل فى الأرض خليفة » ، فلما جعله بهذا المثال فليس من الحكمة أن يكون صامتا كالجماد ، ولا سكوتا كالحيوان الذى لا ينطق ، بل قائما ، متكلما ، معلما ، مفهما ، عاقلا ، حكيما ، لأنه سبحانه وتعالى نفخ فيه من روح قدسه وأيـده بكلمته وعلمه الأسماء كلها : وصفات الأشياء كلها ، وجعل له العقـل العاقل لها والمحيط بمعرفتها ، وأخرج سـائر الموجودات من المعـادن والنبات والحيوان اليه ، ليديرها ويسوقه اليه منافعها ، ويدلهـا على ما يكون به صلاحها وبقاؤها وتزايدها ونماؤها وسلامتها من الآفات ، ويضع كل شيء منها فى موضعه ويوفيه قسطه من حفظ النظـام وبلوغ التمام ، وجمع له هذه الأشياء كلها صغيرها وكبيرها ، جليلها وحقيرها فى تسع علامات بأشكال مختلفة مسماة بأسماء قد جمعت أسماء جميع الموجودات ، وانعقدت بها المعانى كلها ، كما اجتمعت أجزاء الحساب كلها والأعداد بأسرها فى التسعة الأعداد التى من واحد الى تسعة ، وكذلك وجودها فى العالم العلوى على هذه النسبة ، وهذه الحروف هى التى علمها الله سبحانه وتعالى آدم عليه السلام ، وهى التى يستعملها أهل الهند على هذه الصفة (١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠) »

وقد كان بهذه الحروف يعرف أسماء الأشياء كلها وصفاتها على ما هي عليه وبه موجودة من أشكالها وهيأتها ، ولـم يزل كذلك الى أن كثر أولاده وتكلم بالسريانية .. » (٢) .

ولما كثر أولاد آدم « تولى تعليمهم وتأديبهم وتهذيبهم : وعلمهم كيفية الحرث والزرع وازدواج الذكور والاناث ، وعمروا العالم وعاينوا الحيوانات وما تضعه بعضها ببعض ، وما يطلب من منافعها ، فاقتدوا بها في أفعالهم ، وأيد الله تعالى آدم عليه السلام بوحيه والهامه لما تاب عليه بما يكون له به صلاح ، ولذريته فلاح ، وأقام على ذلك مدة ما أراد الله تعالى : ثم نقله الى رحمته وخلفه من خلفه في ذريته وأولاده ، ولم يزل الأمر كذلك وبنو آدم مع والدهم يتكلمون بالسريانية ، وقال بعضهم بالنبطية ، ويفهم بعضهم عن بعض المعـاني وما قصـدوا وأرادوا ، ووصفوا كل شيء بصفته الا أنها لم تكن الحروف مجتمعة بعضها الى بعض ولا مؤلفة بالكتابة ، وانما كان آدم ، عليه السلام ، يعلمهم تلك الأسماء تلقينا وتعريفا ، كما يعلم الأشياء ويعرف من لا علم له بالكتابة والهجاء ، ولذلك يقال لمن لا يكتب أمي ، وكان الخلـق يحفظون تلك الأسماء والصفات عن السلف ... » (٣) .

فالاخوان يرون — كما هو واضح من النصين — أن الله تعالى هو الذي ألهم آدم اللغة ولقنه اياها ، ومصـدرهم في هذا قوله تعالى : « وعلم آدم الأسماء كلها » (٤) حيث يدل ظاهر الآية على أن اللغة هبة من الله .

---

(٢) انظر : رسائل اخوان الصفا ج ٣/ ١٤١ ـ ١٤٢ .
(٣) نفس المرجع السابق ج ١٠٣/٣.
(٤) الاية ٣١/البقرة .

ثم نراهم يزعمون أن الحروف الهندية (١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩) هى التى عرف بها آدم أسماء الأشياء وصفاتها الى أن تكلم بالسريانية أو القبطية ، بل يزعمون أن الحروف الهندية هى التى أخرجت مع آدم عليه السلام من الجنة (٥) ، فى حين تذكر بعض المصادر العربية أن الله تعالى علم آدم أسماء جميع المخلوقات بجميع اللغات العربية والفارسية والسريانية والعبرانية والرومية وغير ذلك من سائر اللغات ، فكان آدم وولده يتكلمون بها الى أن تفرق ولده فى الدنيا ، وعلق كل واحد منهم بلغة من تلك اللغات فغلبت عليه واضمحل عنه ما سواها لبعد عهدهم بها (٦) وتذكر بعض المصادر أيضا أن لغة العرب هى أول اللغات التى ألهمها الله آدم ، وكل لغة سواها حدثت بعدها اما توقيفا أو اصطلاحا ، مستدلة بأن القرآن كلام الله وهو عربى، وهو دليل على أن لغة العرب أسبق اللغات وجودا (٧) ، وتذكر بعض المصادر أيضا أن اللسان الأول الذى نزل به آدم من الجنة عربى الى أن بعد العهد وطال حرف وصار سريانيا ، وكان يشاكل اللسان العربى الا أنه محرف • وتذكر بعض المصادر أن لغة آدم فى الجنة كانت العربية ، فلما عصى سلبه الله العربية فتكلم بالسريانية ، فلما تاب رد الله عليه العربية (٨) •

وسواء أصح هذا أم ذاك فان مذهب الالهام هذا فى نشأة اللغة لم يسلم به علماء كثيرون ، اذ نرى بعضهم يدلل على أن الانسان هو مصدر اللغة وهو واضعها وصانعها ووصل اليها بالاصطلاح والمواضعة،

---

(٥) انظر رسائل اخوان الصفا جـ ٣ /١٤٨

(٦) انظر : ابن جنى : الخصائص جـ١/ ٤١ ، والسيوطى : المزهر جـ ١ /١١ .

(٧) انظر : السيوطى : المزهر جـ١/٢٨

(٨) انظر : المرجع السابق جـ١ /٣٠

ونرى بعضهم يدلل على أن الأنسان هو صانع اللغة ووصل اليها بالمحاكاة والتقليد لكل ما وقع على سمعه من أصوات الطبيعة والحيوانات والطيور والأحداث ، ونرى بعضهم يدلل على أن الانسان الأول خلق مزودا بغريزة صار بوساطتها قادرا على التعبير عن المدركات الحسية والمعنوية ... الى غير ذلك من الآراء والمذاهب (٩) .

ومن الخطأ الاصرار على رأى بعينه والتعصب له ، اذ لا يستبعد أن تكون اللغة بأنظمتها المعقدة قد نشأت وتكونت عن تلك الروافد المتعددة والمغذيات المختلفة .

وحين رأى الاخوان أن الله خلق آدم وجعله ناطقا متكلما فصيحا مميزا بالقوة الناطقة والروح الشريفة والقوة العاقلة ، وجعل صورته أحسن الصور وشكله أفضل الأشكال ، وجعله سيد الحيوانات كلها ، ومليكا عليها ، أقول حين رأى الاخوان هذا منذ أكثر من ألف سنة كأنهم يردون على أصحاب تلك النظرية الحديثة الخاصة بتطور الكائنات الحية جسمانيا وفكريا وعقليا ، حيث يزعمون أن الانسان لا يعدو أن يكون

---

(٩) راجع ابن جنى : الخصائص ج١ / ٤٠ ـ ٤٧ ، وابن فارس (ت٣٩٥هـ) : الصاحبي ص ٦ ـ ٩ تحقيق السيد احمد صقر . طبعة عيسى البابى الحلبى ، السيوطى : المزهر ج /٨ ـ ٣٠ ، د. عبدالله ربيع. د. عبد العزيز علام : فى فقه اللغة ص ٣٨ ـ ٥٥ ، د. عبد الغفار هلال : اللغة العربية اسمائها وخصائصها ص ١٧ ـ ٣٩ ، د. امين فاخر . دراسات لغوية فى الصاحبى والخصائص والمزهر ص ٢٢ ـ ٣٦ الطبعة الثالثة ١٤٠١ هـ / ١٩٨١م د. ابراهيم انيس : دلالة الالفاظ ص ١٣ ـ ٣٧ الطبعة الثالثة ١٩٧٦م ، ماريوباى : لغات البشر : اصولها وطبعتهاوتطورها وتطورها ص ١٧ ـ ٢٠ ترجمة.: د. صلاح العربى . نشر الجامعة الامريكية بالقاهرة . نوفمبر ١٩٧٠ م.

تطوروا الأرقى الأجناس من الحيوان ، وأن لغة هذا الانسان بدأت فى صورة شهقات وتأوهات صدرت عنه بشكل غرزى لتعبر عن فرح أو دهشة أو غضب أو ألم ونحو ذلك من انفعالات قوية • وهم بذلك يربطون بين النشأة اللغوية للانسان وبين تلك الأصوات الغريزية والانفعالية ، وجعلها الأساس الأول الذى منه استمدت اللغة الانسانية نشأتها •

وقد فات على هؤلاء المنادين بهذه النظرية أن تلك الأصوات أصوات فجائية منعزلة عن الكلام الذى يصدر عن المرء بصورة ارادية، فليست تصدر عن المرء الا حين يعييه القول أو يأبى الكلام ، بالاضافة الى أنها تشتمل على عناصر صوتية لا تكاد تسمع فى لغات البشر (١٠) •

وبين رأى الاخوان أن الله خلق آدم وجعله ناطقا متكلما فصيحا مميزا بالقوة الناطقة « وليس من الحكمة أن يكون صامتا كالجماد ، ولا ساكتا كالحيوان الذى لا ينطق ، بل قائما متكلما فهما عاقلا حكيما ، لأنه سبحانه وتعالى نفخ فيه من روحه وأيده بكلمته » ، أقول حين رأى الاخوان هذا كأنهم يردون على تلك النظريات الحديثة التى تفترض أن الانسان الأول ظل صامتا فترة من الزمن قبل أن تنشأ لغته ثم نطق بأصوات كأصوات لغتنا وأدت عضلات نطقه وظيفتها أداءا كاملا (١١)•

واذا كان الاخوان أن اللغة نشأت وحيا والهاما فانهم يرون — مع ذلك — أن للكواكب والأفلاك أثرها فى تلك النشأة ، اذ يقولون :

« ألهم الله تعالى عطارد صاحب المنطق النطق ، ونطقت حواء وعلم الله آدم الأسماء كلها ، فصار يعرفها ويلقى على كل جنس وشكل ونوع

---

(١٠) أنظر : د• ابراهيم انيس : دلالة الالفاظ ص ٢٣ •
(١١) انظر المرجع السابق ص ٢٠ — ٢٧

وشخص من النبات والمعادن والحيوان وجميع المرئيات الأسماء والصفات » (١٢) •

وهذه الرؤية نابعة من اعتقادهم فى الكواكب وايمانهم بتأثيرها فى كل الكائنات التى دون فلك القمر ، وسوف يتضح لنا بطلان هذا الاعتقاد فى الفصل القادم ان شاء الله •

ثانيا : اللغة المكتوبة :

لقد تحدث الاخوان عن نشأتها ، وأصل خطوطها ، ومقياس جودتها ، وفضائلها :

(أ) أما عن نشأة اللغة المكتوبة فقد تعرض لها الاخوان حين قالوا :

« وتشكل الفلك بشكل أوجب التغير والاستحالة بعد مضى آدم عليه السلام ، ولم يكن يكتب فى زمانه كتابات أو يخط بقلم ، وانما كان تلقين بألفاظ وكلام يحفظ لقلة العدد ، ولأنه ما كان فى الأرض من العالم الانسانى أكثر من بيت واحد ، والكلام فيما يحتاجون اليه فقط ، ولم يكن لهم حديث فيما مضى ولا حاجة بهم اليه ولا بغية من آثار من كان قبلهم فى كتاب ولا طومار (١٣) ، ولأن كلام الملائكة لا يكتب فى الأجسام الطبيعية ، وانما هيولاها (١٤) الجواهر النفسانية ، وكما أن الناس فى

---

(١٢) انظر : رسائل اخوان الصفا جـ ١١٢/٣

(١٣) أى صحيفة • انظر : ابن منظور : لسان العرب «طمر» •

(١٤) الهيولى بضم مخففة او مشددة هو كل جوهر قابل للصورة• انظر رسائل اخوان الصفا جـ ٦/٢ ، أو بعبارة اخرى هو مادة ليس لها شكل ولاصورة معينة قابلة للتشكيل والتصوير فى شتى الصور ، وهى التى صنع الله تعالى منها اجزاء العالم المادية كما يرى القدماء • انظر المعجم الوسيط جـ ١٠٠٤/٢ (هال) • الطبعة الثانية • دار المعارف ١٣٩٣ هـ ١٩٧٣ م •

هذا الوقت لا يحتاج الرجل منهم هو وأهل بيته أن يكتب جميع ما يحتاجون اليه ولا أن يثبتوا جميع ما فى بيوتهم من كتاب يذكرون فيه كل ما عندهم من مأكول ومشروب وما ينتفع به ، وانما حاجتهم الى علم أسماء ذلك ، فهم يعلمون ذلك أولادهم حتى يعرفوه وينشأوا عليه بأى لفظ كان . ثم ذهب السلف وبقى الخلف ، وتفرقوا فى الأقاليم، وتقطعوا فى الأرض وذهبوا فى الأطراف ، فأوجبت الحكمة الالاهية والعناية الربانية تقييد تلك الأسماء والألفاظ والحروف بصناعة الكتابة، ولولا ذلك لبعد من الخلف ما كان يستعمل السالف من التى كانت حاجتهم اليها ، ولما كان اللسان يحيل بينهم وبين ما يحتاجون اليه من ذلك بالكذب ، وكانوا لا يعلمون أخبار من كان معهم فى الأرض اذا غابوا عنهم بالمكان ، لأن الرسول لا يمكنه حفظ جميع ما فى قلب مرسله ، فلما كان ذلك كذلك أظهر الله تعالى صناعة الكتابة فزادوا فيها وعرفوها ومهروا فيها وألفوها واعتادوها ، وبعث الله فيهم من الأنبياء عليهم السلام ، وأقام فيهم من الحكماء من أظهر فيهم الصنائع ، وكثرت بينهم الصناع والمتعلمون والعلماء والأستاذون ، وعمرت الأرض وانتقلت أخبار بعضهم الى بعض ... » (١٥) .

وهكذا يرى الاخوان أنه لم يكن فى عهد آدم ما يدعو الى تسجيل اللغة وكتابتها ولم تكن هناك حاجة الى ذلك لقلة عدد أبنائه ، ولم تكن لهم بغية من آثار من كان قبلهم فى كتاب ولا صحيفة ، « وكان آدم يحفظ أسماء الحروف ويتكلم باللفظ وينطق بالمعنى ويدل عليه ولم يخط بيده بقلم ما شاء الله ، بقى على ذلك الى أن أظهر الله تعالى صناعة الكتابة فى الوقت الذى قدره والزمان الذى يسره ، والخلق لا تدرى

---

(١٥) انظر : رسائل اخوان الصفا جـ٣/١٤٢ ـ ١٤٣

بصناعة الكتابة لطفا منه بخلقه ورأفة بعباده » (١٦) ، وكان أولاد آدم يعلمون أبناءهم أسماء ما يأكلون وما يشربون وما ينفعون به عن طريق تلقين الألفاظ وحفظ الكلام .

وإذا كان الاخوان يرون أن الكتابة لم تعرف فى عهد آدم فان بعض المصادر العربية تذكر أن آدم هو أول من كتب الكتاب العربى والسريانى والكتب كلها ، قبل موته بثلاثمائة سنة ، كتبها فى طين وطبخه ، فلما أصاب الأرض الغرق وجد كل قوم كتابا فكتبوه ، فأصاب اسماعيل عليه السلام الكتاب العربى (١٧) .

ويذكر الاخوان أسباب كتابة اللغة وتسجيلها ، ويمكن حصرها فى ثلاثة :

١ — حاجة بنى آدم الى ذلك بعد كثرتهم فى الأرض وتفرقهم فيها وذهابهم فى أطرافها ، فأوجبت الحكمة الالاهية تسجيل اللغة بالكتابة حتى تتواصل الأجيال ، السابق منها باللاحق ، « ولولا ذلك لبعد من الخلف ما كان يستعمل السلف من التى كانت حاجتهم اليها » ، وحتى يتواصل أبناء الجيل الواحد فى أرض الله الواسعة ، وينتقل أخبار بعضهم الى بعض « وكانوا لا يعلمون أخبار من كان معهم فى الأرض اذا غابوا عنهم بالمكان ، لأن الرسول لا يمكنه حفظ جميع ما فى قلب مرسله » ، ومن ثم يتطرق النسيان الى ذاكرته ، أو الكذب على لسانه .

وهذا العامل له ما يؤيده فى الدراسة الحديثة ، اذ الانسان « قضى قرونا متطاولة يأكل ويشرب ويلبس وينام ويتكلم ولكنه لا يكتب ،

---

(١٦) انظر المرجع السابق جـ ١٥١/٣

(١٧) انظر : ابن فارس الصاحبى ص ١١ ، والسيوطى : المزهر جـ ٢ /٣٤١ .

فما لبث أن تكاثر وتألف واتسعت علاقاته وعكف على الأسفار التماسا للرزق حتى اضطر الى الكتابة لمخابرة جاره أو تدوين حوادث أمسه أو تقييد ملاحظاته وآثاره »(١٨) •

٢ ـــ قصر اللغة المنطوقة وعدم دوامها «لأن الأصوات لا تمكث في الهواء زمانا طويلا الا ريثما تأخذ المسامع حظها من الطنين ، ثم تضمحل تلك الأصوات من الهواء الحامل لها المؤدى الى المسامع » (١٩) ، « ولما كانت الأصوات لا تمكث في الهواء الا ريثما تأخذ الأسماع حظها ثم تضمحل اقتضت الحكمة الالاهية والعناية الربانية ، واحتالت الطبيعة بأن قيدت تلك الألفاظ بصناعة الكتابة » (٢٠) •

واذا صرفنا النظر عما يثار الآن في الدراسة الفيزيائية الصوتية من أن الذبذبات الصوتية لا تفنى أو أن الصوت لا يضمحل ، فان اللغة المكتوبة تميزت عن اللغة المنطوقة فترة طويلة من الزمن الى بداية القرن الحالى بامكان انتقالها من مكان الى آخر وعبر مسافات بعيدة ، وبثباتها حيث لا تتعرض للتغيير المستمر الذى يصيب اللغة المنطوقـــة ومن ثم أمكن تسجيلها ونقلها عبر أجيال متعاقبة من البشر •

وقد تضاءلت هاتان الميزتان للغة المكتوبة حين ابتكرت وانتشرت الأجهزة التى سجلت الأصوات ونقلتها من مكان الى آخر عبر مسافات بعيدة ، مثل الاسطوانات ، والمسجلات الصوتية ، والهاتف (التليفون) والبرق (التلغراف) ، والمذياع (الراديو) ، والتلفاز (التليفزيون) ،

---

(١٨) انظر جرجى زيدان : الفلسفة اللغوية والالفاظ العربية ص١٦٠ مراجعة وتعليق مرجع د• مراد كامل • ط دار الهلال

(١٩) انظر : رسائل اخوان الصفا جـ١ /٢٠١

(٢٠) انظر : المرجع السابق جـ ٢ /٤٧٢

والأفلام الناطقة ، وهو الأمر الذى أدى الى قيام جدل عنيف فى البلدان الغربية حول الكتابة وأهميتها ، حيث قلل البعض من أهميتها ورأى أنها لا تمثل لغة الحديث ، وأنه لا يحق تسميتها لغة ، ودعا الى اهمال قواعد النحو المبينة على لغة الكتابة لأنها غير عملية • وقد ظهرت آثار ذلك فى اهمال تدريس الهجاء وعلامات الترقيم والأصول النحوية فى مدارس الغرب ، وظهرت آثار ذلك أيضا فى اعراض الجيل الجديد عن القراءة والكتابة (٢١) •

ومع قرب انتهاء هذا القرن — وقد أوشك على الرحيل — هيأ الله للكتابة أن تحتفظ بمكانتها حين ابتكرت الأجهزة الناقلة للكتابة عبر الهواء (٢٢) ، والأجهزة التى تصور اللغة المكتوبة بسهولة وسرعة •

٣ — أما السبب الثالث فى ظهور الكتابة فهو سبب فلكى ، وهو نابع من اعتقاد الاخوان فى الكواكب والأفلاك وأنها سبب الكائنات باذن الله » (٢٣) • يتضح هذا السبب فيما نقلناه آنفا عن الاخوان : « وتشكل الفلك بشكل أوجب التغير والاستحالة بعد مضى آدم عليه السلام ••• » •

ويتضح أيضا فى قولهم :

« أن آدم عليه السلام يعلم « بنيه » تلك الأسماء تلقينا وتعريفا ، كما يعلم الأشياء ويعرف من لا علم له بالكتابة والهجاء••• وكان الخلق يحفظون تلك الاسماء والصفات عن السلف ، الى أن سلم

---

(٢١) انظر : ماريوباى : لغات البشر ص ١١٣ — ١١٤ •

(٢٢) من تلك الاجهزة مايسمى « فاكسميل » حيث ينقل مايشاء المرء من رسائل مكتوبة متخطية حدود الزمان والمكان •

(٢٣) انظر رسائل اخوان الصفا ج٢/١٤٤

الدور النور الى الجوزاء ، وظهرت الكتابة من أجل أنــه بيت عطارد وشرف الرأس وهبوط الذنب ... » (٢٤) .

وسوف يتضح لنا بطلان هذا الاعتقاد حين نتحدث عنه في الفصل القادم الخاص بتطور اللغة ان شاء الله .

واذا تأملنا فيما نقلناه عن الاخوان نرى أنهم يقولون : « أوجبت الحكمة الإلاهية والعناية الربانية تقييد تلك الأسماء والألفاظ والحروف بصناعة الكتابة » ويقولون : « أظهر الله تعالى صناعة الكتابة في الوقت الذى قدره والزمان الذى يسره » ، فهل هذا يشعر أن الكتــابة حين ظهرت كانت بالهام الله وتلقينه ؟ أم أن الكتابة ــ على ما يقال ــ كانت مواضعة واصطلاحــا ؟

يظهر لنا أن الاخوان يرون أن الكتابة انما نشــأت بتــأييد الله والهامه ، ويؤيد ما نستشــعره أنهم يرون أن تغير اللغة وتطورها يتم بالهام الله تعالى للفرد (نبى أو حكيم) وتأييــده ، ثم يعمم ويصبح اجتماعيا عن طريق الاصطــلاح والمحاكاة كما سيتضح في أثناء حديثنا عن الفصل الثالث الخاص بتطور اللغة .

وقد أيد القول بتوفيقه اللغة علماء كثيرون يقــول ابن فارس : « ان الخط توفيق ، وذلك لظاهر قولــه عز وجــل : « اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الانســان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذى عــلم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم » (٢٥) ، وقال جل ثناؤه : « ن والقلم وما يسطرون » (٢٦) ، واذا كان كذا فليس ببعيد أن يوقف آدم عليه السلام

---

(٢٤) انظر : المرجع السابق جـ٣/١١٣
(٢٥) الآيات ١ ــ ٥ العلق
(٢٦) الآيتان ١ ــ ٢ القلم .

أو غيره من الأنبياء عليهم السلام على الكتاب ، فأما أن يكون مخترع اخترعه من تلقاء نفسه فشيء لا تعلم صحته الا من خبر صحيح » (٢٧).

وقال السيوطى : « يؤيد ما قاله من التوفيق ما أخرجه بن أشته من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : أول كتاب أنزله الله من السماء أبو جاد . وأخرج الامـام احمد بن حنبل عن أبى ذر النبى ﷺ قال : أول من خط بالقلم ادريس عليه السلام » (٢٨) .

ويرى علماء آخرون أن الكتـابة ليست توفيقية من الله . وانما هى تواضع واصطلاح بحكم الاجتماع والتمدن .

ومن هؤلاء العلماء ابن خلدون ، فقد عقد فصلا فى مقدمته للخط والكتابة رأى فيه أن الخط من جملة الصنائع المدنية المعـشية . اذ يقول :

« وخروجها فى الانسان من القوة الى الفعل انما يكون بالتعليم ، وعلى قدر الاجتماع والعمران والتناغى فى الكمـالات والطلب لذلك تكون جودة الخط فى المدنية ، اذ هو من جملة الصنائع . وقد قدمنا أن هذا شـأنها ، وأنها تابعة للعمران ، ولهذا نجـد أكثر البدو أميين لا يكتبون ولا يقرأون ، ومن قرأ منهم أو كتب فيكون خطه قـاصرا . أو قراءته غير نافذة »(٢٩) .

---

(٢٧) انظر : الصاحبية ص ٦٠ ، والسيوطى : المزهر جـ ٢ /٣٤٣
(٢٨) انظر : المزهر جـ ٢ / ٣٤٣ ، ٣٥٢
(٢٩) انظر : المقدمة ٤١٧ ـ ٤١٨ . الطبعة الرابعة ١٣٦٨هـ / ١٩٧٨ م .

٥ ــ أصل الخطوط (الرموز الكتابية) :

أرجع اخوان الصفا خطوط اللغات كلها الى خطين : المستقيم الذى هو قطر الدائرة ، وهو الألف ، والثانى : القوس الذى هو محيط الدائرة وهو الباء ، يقولون :

« اعلم أن أصل هذه الحروف كلها ، والخطوط بأجمعها خطان لا ثالث لهما ومن بينهما وعنهما تركبت هذه الحروف حتى بلغت نهايتها ــ كحدوث العالم كلهم من الشخصين اللذين هما آدم وحواء عليهما السلام ، وكذلك العالم بأسره ، السموات ومن فيها ، والأرض ومن عليها من جوهرين وهما السابق والتالى ، أو البسيط والمركب ، وهما العقل والنفس ، والله تعالى مبدعهما ، وهو الواحد المنزه عن جميع ما حدث منهما ، المتعالى لكبريائه عنهما وذلك من الخط المستقيم الذى هو قطر الدائرة والخط المقوس الذى هو محيطها فأول الحروف هو الخط المستقيم الذى هو الألف ، والثانى الباء ، وبازائه فى العالم العلوى السابق وهو العقل ، والتام هو النفس ، وذلك أن النفس مرتبة تحت العقل، ومن بينها كان حدوث الأشياء كلها فى العالم السفلى مثل آدم وحواء، فهما الأبوان الذكر والأنثى ، والأنثى مرتبة تحت الذكر ، ومن بينها كان العالم ، وكذلك الحيوانات كلها وأشكال النبات لا تخرج عن هذا الحد والشكل ، وصورة الانسان شبه الخط المستقيم ، وصورة الحيوانات شبه الخط المقوس ، والنبات والحيوان مرتبان تحت الانسان ، وهكذا عالم الأفلاك وسكان السموات أشكالها مستقيم وصورها كاملة ، فهم الخط المستقيم ، وما دون فلك القمر بمنزلة الخط المعوج ، وهكذا يوجد فى الأعداد الناشئة من الواحد والاثنين ،

فالواحد كالخط المستقيم ، والاثنان كالمعوج ، وهما أصل الأعداد ينبوعها ، وعنهما يكون تزايدها ونماؤها »(٣٠) .

وقد ضربوا لذلك مثالا بالخط العربى كما سنذكره فى أثناء الحديث عن اللغة العربية ان شاء الله .

ويتضح من النص أن الاخوان يربطون بين أصل الخطوط وصورها وبين عالم الكواكب ، وهذا نابع من اعتقادهم المزعوم فى الأفلاك ، والايمان بتأثيرها ، وسوف يتبين لنا بطلان هذا الاعتقاد فى الفصل القادم .

وقد عقدوا فصلا لأنواع الخط وصورة كل نوع ، ورسموا صورة الخط المستقيم هكذا [ـــ] ، والمقوس هكذا [( ] ، والمنحنى المركب منهما هكذا [∩] (٣١) .

(جـ) مقياس الخط الجيد :

يرى الاخوان أن اجود الخطوط وأصح الكتابات وأتمها وأحسنها وأحسن المؤلفات ما كانت على النسبة الفاضلة فى وضعها ومقادير حروفها بعضها من بعض ، وما توجبه قوانين الهندسة ، اذ ينبغى لمن يريد أن يكون خطه جيدا ، وكتابته صحيحة أن يجعل لها أصلا يبنى عليه حروفه وقانونا يقيس عليه خطوطه » (٣٢) .

وقد مثلوا لذلك بالكتابة العربية كما سنذكره فى الفصل الخاص باللغة العربية ان شاء الله .

---

(٣٠) انظر : رسائل اخوان الصفا جـ ٣ / ١٤٤ ـــ ١٤٥

(٣١) انظر : المرجع السابق جـ ١ / ٨١

(٣٢) انظر : المرجع السابق جـ ١ / ٢٢٠ ، جـ ٣ / ٢٤٥ .

وقد رأى الاخوان أن الكتابة قد تخضع للعرف ولا تتقيد بالقوانين الهندسية والنسبة الفاضلة « بحسب موضوعاتهم ومرضياتهم واختياراتهم دون غيرها وبحسب طول الدربة وجريان العادة فيها » (٣٣) •

وقد أوضح الاخوان كيفية صور الحروف وتخطيط أشكالها وكيفية تركيبها بعضها مع بعض على ما يوجبه القياس والقانون بطريق الهندسة ، في قولهم :

« اعلم ياأخي أيدك الله وايانا بروح منه أن صور حروف الكتابات كثيرة الفنون مختلفة الأنواع ، كما تقدم ذكرها ، وهي بحسب موضوعات الحكماء من الكتاب واختياراتهم لها وتواطؤهم عليها ، يطول ذكر علة ذلك وشرحه ، ولكن نذكر قولا مجملا مختصرا في ثلاث كلمات بحسب ما توجبه قوانين الهندسة والقياسات الفلسفية كما أوصى المحرر الحاذق المهندس ، فقال : ينبغي أن تكون صور الحروف كلها لأي أمة كانت ، في أي لغة كانت ، وبأي أقلام خطت الى التقويس والانحناء ما هو الألف الذي في كتابة العربية ، وأن يكون غلظ الحروف الى الانخراط ما هو ، وأن يكون عند التركيب الزوايا كلها حادة ، والى التدوير ما هو • فهذا ما قاله أهل الصناعة في تقدير هذه الحروف ومناسباتها مفردة مفردة ، فأما عند التركيب والتأليف فربما تختلف وتتغير لعلل يطول شرحها ، ولكن يجب على المحرر عند نهايته للخط التوقيف عليها • فقد تبين اذا بما ذكرنا أن أحكم المصنوعات وأتقن المركبات وأحسن المؤلفات ما كان تركيب بنيته وتأليف أجزائه على النسبة الأفضل ، والنسب الفاضلة هي المثل ، والمثل والنصف ، والمثل والثلث ، والمثل والربع ، والمثل والثمن » (٣٤) •

---

(٣٣) انظر : المرجع السابق جـ ١ / ٢٢١ •
(٣٤) انظر : المرجع السابق جـ ١ / ٢٢٢ ، ٢٥٢ •

وقد طبقوا تلك النسب على الكتابة العربية كما سيذكر فى حينه •

وقد ربط ابن خلدون بين جودة الخط وقيامه على القوانين الهندسية وبين الاجتماع وكثرة العلماء ، مؤكدا ضرورة تدريب المتعلم على تلك القوانين ، حين قال :

« ونجد تعليم الخط فى الأمصار الخارج عمرانها عن الحد أبلغ وأحسن وأسهل طريقا لاستحكام الصنعة فيها ، كما يحكى لنا عن مصر لهذا العهد ، وأن بها معلمين منتصبين لتعليم الخط ، يلقون على المتعلم قوانين وأحكاما فى وضع كل حرف ، ويزيدون الى ذلك المباشرة بتعليم وضعه فتعتضد لديه رتبة العلم والحس فى التعليم ، وتأتى ملكته على أتم الوجوه ، وانما أتى هذا من كمال الصنائع ووفورها بكثرة العمران ، وانفساح الأعمال » (٣٥) •

وسوف نلقى الضوء على جودة الخط العربى وتصور الاخوان لها فى أثناء الحديث عن اللغة العربية •

(د) فضائل الكتابة وخطوطها :

لكتابة اللغة ورسمها فى حياة اللغة ونهضتها وفى حياة الناطقين آثار تجل عن الحصر •

١ ـ فبفضل الكتابة تحصل العلوم والمعارف ، وتفهم بها معانى الكلام واللغات ، يقول الاخوان :

« ان الله لما خلق الانسان الذى هو آدم أبو البشر عليه السلام وفضله على كثير ممن خلق تفضيلا ، جعل احدى فضائله كثرة العلوم

---

(٣٥) انظر : ابن خلدون : المقدمة • ص ٤١٧ ـ ٤١٨ •

وغرائب المعارف ، وجعل له اليها عـدة طرقات ، فمنها طرق الحواس الخمس التى بهـا يدرك الأمـور الحـاضرة فى المكان والزمان ، ومنها طريق استماع الأخبـار التى ينفرد بها الانسـان دون سائر الحيوانات يفهم بها الأمور الغائبة عنه بالزمان والمكان جميعا كما ذكر الله تعالى ومنّ به عليه فقال : « خلق الانسـان علمه البيان » ومنها طريق الكتابة والقراءة ، يفهم بها الانسان معانى الكـلام واللغـات والأقاويل بالنظر فيهما عمن لم يره من أبناء جنسه مع الزمان ، أو من هو غائب عنه بالمكان ، كما قال الله ومن به على الانسان فقال لنبيـه محمد ﷺ : « اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم » وبهذه الفضيلة شارك الانسـان الملائكة الكرام ، كما قال الله تعالى : « وان عليكم لحافظين كراما كاتبين يعلمون ما تفعلون » (٣٦)٠

٢ — وبفضلها يحفظ العلم عبر الزمان وينتقل عبر الأجيـال : « وذلك أن القوة الصانعة (٣٧) اذا أرادت تقييد (الألفـاظ) صاغت لها صورا من الخطوط بالقلم وأودعتها وجوه الألوان وبطون الطوامير ليبقى العلم مفيدا فائـدة من الماضين للغابرين ، وأثـرا من الأولين للآخرين ، وخطابا من الغائبين للحاضرين ، وهذا من جسـيم نعم الله تعالى على الانسان كما ذكر فى كتابه فقال : « اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم » (٣٨) ٠

٣ — وبفضل صناعة الكتابة التى تعد أشرف الصنائع « يفتخر الوزراء والكتاب وأهل الأدب فى مجالس الملوك مع كثرة أنواعها وفنون

---

(٣٦) انظر رسائل اخوان الصفا جـ ٣ /٤١٤

(٣٧) ومجراها فى اليدين والاصابع كما سيأتى فى الفصـل الرابع ٠

(٣٨) انظر المرجع السابق جـ٢ /٤٧٢

فروعها وما اختلف فيه الأمم من اللغات وأشـكال الكتابـات وفنون التآليفات ... » (٣٩) .

وقد أكد ابن خلدون هذه الفضائل حين قال :

« وهو (أى الخط) رسـوم وأشكال حرفية تـدل على الكلمـات المسموعة الدالة على ما فى النفس ، فهو ثانى رتبة من الدلالة اللغوية ، وهو صناعة شريفة ، اذ الكتابة من خواص الانسان التى يميز بها عن الحيوان ، وأيضا فهى تطلع على ما فى الضمائر وتتأدى بها الأغراض الى البلاد البعيدة فتقضى الحاجات وقد دفعت مؤنه المبـاشرة لها ، ويطلع بها على العلوم والمعارف وصحف الأولين وما كتبوه من علومهم وأخبارهم فهى شريفة بهذه الوجوه والمنافع » (٤٠) .

وقد رأى ابن خلدون — بالاضافة الى ما تقدم — أن صـناعة الكتابة أكثر الصنائع التى تكسب صاحبها زيادة عقل لاشـتمالها على العلوم والأنظار ، وقد بين ذلك فى قوله :

« وبيانـه أن فى الكتابـة انتقـالا من الحـروف الخطيـة الى الكلمـات اللفظيـة فى الخيـال ومن الكلمـات اللفظيـة فى الخيـال الى المعـانى التى فى النفس ذلـك دائمـا ، فيحصـل لهـا ملكـة الانتقال من الأدلة الى المـدلولات وهو معنى النظـر العقـلى الذى يكسى العلوم المجهولة فيكسب بذلك ملكة من التعقل تكون زيادة عقل ويحصل به قوة فطنة وكيس فى الأمور لما تعودوه من ذلك الانتقال ، ولذلك قال كسرى فى كتابه لمـا رآهم بتلك الفطنة والكيس فقـال :

---

(٣٩) انظر المرجع السابق جـ٣ /١٤٨

(٤٠) انظر المقدمة ص ٤١٧

ديوانه ، أى شياطين وجنون ، قالوا وذلك أصل اشتقاق الديوان لأهل الكتـابة » (٤١) .

وقد نقل السيوطى من فضـائل الكتابة والخط : أقوالا عديدة ، منها قوله :

« وهو لمحة الضمير ، ووحى الفكر ، وسفير العقل ، ومسـتودع السر ، وقيد العلوم والحكم وعنوان المعارف وترجمان الهمم » .

وقولـه :

« وأقسم بالقلم فى الكتاب الكريم ، وأحسن عدى حيث شبه به قرن الريم :

تزجى أغن كـأن ابرة روقـه قلم أصاب من الدواة مدادها

وهو أمضى بين الكاتب من السيف بيد الكمى ، وقد أصـاب ابن الرومى فى قوله شاملة الرمى :

كذا قضى الله للأقلام اذ بريت أن السيوف لها مذ أرهفت خدم

وكان المأمون يقول : لله در القلم كيف يحوك وشى المملكة ! ووصفه عبدالله بن المعتز فقال : يخدم الارادة، ولا يمل الاستزادة، فيسكت واقفا، وينطق سائرا على أرض بياضها مظلم وسوادها مضىء . وقال أرسطو طاليس : عقول الرجال تحت أسنان أقلامها » (٤٢) .

---

(٤١) انظر المرجع السابق ص ٤٢٩

(٤٢) انظر المزهر ج ٢/٣٥١ ـ ٣٥٢ . وراجـع : ابن النـديم : الفهرست ١٢ ، ١٣ تحقيق : رضا تجدد . ط طهران والقلقشـندى : صبح الاعشى ج ٣/٢٤ ـ ٢٦ المطبعة الاميرية ١٣٣٢ هـ / ١٩١٤ م .

الفصل الثالث

تطـــور اللغـــة

من الأمور البدهية أن اللغة كائن حي ، تحيا على ألسنة المتكلمين بها ، ولذلك تتطور وتتغير بفعل الزمن كما يتطور الكائن الحي ويتغير ، وهي تخضع لما يخضع له الكائن الحي في نشأته ونموه وتطوره : فليست اللغة من صنع فرد أو أفراد ، وانما هي نتيجـــة حتميـــة للحيـــاة في المجتمع ، وتستمد كيانه منه ومن عاداته وتقاليده وســـلوك أفراده ، وتتطور بتطور هذا المجتمع فترقى برقيه وتنحط بانحطاطه •

والمقام يقتضي أن نتساءل : ما الأسباب التي تؤدي الى تطـــور اللغة ؟ بشقيها المنطوق والمكتوب ؟

ونجيب على هذين التساؤلين في ضـــوء فكر اخوان الصـــفا والمحدثين :

أولا : أسباب تطـــور اللغة :

أضع بين القارىء أولا النصوص التي ساقها اخـــوان الصفا ثم أستنتج منها تلك الأسباب وأناقشها • يقول الاخوان :

« اعلم أن صناعة الكتابة ذات طرفين : طرف كأنـــه البدايـــة ، وطرف كأنه النهـــاية ، فالطرف الأول هو الكـــلام والنطق بالحروف التسعة التي يستعملها أهل الهند الى وقتنا هذا • والطرف الآخر الذي هو النهاية ، فهي الحروف الثمـــانية والعشرون التي هي حروف اللغة العربية ، وما سوى ذلك فهو بين هذين الطرفين ، وانما مثل الحروف

كمثل شجرة نبتت وتفرعت وتفرقت فروعها ، وكثرت أوراقها وثمارها، وتقسمها الأقوام ، فأخذ كل قوم بحسب ما اتفق لهم في أصول مواليدهم ، وبحسب اجتهاد رئيسهم وما أعمل فيه فكرته وانتجته قريحته وأوجبته رويته بتأييد ربه تعالى والهامه ، فيأخذ صور هذه الحروف فيلقى عليها أسماء من ذاته ، فان كان حكيما فبتأييد الله له والهامه ، وان كان نبيا مرسلا كان يوحى الله اليه وكلامه من وراء حجاب عظمته ، أو بوحيه على ألسنة ملائكته ، ويقيدها بصورة أخرى من الكتابة وينطق بلغة أخرى غير اللغة الأولى ، وينسخ الأسماء من اللغة الأولى الى اللغة الثانية ، فاذا تم ذلك له ونطق به وأكمل الصناعة النطقية وقيدها بحروف الكتابة وضم الأشكال الى أشكالها والخطوط الى أمثالها ثم عرفها أقرب الناس اليه وأكرمهم لديه فيصطلح عليها هو وأهل بيته وعشيرته ثم أهل مدينته وبعد ذلك أهل بقعته ثم أهل اقليمه،ثم تنتشر فى العالم وينشأ عليها الصغير،ويأنس بها الكبير من تلك الأمة وينقل الشريعة والملة من اللغة الأولى الى الثانية ويحدد الأحكام والأوامر والنواهى والصلاة وأحكام الشريعة الى تلك اللغة التى نطق بها والأمة التى أرسل اليها » (١) .

وكل حكيم من الحكماء أو ملك من الملوك اذا أراد نقل علم أو حكمة أو دين أو شريعة من لغة الى لغة ، أو من أمة الى أمة ، فانه يتهيأ ذلك له بتوفيق الله تعالى وموجب مولده وسعادته ، حتى يتمكن من ذلك ويقدر عليه مثل ما فعل سليمان عليه السلام لما آتاه الله الملك وجعل له القوة والقدرة كيف نقل العلوم والحكمة من جميع اللغات حين قهر ملوكها وذلل رؤساها الى اللغة العبرانية،وكذلك فعل ملك الروم فانه لما غلب اليونان وقهرهم نقل علومهم وحكمهم من اللغة اليونانية الى

---

(١) انظر :رسائل اخوان الصفا ج ١٤٩/٣ ــ ١٥٠

اللغة الرومية،وكذلك فعل ملوك يونان بمن غلبوا عليهم فلذلك اختلفت اللغات وتباينت الآراء والديانات،وكان ذلك لعلل وأسباب يطول شرحها، وكل ذلك بأمور فلكية وأحكام سماوية ومشـيئة الاهية ، وذلك تقدير العزيز العليم » (١) .

ويقول الاخوان :

« اعلم أن أصل الاختـلاف فى اللغـات انما هو لما كثرت أولاد بنى آدم ، وانتشروا فى جهات الأرض،ونزلت كل طائفة منهم اقليما من أقاليمها وقطرا من أقطارها من الربع المسكون ، تولى كل قوم فى وقت نزولهم ذلك الاقليم كوكب من الكواكب السـبعة المدبرات فعقد لهم عقدا نشأ عليه صغيرهم ومات عليه كبيرهم » (٢) .

ويقول الاخـوان :

« ما العلة فى اختلاف لغات الناس وألوانهم وأخلاقهم وصورهم، وكلهم أبوهم واحد ؟ فنقول : اختلافأماكن أبدانهم وألوانهم واختلاف تربها وتغيرات أهويتها وطوالع البروج عليها ، ومسـامتات الكواكب وفنون آرائهم مع كثرة العـداوة منهم فى ذلك لكيمـا يدعـوهم الى استخراج فنون العلم والاجتهـاد فى تهذيب النفس أو الانتبـاه من نوم الغفلة والخروج من ظلمات الجهالة والبلوغ الى التمام والكمال والبقاء على أتم الأحوال ما أمكن واستوى ، وأيضا لما حكم على نفوس الحيوانات كلها بالموت لتنتقل الى حالة هى أتم وأكمل وأفضل » (٣) .

---

(١) انظر : رسائل اخوان الصفا جـ٣ /٢٤٩ ـ ٢٥٠ وراجـع : الرسالة الجامعة جـ١ /٥٢٦ .

(٢) انظر : رسائل اخوان الصفا جـ ٣/٢١٥ .

(٣) انظر المرجع السابق جـ ٣ /٣٧٦

ويقول الاخــوان :

« اعلم أن اختلاف الناس فى كلامهم ولغاتهم على حسب اختلافهم فى أجسادهم وتركيباتهم » (٤) ٠

ويقول الاخــوان :

ويمكن من خلال تلك النصوص ـ ومن غيرها التى ســتذكر فى حينها ـ أن نجمل الأسباب العامة التى تؤدى الى تطور اللغة واختلافها وتغيرها ، وهى :

١ ـ تأثير الكواكب ٠

٢ ـ اجتهاد الفرد وما تجود به قريحته ٠

٣ ـ الصراع والاحتكاك بين المجتمعات ٠

٤ ـ انتشار اللغة تبعا لانتشار الناطقين بها ٠

٥ ـ أسباب اجتماعية وجغرافية وفسيولوجية ٠

وسوف أناقش هذه الأسباب من خــلال النتــائج التى تترتب عليها ، اذ يتجه تطــور اللغة ـ نتيجة لتلك الأســباب ـ اتجاهــات مختلفة ، ويكون له مظــاهر متعددة ٠

ثانيا : اتجاهات التطــور :

قد يترتب على التطور اللغوى أن تموت لغة وتحيا مع أنقاضــها أخرى تسود ، أو تتفرع اللغة الى لهجات أو لغات ٠

---

(٤) انظر المرجع السابق جـ٣ / ١١٨

٢ ـ تفوق اللغة وسيادتها :

لقد رأى الاخوان أن تحول اللسان من لغة الى أخرى وما يتبع ذلك من تحول الكتابة من صورة الى أخرى بين الأقوام يأتى « بحسب ما اتفق لهم فى أصول مواليدهم » و « بحسب اجتهاد رئيسهم وما أعمل فيه فكرته وأنتجته قريحته وأوجبته رويته بتأييد ربه تعالى والهامه ، وما أوتى من قوة وقدرة » •

العامل الأول : العامل الفلكى :

أما العامل الفلكى الظاهر هنا فى قول الاخوان : « بحسب ما اتفق (للاقوام) فى أصول مواليدهم » فان الاخوان يرونه العامل الرئيسى فى تطور لغة الانسان ، بل وفى كل الكائنات التى تحت ملك القمر ، حيث يعتقدون أن الكواكب تستولى على المواليد ولها دلالات على أمور الدنيا والآخرة من نعيم أو شقاء وغير ذلك ، حيث يتولى كل قوم ـ فى وقت نزولهم اقليما من أقاليم الأرض ـ كوكب من الكواكب السبعة المدبرات ، فعقد لهم عقدا نشأ عليه صغيرهم ومات عليه كبيرهم •

ورأوا أن أهوية البلاد والبقاع كما تتأثر وتختلف بحسب اختلاف تصاريف الرياح تتأثر وتختلف بحسب مطالع البروج عليها ، ومطارح شعاعات الكواكب عليها من آفاتها •

ورأوا أن موجبات أحكام النجوم فى أصول مواليد (الناس) ومساقط نطفتهم تعد العامل الأصلى من العوامل المؤدية الى اختلاف أهلها وطباعهم وألوانهم ولغتهم وعاداتهم وآرائهم ومذاهبهم وأعمالهم وصنائعهم وتدابيرهم وسياساتهم •

وعلى سبيل الاجمال « هم يعتقدون أن هذه الكواكب هى السبب المباشر فى التكوين الطبيعى وظهور المـادة والصورة وتشكلهما بالهيئات الجمادية والنباتية والحيوانية ، وظهور الفرديـة فى الأنواع ، وهى بالاضافة الى كل ذلك سبب مايصيب الأجسام فوق سطح الأرض من علل وأمراض واضطراب فى تناسقها العضوى ، وهى مصدر الخلق الطيب والسىء ، ومبعث الحياة والموت ، وهى دلائل بينة فى السماء يستنتج منها الراسخون فى العلم مصير الكائنات وأسرار الانقلابات » (٥) .

---

(٥) انظر : د. صبور عبد النور : اخوان الصفا ٣٠ ، وراجـم رسائل اخوان الصفا ، وانظر على سبيل المثال جـ١/٢٠٩ ، ٢٩٩ ، ٣٠٢ ـ ٣٠٥ ، جـ ٢/٢٦ ، ٦٣ ، ١٢٧ ـ ١٢٨ ، ١٣٥ ـ ١٣٨ ، ١٤٢ ، ١٤٣ . ١٥١ ، ١٧٨ ، ٤٣١ ، ٤٧٦ ، جـ٤ /٢٦١ ومابعدها .

ويرى الاخوان أن اثنين من الكواكب نيران وهما الشمس والقمر واثنين سعدان وهى المشترى والزهرة ، واثنان نحسان وهما زحل والمريخ وواحد ممتزج وهو عطارد . انظر : رسائل اخوان الصفا جـ ١ ١٢٤ ـ ١٢٥

ويرون أن لكل واحد من هذه الكواكب السيارة دلالة على أعـداد معلومة من السنين والشهور والايام والساعات يستدل بها على كمية اعمار المواليد وعلى طول بقاء الكائنات فى عالم الكون والفساد .انظر المرجـع السابق جـ١ /١٣٦ .

ويرون أن لكل كوكب خاصة تختلف عن الاخرى ، فالقمر دليل على أمور الدنيا وحالات اهلها من الزيادة والنقصان والتغيير والمحاق ، والشمس دليل على أمور الآخرة وحالات اهلها من التمام والكمال والنور والاشراق، والزهرة اذا أستولت على المواليد دلت على نعيم الدنيا من الاكل والشرب ولنكاح والميلاد ، والمشترى اذا استولى على المواليد دل على صلاح الاخلاق وصحة الدين وصدق الورع ومحصن التقوى وسعاد الاخرة وزحل ايضا اذا أستولى على المولبد دل على الشقاء والبؤس والفقر والمرض والعسر .

وفى رأيهم أن الأشخاص الفلكية أحيـــاء ناطقون ، وهم ملائكة الله ـــ العلة الأولى ـــ وسلوك أفلاكه وسكان سماواته ، عرفـــوا ذلك كما يقولون ـــ بعد النظر فى العـــلوم الإلاهية وأحكامها •

ومهما ذكـــروا بعد كل هـــذا أن تأثير الكواكب انما هو باذن الله ومشيئته (٦) ، فان هذا لم يبعد عنهم الشك والطعن فى دينهم •

فقد عد كل هذا الاعتقاد ، وجميع هذه المزاعم من معالم الوثنية فى مذهبهم •

ولم يسلم بهذه المزاعم الكثرة من العلماء فى عصر الاخـــوان ـــ كما ذكـــروا ـــ وبعـــده :

فقد عقد الاخوان فصلا فى علم أحكام النجوم ذكروا فيه اختلاف العلماء فى دلالاتها وتأثيرها على سكان الأرض ، يقولون :

=

الامور وشقاء الدنيا ، والمريخ له دلالة على الشرور من الفسق فى الدنيـــا وشقاء الاخرة ، واما امتزاج عطارد بالسعادة والنحوسة فهو دليل على أمور الدنيا والاخرة وتعلق احداهما بالاخرى • انظر المرجع السابق جـ١ /١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٧ ـ ١٥٣ ويراجع جـ ٣/٤٣٢ ـ ٤٥٥ • ثم نراهم يزعمون أن كل كوكب مختص بفئة من الناس وبنوع خاص من المطالب والامـــانى الانسانية • انظر تفصيل ذلك فى الرسالة الجامعة ط/ ٤١٦ ـ ٤١٧ ، ٦٨٨ ، ٦٩٠ •

ونجد فى الرسائل ذكرا للاساليب المتبعة لنيل نعم الاشـــخاص الفلكية ، والدعوات التى يبتهلون بها ، وأشارة الى الاثواب التى تلبس عند العبادة ، والقرابين التى تقـــدم فى هياكلها • انظر جـ ٤/٢٦١ ومابعدها •

(٦) انظر رسائل اخوان الصفا جـ ٢/٤١٩ ـ جـ ٣/٩٩ ـ ١٠١، ٣٣٤ ـ ٣٣٦ •

« اعلم يا أخى أيدك الله وإيانا بروح منه أن العلماء مختلفون فى تصحيح علم الأحكام وحقيقته ، فمنهم من يرى ويعتقد أن للأشخاص الفلكية دلالات على الكائنات فى هذا العالم قبل كونها ، ومنهم من يرى ويعتقد أن لها أفعالا وتأثيرات أيضا مع دلالاتها ، ومنهم من يرى ويعتقد أن ليس لها أفعال ولا تأثيرات ولا دلالات البتة ، بل يرى أن حكمها حكم الجمادات والموات بزعمهم ، فأما الذين قالوا ان لها دلالات فهم أصحاب الأحكام ، وانما عرفوا دلالاتها بكثرة العناية بالأرصاد لحركاتها وتأثيراتها والنظر فيها وإعتبار أحوالها وشدة البحث عنها والتأمل لتصاريف أمورها على ممر الأيام والشهور والأعوام أمة بعد أمة وقرنا بعد قرن كلما أدركوا شيئا منها أثبتوه فى الكتب كما ذكروها فى كتبهم بشرح طويل ، وأما الذين أنكروا ذلك فهم طائفة من أهل الجدل تركوا النظر فى هذا العلم وأعرضوا عن اعتبار أحوال الفلك وأشخاصه وحركاته ودورانه وأغفلوا البحث عنها والتأمل لتصاريف أمورها فجهلوا ذلك وأنكروه ، وعادوا أهلها وناصبوهم العداوة والبغضاء ، وأما الذين ذكروا أن لها مع دلالاتها أفعالا وتأثيرات فى الكائنات التى تحت فلك القمر فانما عرفوا ذلك بطريق آخر غير طريق أصحاب الأحكام وبحث أشد من بحثهم واعتبار أكثر من اعتبارهم ، وهو طريق الفلسفة الروحانية والعلوم النفسانية وتأييد الاهى وعناية ربانية ، ونريد أن نذكر من هذا الفن طرفا ليكون ارشادا للمحبين للفلسفة والراغبين فيها ودلالة لهم عليها ورغبة فيها ، أعنى علم الفلسفة . فاعلم يا أخى أيدك الله وأيدنا بروح منه أن كواكب الفلك هم ملائكة الله وملوك سماواته ، خلقهم الله لعمارة عالمه وتدبير خلائقه وسياسة بريته وهم خلفاء الله فى أفلاكه ، كما أن ملوك الأرض هم خلفاء الله فى أرضه خلقهم وملكهم بلاده وولاهم على عباده ليعمروا بلاده ويسوسوا عباده ويحفظوا شرائع أنبيائه بانفاذ أحكامهم على

عباده ، وحفظ نظامهم على أحسن حالات ما يتأتى فيهم ، وأتم غايات مايمكنهم من البلوغ اليها ، وأفضل نهايات مايصلون اليها،أما فى الدنيا وأما فى الآخرة•فعلى هذا المثال والقياس تجرى أحكام هذه الكواكب فى هذه الكائنات التى تحت فلك القمر ، ولها أفعال لطيفة وتأثيرات خفية تدق على أكثر الناس معرفتها وكيفيتها كما تدق على الصبيان والجهال معرفة كيفية سياسة الملوك وتدبيرهم فى رعيتهم ، وانما يعرف ذلك منها العقلاء والبالغون المتأملون للأمور ، فهكذا أيضا لا يعرف كيفية تأثيرات هذه الكواكب وأفعالها فى هذه الكائنات الا الراسخون فى العلوم من الحكماء والفلاسفة ، البالغون فى المعارف الربانية ، الناظرون فى العلوم الإلاهية ، المؤيدون من السماء بتأييد الله والهامه لهم » (٧) •

وذكر الاخوان أيضا أن الفقهاء وأصحاب الحديث وأهل الورع والمتنسكين قد نهوا عن النظر فى علم النجوم ، لأنه جزء من علم الفلسفة ، وذكروا أنه يكره النظر فى علوم الفلسفة للأحداث والصبيان وكل من لم يتعلم علم الدين ولا يعرف من أحكام الشريعة قدر ما يحتاج اليه وما فرض عليه ، ولا يسعه جهله وتركه ، أما من قد تعلم علم الشريعة وعرف أحكام الدين فان نظره فى علم الفلسفة لا يضره بل يزيده فى علم الدين تحققا وفى أمر الميعاد استبصارا وبثواب الآخرة وبالعقاب الشديد يقينا واليها اشتياقا ، وفى الآخرة رغبة والى الله تعالى قربه (٨) ونجد التوحيدى يسجل معارضته ومعارضة غيره لهذا الاعتقاد (٩) •

---

(٧) انظر : رسائل اخوان الصفا جـ١ ١٤٤ ـ ١٤٥ ، وراجع ايضا جـ ٢ ١٤٣ ، جـ٣/ ٥٠٠

(٨) انظر : المرجع السابق جـ١ /١٥٧ •

(٩) انظر : الامتاع والمؤانسة ٥ ـ٢٣ •

وقد أكد الاخوان أن « علم النجوم وأدلتها صحيحة وحق ، وهي بالأشخاص الفلكية التي نصبها الباري تعالى وأجراها مجاريها : وان كان المنجمون يخطئون في بعض استدلالاتهم ، أو في أكثرها ، فلا تبطل صناعة النجوم من أجل ذلك ، وهو علم جعله الله تعالى معجزة لإدريس النبي ، آمن به ملك زمانه ، وله قصة يطول شرحها » (١٠) .

ونفى الاخوان أن يكون علم النجوم هو ادعاء الغيب حين قالوا :

« كثير من الناس يظن أن علم أحكام النجوم هو ادعاء الغيب ، وليس الأمر كما ظنوا ، لأن علم الغيب هو أن يعلم ما يكون بلا استدلال ولا علل ولا سبب من الأسباب ، وهذا لا يعلمه أحد من الخلق ، كذلك لا منجم ولا كاهن ولا نبي من الأنبياء ولا ملك من الملائكة الا الله عز وجل » (١١) .

وجاء ابن خلدون فأبطل صناعة النجوم وأفسد غايتها ، حيث عقد فصلا خاصا بها في مقدمته بعنوان « ابطال صناعة النجوم وضعف مداركها وفساد غايتها » (١٢) ، وقد رد فيه على من يزعم أن معرفة قوى الكواكب وتأثيراتها انما تأتي بالتجربة قائلا : « وهو أمر تقصر الأعمار كلها لو اجتمعت عن تحصيله اذا التجربة انما تحصل في المرات المتعددة بالتكرار ليحصل عنها العلم أو الظن وأدوار الكواكب منها

---

(١٠) انظر : المرجع السابق ج ٣/٥٠٢ .
(١١) انظر تفصيل ذلك في المرجع السابق ج ١ / ١٥٣ ــ ١٥٧
(١٢) انظر : المقدمة ٥١٩ ــ ٥٢٣ .

ما هو طويل الزمن فيحتاج تكرره الى آماد وأحقاب متطاولة يتقاصر عنها ما هو طويل من أعمار العالم » .

ورد أيضا على من يزعم أن معرفة قوى الكواكب وتأثيراتها انما تتأتى بالوحى قائلا « وهو رأى قائل ، وقد كفونا مؤنه ابطاله ، ومن أوضح الأدلة فيه أن تعلم أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أبعد الناس عن الصنائع ، وأنهم لا يتعرضون للاخبار عن الغيب الا أن يكون عن الله فكيف يدعون استنباطه بالصناعة ويشيرون بذلك لتابعيهم من الخلق » .

ورد ايضا على من يزعم أن دلالة الكواكب على ذلك دلالة طبيعية من قبل مزاج يحصل للكائنات العنصرية ، مثل فعل الشمس فى تبدل الفصول وأمزجتها ونضج الثمار والزرع وغير ذلك ، ومثل فعل القمر فى الرطوبات والماء وغير ذاك ، ومثل تأثير قوى الكواكب كلها فى الهواء ، والمزاج الذى يحصل منها للهواء يحصل لما تحته من المولدات وتتخلق به النطف والبزر . رد على كل هذا بقوله : « ان تأثير الكواكب فيما تحتها باطل ، اذ قد تبين فى باب التوحيد أن لا فاعل الا الله بطريق استدلالى كما رأيته واحتج له اهل علم الكلام بما هو غنى عن البيان من أن اسناد الأسباب الى المسببات مجهول الكيفية والعقل متهم على ما يقضى به فيما يظهر بادىء الرأى من التأثير ، فلعل استنادها على صورة التأثير المتعارف ، والقدرة الإلاهية المتعارف والقدرة الإلاهية رابطة بينهما لما ربطت جميع الكائنات علوا وسفلا سيما والشرع يرد الحوادث كلها الى قدرة الله تعالى ويبرأ مما سوى ذلك ، والنبوات أيضا منكرة لشأن النجوم وتأثيراتها واستقراء الشرعيات شاهد بذلك فى مثل قوله ان الشمس والقمر لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته ، وفى قوله أصبح مؤمن بى وكافر بى ، فأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بى كافر بالكواكب ، وأما من قال

ممطرنا بنوء كذا فذلك كافر بى ومؤمن بالكواكب ، الحديث الصحيح » (١٣) .

ثم أوضح ابن خلدون مضار هذه المزاعم فى العمران الانسانى بقوله :

« فقد بان لك بطلان هذه الصناعة من طريق الشرع وضعف مداركها مع ذلك من طريق العقل مع ما لها من المضار فى العمران الانسانى بما تبعث من عقائد العوام من الفساد اذا اتفق الصدق من احكامها فى بعض الأحايين اتفاقا لا يرجع الى تعليل ولا تحقيق فيلهج بذلك من لا معرفة له ويظن اطراد الصدق فى سائر أحكامها وليس كذلك فيقع فى رد الأشياء الى غير خالقها ، ثم ما ينشأ عنها كثيرا فى الدول من توقع القواطع وما يبعث عليه ذلك التوقع من تطاول الأعداء والمتربصين بالدولة الى الفتك والثورة ، وقد شاهدنا من ذلك كثيرا ، فينبغى أن تحظر هذه الصناعة على جميع أهل العمران لما ينشأ عنها من المضار فى الدين والدول ، ولا يقدح فى ذلك كون وجودها طبيعيا للبشر بمقتضى مداركهم وعلومهم فالخير والشر طبيعتان موجودتان فى العالم لا يمكن نزعهما وانما يتعلق التكليف بأسباب حصولهما ، فيتعين السعى فى اكتساب الخير بأسبابه ودفع أسباب الشر والمضار هذا هو الواجب على من عرف مفاسد هذا العلم ومضاره » .

ثم بين غرابة هذا العلم وقلة حملته بقوله :

« وليعلم من ذلك أنها وان كانت صحيحة فى نفسها فلا يمكن أحدا من أهل الملة تحصيل علمها ولا ملكتها ، بل ان نظر فيها ناظر

---

(١٣) انظر : رسائل اخوان الصفا جـ ٤١٩/٢ ، جـ ٩٩/٣ ـ ١٠١ ، ٤٠٣ ـ ٣٣٦ .

وظن الاحاطة بها فهو فى غاية القصـور فى نفس الأمر ، فان الشريعة لما حظرت النظر فيها فقد الاجتماع من أهل العمران لقراءتها والتحليق لتعليمها ، وصار المولع بها من الناس وهم أقل من الأقل انما يطالع كتبها ومقالاتها فى كسر بيته متستـرا عن الناس وتحت ريقة الجمهور مع تشعب الصناعه وكثرة فروعها واعتياصها على الفهم فكيف يحصل منها على طائل ونحن نجد الفقه الذى عم نفعه دينا ودنيا وسهلت مآخذه من الكتاب والسنة وعكف الجمهور على قراءتـه وتعليمه ، ثم بعد التحليق والتجميع وطول المدارسة وكثرة المجالس وتعددها انما يحذق فيه الواحد بعد الواحد فى الاعصار والأجيال ، فكيف يعلم مهجور الشريعة مضروب دونه سـد الخطـر والتحريم مكتـوم عن الجمهور صعب المآخذ محتاج بعد الممارسة والتحصيل لأصوله وفروعه الى مزيد حدس وتخمين يكتنفان به من الناظر فأين التحصيل والحذق فيه مع هذه كلها ومدعى ذلك من الناس مردود على عقبه ولا شاهد له يقوم بذلك لغرابة هذا الفن بين أهل الملة وقـلة حملته ، فاعتبر ذلك يتبين لك صحة ما ذهبنـا اليه ، والله أعلم بالغيب فلا يظهر على غيبه أحـد » .

وفى دراسة حديثة أجريت على مذهب اخوان الصفا رأى صاحبها أن اعتقاد الاخوان فى الكواكب يعد معلما من معالم الوثنية فى مذهبهم، ورأى أن لتقربهم منها يفترض أمرين ينكرهمـا الاسـلام « أولهما الاعتقاد بأن هذه العوالم السابحة فى الفضاء تتصف بالألوهية أو بما يشبه الألوهية ، وفى ذلك انكار للتوحيد الاسلامى الذى يأبى مثل هذه الوثنية الصريحة . وثانيهمـا : أنهم يتقربون منها لاقتصـاء ضررها واستدار خيراتها ، ولقد نهى الاسلام نهيا قاطعا عن التنجيم على أنه تنبؤ بما تحمل الأيام المقبلة فى طياتها ، فكيف به اذا هدف الى تعديل سـير الزمن والأحـداث بتقديم القرابين . وتنبه لمثل هذه البدعـة

واستنكرها المعاصرون لاخوان الصفا وناقشوهم فيها ، ووضحوا لهم أن النبى ﷺ قد نهى عن الخوض فى هذه الأشياء ، وكره الى الناس ذكرها وتوعدهم عليها وقال : « من أتى عرافا أو طارقا أو حازيا أو كاهنا أو منجما يطلب غيب الله منه فقد حارب الله ، ومن حارب الله حربه ، ومن غالبه غلب » (١٤) ، ولا عبرة باعتماد بعض الحلفاء جماعة من المنجمين لكشف الغيب ، فان واحدا منهم لم يعمد ألى تقديم القرابين لتحويل نتائج الاحداث المقررة ومن الثابت ان الاخوان قد قدموا القرابين وأوصوا بذلك وسوغوا فعله لتخليص النفوس وللتقرب من روحانيات الكواكب » (١٥) .

وقد سؤل أحد كبار العلماء (١٦) فى عصرنا الحاضر عن مدى صحة رؤية هؤلاء الفلاسفة الذين يزعمون أن الله موجود ، وهو خالق الكون وقوانينه ونواميسه ، ثم ترك النواميس تعمل ، وهو قيوم عليها ، أجاب بقوله :

« هذا القول غير صحيح ، لأن معناه أن الله باشر سلطانه فى ملكه مرة واحدة ، ثم ترك القوانين تتحكم ، ولكن الله شاء أن يخرق هذه القوانين فى كثير من الحالات ، لنعلم أن فوق القانون خالق القانون ، وهو الذى يستطيع أن يجعل القانون لا يعطى النتائج » .

---

(١٤) نقل ذلك عن أبى حيان التوحيدى فى الامتاع والمؤانسة . انظره ج ٢ ص ٨ .

(١٥) انظر : د. جبور عبد النور : اخوان الصفا ص ٣٢ ـ ٣٣ ، وانظر ما أوضحه الباحث من مذهب اخوان الصفا فيما يتعلق بتاثير النجوم والكواكب فى ص ٣٠ ومابعدها .

(١٦) هو فضيلة الشيخ : محمد متولى الشعراوى . انظر الجزء الثالث من سلسلة انت تسأل والاسلام يجيب ٣٨ ـ ٣٩ دار المسلم ١٤٠٣ هـ/١٩٨٢م

وقد ضرب المثل على ما ذكر بمعجزات الأنبيـاء ، وذكر أن الله خرق الناموس حين ضرب موسى مياه البحر فانفرق فرقتين ، وأن الله سلب من النار ناموسـها وهو الاحراق فكانت بـردا وسـلاما على ابراهيم ، مما يدل على أن الله هو القيوم ، رب الخلق ، رب الناموس .

وبهذا يتبين لنا بطلان هذا العـامل الفلكى الذى عده الاخوان عاملا رئيسيا فى تطور اللغة وتشعبها واختلافها .

العامل الثانى : الاجتهاد الفردى :

يرى الاخوان أن تغير اللغة يأتى نتيجة تغيير الفرد لها واجتهاد منه بتأييد الله له والهامه ان كان حكيما أو بوحى الله اليه ان كان نبيـا مرسلا ، ثم يعم هذا التغيير ويصبح اجتمـاعيا عن طريق الاصطلاح والمحاكاة والتقليد ، كما يتبين لنا من النص الذى ذكرناه فى صدر هذا الفصـل .

والقول بأن اجتهـاد الفرد وما تنتجه قريحتـه يغير اللغة ، فقد ساد فترة طويلة من الزمن الى أن ظهر اتجاه فى القرن التـاسع عشر عند المشتغلين بالبحوث اللغويـة ، يرى جبرية الظواهـر اللغوية ، لا اختيار للناس فيها ، وأن تلك الظواهر لا تسير وفقا لارادة الأفراد، أو تبعا للأهواء والمصادفات ، وانما تسير وفقـا لقوانين لا يستطيع الفرد الى تعويقها أو تغييرها سـبيلا ، ولا تقل فى ثبـاتها وصرامتها واطرادها وعدم قابليتها للتخلف عن النواميس الخاضـعة لها ظواهر الفلك والطبيعة (١٧) .

---

(١٧) انظر : د. عبد الواحد وافى : علم اللغــة ص ٥٧ الطبعة السابعة . دار نهضة مصر . وراجع أيضا د. رمضان عبد التواب: التطور اللغوى : مظاهرة وعلله وقوانينه ص ١٥ ـ ١٧ الطبعة الاولى ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٣ م .

يقول فندريس : « ساد شطرا طويلا من الزمن الاعتقاد بان كل تغير صوتى انما يصدر عن الفرد وانــه لم يكن الا تغييرا فرديا ثم عمم ، وهذا ادراك للاشياء غير صحيح ، فليس فى وســع أى فرد أن يفرض على جيرانــه نطقــا تنبو عنه فطرتهم ، وليس هناك من قسر جديد بتعميم تغير صوتى ، فلاجل أن يصير تغير ما قاعــدة لمجموعة اجتمــاعية يجب أن يكون لدى كل أفراد هذه المجموعــة ميل طبيعى لتحقيقه من تلقاء أنفسهم ، بل ان سلطان المحاكاة نفسه لا يقدر هنا على شىء ، فان النطق الشاذ لا يجلب اتباعا لصاحبه ، بل لا يجلب له بوجه عام الا السخرية منه » (١٨) •

ومع ذلك ظلت للنظرية القديمة التى طرقها اخوان الصفا أنصار من طوائف كثيرة فى ايطــاليا وانجلترا وفرنســا ، وقاومت الاتجــاه السالف الذكر فى مبدأ أمره •

أما اللغة المكتوبة فقد أقرت الدراسة الحديثة مارتــآه اخــوان الصفا ، اذ الرسم يبدو فى صورة أمور مقصــودة تسيرهــا الارادة الانسانية ، ولا تتعارض فى الوقت ذاته مع الســبيل الذى يســلكه المجتمع فى تطوره العام (١٩) •

أما عن عدد حروف اللغة الأولى وتطورها بتطور الزمن فقد سبق أن نقلنا عن الاخوان فى الفصل الأول الخاص بالفكر واللغة ـ أن الله جمع لآدم ـ قبل أن يكثر أولاده ويتكلم بالسريانية أو القبطيــة ـ الأشياء كلها صغيرها وكبيرها ، جليلها وحقيرها فى تسع علامات بأشكال

---

(١٨) انظر : اللغة ص ٦٩ تعريب : عبدالحميد الدواخلى ، ومحمد القصاص : القاهرة ١٩٥٠ م •

(١٩) انظر : د• عبدالواحد وافى اللغة والمجتمع ص ٣٨ ـ ٣٩ ط دار نهضة مصر ١٩٧١ م •

مختلفة مسماة بأسماء قد جمعت أسماء جميع الموجودات وانعقدت بها المعانى كلها ، وهى الحروف التى يستعملها أهل الهند على هذه الصفة (١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩) (٢٠) • ويؤكدون أن تلك الحروف « أخرجت مع آدم عليه السلام من الجنة : وبها يعرف أسماء جميع الموجودات » (٢١) •

ثم يرون « أن هذه الحروف التسعة تفرعت بعد ذلك ، واختص بها أهل الهند دون سواهم من الأمم ، لأن آدم عليه السلام كان هناك لما هبط من الجنة » (٢٢) •

ويرون أنه « لما أوجبت الحكمة الإلالهية تقييد الأسماء والألفاظ والحروف بصناعة الكتابة وأظهرها الله زادوا فيها وعرفوها ومهروا فيها، وأقام فيهم من الحكماء من أظهر فيهم الصنائع وكثرت بينهم الصناع والمتعلمون والعلماء والأستاذون وعمرت الأرض وانتقلت أخبار بعضهم الى بعض ، ولم تزل الحروف تزيد ويظهر الشىء بعد الشىء وصناعة الكتابة تتسع وتتفرع الى أن كمل عدد الحروف ثمانية وعشرين حرفا ، ثم وقفت على هذا العدد ، ولم تزد على ذلك » (٢٣) •

ويرون أن هذه الحروف الثمانية والعشرون هى حروف اللغة العربية التى هى أتم الكتابات وتمام اللغة الانسانية وختام صناعة الكتابة ، كما سنذكر فى الفصل الخاص باللغة العربية • يقول الاخوان :

« أعلم أن صناعة الكتابة ذات طرفين : طرف كأنه البداية ، وطرف كأنه النهاية ، فالطرف الأول هو الكلام والنطق بالحروف التسعة التى يستعملها أهل الهند الى وقتنا هذا،والطرف الآخر الذى هو النهاية فهى

---

(٢٠) انظر : رسائل اخوان الصفا ج ٣/١٤١
(٢١ ، ٢٢) انظر : المرجع السابق ج ٣/١٤٨ •
(٢٣) ج٣ / ١٤٢ ــ ١٤٣

الحروف الثمانية والعشرون التى هى حروف اللغة العربية ، وما سوى ذلك فهو بين هذين الطرفين » (٢٤) • ونراهم يؤكدون تمام حروف اللغة العربية ونقص ما سواها بقولهم •

« وفى كل أمة وبكل اقليم وجزيرة وموضع أهل خط وحروف وكتابات وعلامات يجمعها كلها هذه الثمانية والعشرون حرفا ، ولولا خوف الاطالة لأتينا على ذكر كثير من اللغات وكتابات أهلها وأعداد حروفهم مثل ما يوجد فى اللغة السريانية والعبرانية واليونانية والرومية وما يتفرع منها ويتكون عنها فى سائر الأجناس والأمم من بنى آدم » (٢٥) •

ومن الكتابات التى هى دون العربية فى نظر الاخوان : الكتابة اليونانية « لأنها قسمت لكل برج حرفين ، فصارت أربعة وعشرين حرفا ، فقيدت تلك الألفاظ وكتبت الأسماء بالحروف على لغة أهل ذلك العصر » (٢٦) •

ولكن ما سر العددين : « تسعة » الذى كانت عليه حروف اللغة الأولى ، « والثمانية والعشرين » الذى وقفت عنده اللغة الانسانية وهى اللغة العربية فى نظر الاخوان ؟؟

لقد ربط الاخوان بين هذين العددين وبين نظرتهم الى الكواكب وايمانهم بتأثيرها : أما العدد « تسعة » فهو « لمناسبة الأفلاك التسعة

---

(٢٤) انظر : المرجع السابق جـ ٣٤٩/٣
(٢٥) انظر : المرجع السابق جـ ٢٤٤/٣
(٢٦) انظر : المرجع السابق جـ١١٣/٣

الحاوية لجميع الموجودات بأسرها » (٢٧) • وأما العدد « ثمانية وعشرون » فهو لمطابقته للأعداد الموجودات فى الأصل « فمن الموجودات التى عدتها ثمانية وعشرون فى العالم الكبير منازل القمر فانها ثمانية وعشرون منزلا ، أربعة عشر فوق الأرض ، وأربعة عشر تحت الأرض، وهى فى موضع اليمين واليسار ، منها أربعة عشر فى البروج الشمالية ، وأربعة عشر فى الجنوبية من البروج » (٢٨) •

وثمة أمران آخران يظهران فى فلسفة الاخوان تجاه العدد « ثمانية وعشرين » الأول : أنه « يوجد فى جسم الانسان أعضاء مشاكلة لهذه العدة ، لأن اللغة التامة لغة العرب ، والكلام الفصيح كلام العرب، وما سوى ذلك ناقص » (٢٩) •

والثانى « أن هذا العدد من الأعداد التامة ، والأعداد التامة أفضل من الأعداد الزائدة والناقصة ، وذلك أن هذا العدد عزيز الوجود ، وأنه

---

(٢٧) انظر : المرجع السابق ج١/١٤٠ ، ج ٣/١٤١ ، ١٤٨ •
وهذه الافلاك كمايرى الاخوان مركبة بعضها فى جوفى بعض كحلقة البصلة ، فادناها الى الكائنات فلك القمر ويليه عطارد ثم الزهرة ثم الشمس ثم المريخ ثم المشترى ثم زحل ثم الكواكب الثابتة ثم اقصاها الفلك.
(٢٨) المحيط • انظر المرجع السابق ج١/١١٥ كما ذكر الاخوان ان الحكماء لما نظروا فى طبيعة العدد وجدوا لكل عدد خاصية ليست لغيره ثم تأملوا أحوال الموجودات فوجدوا كل نوع منها قد اقتصر على عدد مخصوص لا اقل ولا أكثر ثم بحثوا عن طبيعة ذلك الموجود وخاصية ذلك العدد فكانا مطابقين واستبان لهم اتقان الحكمة الا لاهية فيها •
انظر : المرجع السابق ج ١/١٤٠ ـ ١٤١ •
انظر المرجع السابق ج٣/١٤٤ • حـ١/٢١٧ •
(٢٩) انظر المرجع السابق ج ٣ /١٤٤

يوجد منها فى كل مرتبة من مراتب الأعداد عدد واحد لا غير ، كالستة فى الأحاد ، وثمانية وعشرين فى العشرات ، وأربع مائة وستة وتسعين فى المئات ، وثمانية آلاف ومائة وثمانية وعشرين فى الألوف ، وأيضا ان هذا العدد يمكن أن يقسم بالسوية مرة أو مرتين ، وكانت صناعة الكتابة فى اللغة العربية خاتمة الكتابات وتمام عـدد الحروف كما أن شريعة الاسلام آخر الشرائع كلها ، ومحمد عليه الصلاة والسلام خاتم النبيين وأصحاب الشرائع وعلى شريعته تقوم القيمة » (٣٠) •

والسؤال الذى يطرح نفسه : هل القول بأن العربية أتم اللغات ، وكتابتها ختام صناعة الكتابة نابع من تعصب اخوان الصفا لتلك اللغـة الشريفة ؟ وهل صحيح أن عدد حروف العربيـة ثمان وعشرون ؟ وهل اللغات وقفت عند هذا العدد ولم تزد احداها على ذلك ؟

هذا ما سنجيب عليه فى الفصل الخاص باللغـة العربيـة ، ولكن الذى يهمنا أن نقوله هنا أن الاخوان يؤمنون بأن اللغة تتطور وتتغـير بفعل عوامل معينة منها عامل الاجتهاد الفردى ، وسواء كان هذا التطور فى صورة نطق اللغة أو فى نظام رموزها وكتابتها ، ولا زالت كذلك حتى وقفت عند عدد معين من الحروف (المنطوقة والمكتوبة) تمثلت فى اللغة العربيـة •

العامل الثالث : الصراع والاحتكاك :

ربط الاخوان هذا العامل بالعاملين السـابقين : تأثـير الكواكب والاجتهاد الفردى ، اذ قد يغير الفرد لغة مجتمع ما عن طريق القـوة والقدرة بتوفيق الله له وبموجب مولده وسعادته ، يتضح هذا فى قولهم :

---

(٣٠) انظر المرجع السابق جـ ٣ / ١٤٣

« وكل حكيم من الحكماء أو ملك من الملوك اذا أراد نقل علم أو حكمة أو دين أو شريعة من لغة الى لغة أو من أمة الى أمة فانه يتهيأ له بتوفيق الله تعالى ، وموجب مولده وسعادته ، حتى يتمكن من ذلك ويقدر عليه » .

ومن اللغات التى قهرت غيرها ، وساقها الاخوان تأييدا لفكرتهم: اللغة العبرية والرومية واليونانية ، كما اتضح لنا من النص الذى ذكرناه فى بداية هذا الفصل .

أما العبرية فقد نقل اليها سليمان عليه السلام العلوم والحكمة من جميع اللغات حين قهر ملوكها وذلل رؤساها ، وأما الرومية فقد نقل اليها ملوك الروم علوم اليونان وحكمتهم من اللغة اليونانية حين غلب اليونان وقهرهم ، وكذلك فعل ملوك اليونان بمن غلبوا عليهم .

وقد أقرت الدراسة الحديثة مبدأ الصراع بين اللغات ورأته عاملا من عوامل التطور اللغوى ، فقد يحدث بين اللغات ما يحدث بين أفراد الكائنات الحية من احتكاك وصراع وتنازع على البقاء وسعى وراء الغلب والسيطرة ، وقد ينتج عن هذا الصراع ـ كما يشهد التاريخ ـ قتل بعض اللغات واحياء بعضها الآخر ، أو تسمم لغات أخرى واستعدادها للموت البطىء ان لم تدركها عناية من الله .

وينشأ هذا الصراع عن عوامل كثيرة منها نزوح عناصر أجنبية الى بلد تنطق بلغة غير لغة أهله ، وقد يحدث هذا على أثر فتح أو استعمار أو حرب أو هجرة ، عندئذ تشتبك اللغتين فى صراع ينتهى الى احدى نتيجتين : اما أن تتغلب احدى اللغتين على الأخرى فتصبح لغة جميع السكان ، أصيلهم ودخليهم ، واما أن تبقى اللغتان حيث لا تقوى واحدة منهما على الأخرى فتعيشان جنبا الى جنب .

وقد يحدث الصراع نتيجة تجاور شعبين مختلفى اللغة وينتهي الى نفس النتيجتين (٣١) •

وتقطع اللغة المغلوبة فى سبيل انقراضها مراحل ، حيث يتأثر متنها بطائفة كبيرة من مفردات اللغة الغالبة ، ثم تتسرب الى اللغة المغلوبة أصوات اللغة الغالبة ومخارج حروفها وأساليبها فى نطق الكلمات ، ثم تستولي قواعد اللغة الغالبة على الألسنة حتى يتم لها الظفر (٣٢) •

ومن الأمثلة على ذاك لغة الرومان (اللغة اللاتينية) فلم يتم النصر لها على اللغة السلفية التى كان يتكلم بها بلاد الجول (فرنسا وما اليها)،

---

(٣١) انظر هذا بالتفصيل عند : د• عبد الواحد وافى : اللغة والمجتمع ١١٥ ــ ١٤٢ • ومن العوامل التى تتيح الفرص للاحتكاك بين اللغتين ولكنها أقل شأنا من هذين العاملين : اشتباك شعبين مختلفي اللغة فى حرب طويلة الامد ، وتوثق العلاقات التجارية او ثقافية بين شعبين مختلفى اللغة • انظر المرجع السابق ١٤٢ ــ ١٤٤

(٣٢) انظر المرجع السابق ص ١٢٥ ــ ١٢٦ •

وتتغلب احدى اللغتين على اخرى فى حالتين : ١ ــ اذا كانت اللغتان المتصارعتان من شعبة واحدة أو من شعبتين متقاربتين ، وكان كلا الشعبين قليل الحضارة ويزيد عدد افراد احدهما عن أفراد الاخر زيادة كبيرة ، عندئذ تتغلب لغة اوكثرهما عددا سواء آكانت لغة الغالب أم المغلوب •

وقد يحدث أن تتغلب لغة على اخرى من غير فصيلتها ، ولكن هذا نادر الحدوث ولا يتم التغلب فيها الا بصعوبة وبعد أمد طويل •

٢ ــ اذا كانت اللغتان المتصارعان من شعبة واحدة ، وكان الشعب الغالب أرقى فى حضارته من الشعب المغلوب • مثل تغلب العربية على كثير من اللغات السامية الاخرى وعلى اللغات القبطية والبربرية والكوشيتية • انظر المرجع السابق ١١٥ ــ ١٢٠ •

وذلك فى القرن الأول الميلادى الى حوالى القرن الرابع الميلادى ، وكذلك العربية لم يتم النصر لها على القبطية والبربرية الا بعد أمد طويل(٣٣).

٣ ـ تفرع اللغة الى لهجات ولغات :

أرجع الاخوان هذا الاتجاه فى تطور اللغة الى انتشار الناطقين بها ، والى عوامل اجتماعية وجغرافيـة وفسيولوجية ، وربطـوا تلك العوامل بالعامل الرئيس فى نظرهم ، وهو تأثير الكواكب ، الذى أوضحنا بطلانه آنفا .

وهذه العوامل تتضح من خلال النصوص : الثانى والثالث والرابع التى ذكرناها فى بداية هذا الفصل .

وقد أقر المحدثون أن انتشار اللغة فى مناطق مختلفة واسعة اثر صراع أو هجرة أو استعمار أو نمو طبيعى لمجتمع ما ، يؤدى الى تفرع اللغة الى لهجات ولغات ، بل يعد العامل الرئيس (٣٤) .

ومتى انتشرت اللغة تحت تأثير ما تقدم استحال عليها الاحتفاظ بوحدتها الأولى أمدا طويلا ، فلا تلبث أن تتشعب الى لهجات ، وتسلك كل لهجة من هذه اللهجات فى سبيل تطـورها منهجا يختلف عن منهـج غيرها ، ولا تنفك مسافة الخلف تتسع بينها وبين أخواتها حتى تصبح لغة مميزة مستقلة غير مفهومة الا لأهلها .

وقد أقر المحدثون أيضا العامل الجغرافى المتمثل فيما بين سـكان المناطق المختلفة من فروق فى الجو وطبيعة البلاد وشكلها وموقعها وغيرها

(٣٣) نظر المرجع السابق ١٢٠ ـ ١٢١

(٣٤) انظر : د. على عبد الواحد وافى : اللغة والمجتمع ١٥١ ـ ١٥٨ .

يفصل كل منطقة منها عن غيرها من جبال وأنهار وبحار وما الى ذلك ، وهذه الفروق تؤدى الى فروق وفواصل فى اللغة (٣٥) .

ويؤكد الاخوان هذا فى نص آخر حين قالوا :

« اعلم يا أخى بان ترب البلاد والمدن والقرى تختلف ، وأهويتها تتغير من جهات عدة ، فمنها كونها فى ناحية الجنوب ، أو الشمال أو المشرق ، أو المغرب أو على رؤوس الجبال ، أو فى بطون الأودية والأغوار أو على سواحل البحار ، أو شطوط الأنهار — أو فى البرارى والقفار أو فى الآجام والدحال (٣٦) ، والأرض ذات الرملة والأرضين السباخ السهلة ، أو فى البقاع الصخرية والحجارة والحصى والرمال ، أو فى الأرضين السهلة والتربة اللينة بين الأنهار والأشجار والزروع والبساتين والزهر والنور . وأيضا فان أهوية البلاد والبقاع تختلف بحسب اختلاف تصاريف الرياح الأربع ونكباواتها (٣٧) ، وبحسب مطالع البروج عليها ، ومطارح شعاعات الكواكب عليها من آفاقها ، وهذه كلها تؤدى الى اختلاف أمزجة الأخلاط ، واختلاف أمزجة الأخلاط يؤدى الى اختلاف أخلاق أهلها وطباعهم وألوانهم ولغتهم وعاداتهم وآرائهم ومذاهبهم وأعمالهم وصنائعهم وتدابيرهم وسياساتهم ، لا يشبه بعضها بعضا ، بل تنفرد كل أمة منها بأشياء من هذه التى تقدم ذكرها لا يشاركها فيها غيرها » (٣٨) .

وقد أقر المحدثون أيضا العامل الشعبى المتمثل فيما بين سكان

---

(٣٥) انظر المرجع السابق ١٥٩ — ١٦١

(٣٦) الدحال : جمع دحل وهو هوة تكون فى الارض وفى اسافل الأودية يكون فى رأسها ضيق ثم يتسع أسفلها .

(٣٧) النكباوات : جمع نكباء وهى ريح انحرفت ووقعت بين ريحين

(٣٨) انظر : رسائل اخوان الصفا جـ ١/ ٣٠٢ — ٣٠٣

المناطق المختلفة من فروق فى الأجناس والفصائل الانسانية التى ينتمون اليها ٠

ومجموع الفوارق الجغرافية والشعبية تؤدى الى فروق فى التكوين الطبيعى لأعضاء النطق ، وهو مايطلق عليه العامل الفسيولوجى، وهذا العامل يمنع أن تظل اللغة محتفظة بوحدتها الأولى أمدا طويلا ، ذلك « أن أعضاء النطق تختلف فى بنيتها واستعدادها ومنهج تطورها تبعا لاختلاف الشعوب وتنوع الخصائص الطبيعية المزود بها كل شعب والتى تنتقل عن طريق الوراثة من السلف الى الخلف » (٣٩) ٠

ويترتب على تلك العوامل أيضا أن تختلف اللهجات فى الأمة الواحدة تبعا لاختلاف أقاليمها وما يحيط بكل اقليم منها من ظروف ، وقد ضرب الاخوان المثل على ذلك بلغتنا العربية كما سنوضحه فى الفصل الثانى من الباب الثانى ٠

وكما تشعبت اللغة المنطوقة واختلفت ، تشعبت صورتها المكتوبة واختلفت ، وذلك « أن لكل أمة من الأمم كتابة غير ما للأخرى ، كالعربية والفارسية والسريانية والقبطية والعبرانية واليونانية والهندية ، وما شاكلها ، لا يحصى عددها الا الله عز وجل الذى خلقهم مع اختلاف ألسنتهم وألوانهم وأخلاقهم وطبائعهم وصناعاتهم وعلومهم ومعارفهم ، كل ذلك لسعة علمه ونفاذ مشيئته واتقان حكمته سبحانه وتعالى » (٤٠) ٠

وعن موافقة الصورة المكتوبة للصورة المنطوقة يقول الاخوان :

---

(٣٩) انظر : د٠ على عبد الواحد وافى : اللغة والمجتمع ٧٩ وراجع ص ٦٦ ـ ٧٦ ٠

(٤٠) انظر المرجع السابق جـ١/٢١٩

« والسريانية لغة ولها حروف وكتابة وصـــناعة ونســـبة تجتمع عليها الحروف ، ولها أسماء تختص بها موافقة للغتهم ، وهكذا أيضا للرومية لغة وكتابة أخرى بشكل موافق لكلامهم وألحانهم ، وهكـــذا لليونانيين ولأهـــل فارس وغـــيرهم من الأمم أجناس من اللغـــات وفنـــون من العبارات » (٤١) .

وتختلف الصورة المكتوبة أيضا تبعا لاختلاف فنون القـــول التى تستخدم فيها وما يمتاز كل فن منها ، ســـواء كان شـــعرا أو نثرا أو خطابة أو رسائل أو تدوين علوم أو تاريخا أو ما الى ذلك .

فكل فن من هذه الفنون يختلف عما عـــداه فى طبيعته وأغراضـــه البيانية ، ومقدار صلته بوجدان الانسان وادراكه ، ومدى اقبال جمهور الناس عليـــه وأثره فى نفســـه وتلاؤمـــه مع حاجاتـــه ومبلغ نشـــاط المشـــتغلين بـــه .

والاختلاف فى هذه الأمور يؤدى الى اختلاف كل فن عن الآخر فى مفرداته وأساليبه ومعانيه وأفكاره (٤٢) ، يفهم هذا من قول الاخوان :

« اعلم أن لكل أهل ملة وشريعة كتاب بأمر ونهى وحلال وحـــرام، وقضايا وأحكام ، وصناعة من الكلام والكتابة والألحان والنغمات ... واعلم بأن لهم من الحاجة الى ذلك ما لا غنى عنه ، ولابـــد لهم منه ، فصار يحدث فى وقته كل قران وبموجب كل زمان نـــوع من أنـــواع الكتابات وجنس من أجناس اللغات والخطوط والعبارات ، ويحدث فى ذلك من كل أمة وكل لغة أنواع الكلام والنظم والألحان والنغمات وأشياء كثيرة لا يحصيها الا الله عز وجل » (٤٣) .

---

(٤١) انظر المرجع السابق جـ٣ /١٤٨ .

(٤٢) انظر : د. على عبد الواحد وافى : اللغة والمجتمع ١٧٥ ـ ١٧٨ .

(٤٣) انظر : رسائل اخوان الصفا جـ٣ / ١٥٦ .

الفصل الرابع

الصوت العام

الصوت فى معناه العام طاقة يحس بها الانسان نتيجة لاهتزاز الأجسام المحدثة له ، وانتقال هذه الاهتزازات عبر وسط ناقل هو الهواء — غالبا — الى أذن السامع ومنها الى جهازه الادراكى فى المخ .

وهو يشمل سماع أى صوت يحدث فى الطبيعة أو فى حياتنا اليومية ، سواء كان طبيعيا أو انسانيا أو كلاميا أو غير ذلك .

وقد أدرك اخوان الصفا هذا ، فرأيناهم يتحدثون عن الصوت العام وأنواعه ، ونشأته ، والمراحل التى يمر بها بدءا من حدوثه وانتاجه وانتهاء بسماعه وادراكه .

أولا : أنواع الصوت :

ان أنواع الصوت متنوعة ، فالصوت اما طبيعى ، أو آلى ، أو منطقى ، أو غير منطقى . وقد يكون الصوت حيوانيا كالنوعين الأخيرين، وقد يكون غير حيوانى كالنوعين الأولين . يوضح الاخوان تلك الأنواع فى قولهم :

« الأصوات نوعان : حيوانية وغير حيوانية . وغير الحيوانية أيضا نوعان : طبيعية وآلية ، فالطبيعية هى كصوت الحجر والحديد والخشب والرعد والريح وبسائر الأجسام التى لا روح فيها من الجمادات . والآلية كصوت الطبل والبوق والزمر والأوتار وما شاكلها .

والحيوانية نوعان : منطقية وغير منطقية ، فغير المنطقية هى أصوات سائر الحيوان الغير الناطقة ، وأما المنطقية فهى أصوات الناس » (١) .

وقد أطلق الاخوان على الأصوات الحيوانية أصواتا مفهومة ، وعلى غير الحيوانية أصواتا غير مفهومة (٢) .

واذا كان للصوت أنواع متعددة على هذه الصورة فكيف ينشأ وما المراحل التى يمر بها حتى يسمع ويدرك ؟

ثانيا : نشأته والمراحل التى يمر بها :

يمر الصوت بمراحل عديدة ، ويمكن اجمالها فى أربع :

١ ـ مرحلة حدوثه أو اصداره .

٢ ـ مرحلة انتقاله .

٣ ـ مرحلة سماعه .

٤ ـ مرحلة ادراكه .

أولا : حدوث الصوت واصداره :

لقد أثبت علماء الصوت المحدثون بتجارب لا يتطرق اليها الشك أن كل صوت مسموع يستلزم وجود جسم يهتز . وقد أدرك الاخوان هذا حين قالوا :

---

(١) انظر : رسائل اخوان الصفا ج ١/١٨٨ ـ ١٨٩ ، ج٢/٤٠٢ ـ ٤٠٧ ، ٤٦٨ ـ ٤٦٩ ، ج ٣/٩٥ ـ ٩٦/١٢٣ ، وراجع : الرسالة الجامعة ج ١ / ٥٩٦ ـ ٥٩٧ .

(٢) انظر ج٣ /١٠١

« اعلم أن أصل الأصوات هو ما حدث من تصادم الأجرام وبحركات الأجسام ، والصوت قرع يحدث من الهواء اذا صدمت الأجسام بعضها بعضا ، فتحدث بين ذينك الجسمين حركة عرضية تسمى صوتا ، بأى حركة تحركت ، ولأى جسم صدمت ، ومن أى شىء كانت » (٣) .

وحين قالوا :

« وكل هذه الأصوات مفهومها وغير مفهومها ، حيوانها وغير حيوانها انما هى قرع يحدث فى الهواء من تصادم الأجرام وعصر حلقوم الحيوان » (٤) .

ولا يحدث الصوت ولا يسمع الا اذا كان تصادم واحتكاك الأجسام المولدة له شديدا ، نرى الاخوان يقولون :

« ان كل جسمين تصادما برفق ولين لا تسمع لهما صوتا ، لأن الهواء ينسل من بينهما قليلا قليلا فلا يحدث صوتا ، وانما يحدث الصوت من تصادم الأجسام متى كان صدمها بشدة وسرعة ، لأن الهواء عند ذلك يندفع مفاجأة ، ويتموج بحركته الى الجهات الست بسرعة فيحدث الصوت ويسمع » (٥) .

ولذا نرى الاخوان يعرفون الصوت بأنه :

« هواء يتقلب بين جسمين متصادمين بعنف فيصك الهواء الراكد فى آلة السمع » (٦) .

---

(٣) انظر : المرجع السابق جـ ٣/ ٩٥ ، ١٢٣،٩٦ وراجع جـ١/ ١٨٨ - ١٨٩ ، جـ ٢ / ٤٠٧ .

(٤) انظر : المرجع السابق جـ٣/ ٩٨ .

(٥) انظر المرجع السابق جـ١/ ١٨٩ ــ ١٩٠ ، جـ ٣ / ١٣٢

(٦) انظر : المرجع السابق جـ٢/ ٤٠٧

والأجسام التي يصدر عنها الصوت متعددة ، ولذا نرى الاخوان يقسمونها الى ثلاثة أقسام : حية ، وميتة ، ولا حية ولا ميتة ، يتضح هذا في قولهم :

« وكلام الإنسان وصوت الحيوان حي ذو حركات نفسانية ، وصوت الحجر والخشب والحديد والنحاس وما شاكلها ميت ، والقسم الثالث :-لا حي ولا ميت مثل صوت الهواء اذا تدافع وصدم بعضه بعضا وحدث منه الصفير والزمير ، وصوت تدافع الماء في التلاطم ، وأمواج البحار ، وجريان الأنهار ، وصوت زفير النار ، فان هذه لا يقال لها حية كما يقال للانسان والحيوان انه حي ذو حركة يقصد لغرض ينالة بحركته ، ولا يقال انها ميتة كموت الحجر والخشب ، لأنها متحركة بالاتفاق لا بالقصد ، لأنها تقوى مرة حركة الهواء ، ومرة تسكنها ، وكذلك الماء والنار » (٧) ٠

ولما كان الجسم لا يصدر الصوت الا اذا اهتز ، ولا يهتز إلا إذا تحرك فان المدرك يختلف بحسب نوع الصوت ، أما بالنسبة لأصوات الأجسام الحية (الحيوانات الناطقة وغير الناطقة) فالمحرك هو النفس (بفتح الفاء) ، يقول الاخوان :

« ان الصوت الحادث بحركة نفسانية حيوانية فهو مخصوص به الحيوان » (٨) ٠ وأما بالنسبة لأصوات الأجسام غير الحية — كصوت البوق وضرب الدف ، والطبول وما شاكل ذلك ، والمسمى قرع ووقع وطنين وصفير وزفير ونقر ودق وفرقعة — فالمحرك لها من غير جنسها بقصد أو بغير قصد ، يقول الاخوان :

---

(٧) انظر : المرجع السابق جـ ٢٢٧/٣ ، وراجع ١٣٠ — ١٣١

(٨) انظر : المرجع السابق جـ٣/١١٦ ٠

« هذه الأصوات مخصوصة بما يحدث من حركات الأجسام الصامتة التى لا يحدث صوت وحس عنها الا بمحرك من غير جنسها يرفعها ويضعها وينقرها ويقرع بعضها ببعض ، فالمحرك لها اما بعمد وقصد كالانسان فيما يتخذه من هذه الآلات للتصويت بالحركة ، أو كحيوان يحدث ذلك بغير قصد كاحتكاك الدابة بالباب ودفعها للاناء وغيره ، فيحدث من تلك الحركة وذلك الدفع صوت ، أو من حركة الرياح والهواء للأجسام والنبات والأشجار وحفيف أوراقها ، واحتكاك قضبانها ، وسلوك الهواء بينها ، وسريانه بين الحيطان والبنيان ، وخرقه منافذ الجبال والغدران والكهوف ، فيحدث منه أنواع الصفير والتصويت . ومما يحدث من أصوات حوادث الجو مثل ما يحدث من حركات المياه اذا انحدرت وتدافعت من أعلى الجبال الى بطون الأودية ، ومثل أصوات الدواليب والأرحية والطواحين والجواذيف ، وجريان السفن فى البحر ، وجرى العجل فى البر ، وكل ماء اذا تحرك أو تصرف فيه المحرك ظهر منه الصوت وقرع الهواء » (٩) .

وقد ميز الاخوان بين الأصوات ، ووضعوا لها أسماء مختلفة بحسب المصدر المحدث لها ، « فما كان منها عن أجسام الحيوان قيل : أصوات ونغمات ، وما كان منها عن حركة الهواء قيل : صفير وزفير ، وما كان من المعدنيات والأحجار والخشب قيل : وقع وطنين ونقرة وما شاكل ذلك ، وما كان من جهة الانسان قيل كلام ولفظ ومنطق بالجملة » (١٠) .

وقد يظن ظان أن الأصوات قد توجد فى غير أجسام ومن غير حركات الأجسام ، وينشأ ظنه من أنه اذا تكلم فى سفح جبل أو صاح

---

(٩) انظر المرجع السابق جـ٣ /١١٦

(١٠) انظر المرجع السابق جـ ٣ /٢١٦ ـ ٢١٧

فى قعر بئر أو نهر أجابة مجيب بمثل كلامه ، فيسمع المتكلم جوابه من غير جسم ولا حركة بجسم .

وهذا الظان يتهم الاخوان بأنه « جاهل بهذه الأشياء وبهذه الأسباب الموجبة لحدوثهـا منها وكونهـا عنها ، فغلط فيما رأى من موجوداتها ، وكان قليل المعرفة بمعلوماتها ، وأنه لما سمع الصوت من الجبل والبئر ظن بأنه أجابه بجوابه ورد عليه بكلامه اما من حيوان لا يراه وشيء لا يعانيه ، أو أن الجبل نطق بجوابه وقعر البئر رد كلامه ، فهذا تخيل من لا عقل له ولا معرفة عنده » (١١) .

ويرفع الاخوان هذا الظن بقولهم :

« فالصوت الذى يسمعه انما هو صوته ، والحركة التى بدت منه فى الهواء ، وذلك أنه صاح فى سفح الجبل وقعر البئر الى جانب الحائط فخرج من جوف المتكلم شكل كروى ونقش عرضى يأخذه الهواء الى آن يؤديه الى ذلك الموضع ، فيصادفه ما يمنعه من النفوذ والانتشار ، فيرتد راجعا فيسمع منه ذلك الصوت وهو الصدى » (١٢) .

ونرى الاخوان يؤكدون أن الأصوات لا تحدث الا بحركات الأجسام واهتزازها فى قولهم :

« اعلم أنه كما لا يجوز فى العقل أن يكون حيوان الا من محاسة أسباب أو نكاح أجسام ، كذلك لا توجد الأصوات الا فى الأجسام ، ولا تصوت الأجسام الا بحركات . ثم ان الأصوات أعراض حادثة ، والجواهر أجسام حاملة لها »(١٣) .

---

(١١) انظر المرجع السابق ج ٣/٩٨

(١٢، ١٣) انظر : المرجع السابق ج٣/٩٨

وقد أكدت الدراسات القديمة والحديثة تلك المعلومات التى بثها الاخوان فى رسائلهم (١٤) •

واذا قد عرفنا أن الأجسام تتحرك وتهتز لكى تحدث الصوت، فاننا نتساءل : ما طبيعة تلك الاهتزازات ، وما كيفية انتقالها ؟

هذا ما سنجيب عليه فى المرحلة التالية من مراحل الصوت •

ثانيا : انتقال الصوت :

ان مرحلة نقل الصوت هى الواسطة بين اصداره وسماعه وادراكه، ولذا سماها الاخوان « الحركة الواصلة الى حاسة السمع (١٥) •

والوسط الناقل الذى ينتقل عبره الصوت هو الهواء — غالبا — لما يتميز به من طواعية ومرونة ، ولذا ركز الاخوان حديثهم عليه ، اذ نراهم يقولون عن العلة التى أوجبت له هذه المرونة أو الحركة الخفيفة:

« الهواء جسم لطيف شريف ، وهو متوسط بين الطرفين ، فما هو فوقه ألطف منه وهو النور والضياء ، وما دونه أكثف وهو الماء والتراب » (١٦) •

ويوضح اخوان الصفا سرعة استجابة الهواء لنقل الصوت بقولهم :

---

(١٤) انظر — على سبيل المثال — ابن سينا : اسباب حدوث الحروف ص ٣ ومابعدها ط القاهرة ١٣٣٢ هـ •

(١٥) انظر : رسائل اخوان الصفا جـ٣ /١٠٣

(١٦) انظر : نفس المرجع السابق جـ ٢ /٥٤٣ ، جـ٣/١٢٥ •

« لما كان الهواء ألطف جوهرا من الماء ، وأشد سيلانا ، صار قبوله للأصوات والروائح أسرع انفعالا واسرع قبولا » (١٧) •

كذلك يوضح الاخوان كيفية حمل الهواء للصوت الصادر من مصدره بقولهم :

« ان الهواء لشدة لطافته وصفاء جوهره وسرعة حركة أجزائه يتخلل الأجسام كلها ويسرى فيها ويصل اليها ويحرك بعضها الى بعض • فاذا صدم جسم جسما انسل ذلك الهواء من بينهما ، وتدافع وتموج الى جميع الجهات ، وحدث من حركته شكل كروى يتسع كما تتسع القارورة من نفخ الزجاج ، وكلما اتسع ذلك الشكل ضعفت قوة ذلك الصوت الى أن يسكن • ومثال ذلك اذا رميت فى الماء الهادى الواقف فى مكان واسع حجرا فيحدث فى ذلك الماء دائرة من موضع وقع الحجر ، فلا تزال تتسع فوق سطح الماء وتتموج الى سائر الجهات وكلما اتسعت ضعفت حركتها حتى تتلاشى وتذهب » (١٨) •

وهذا يتفق تماما مع الدراسة الصوتية الحديثة وأوضحته تحت ما يسمى بالذبذبة الصوتية والموجات الصوتية ، وسعة الموجة ومداها، والتردد :

(أ) الذبذبة الصوتية :

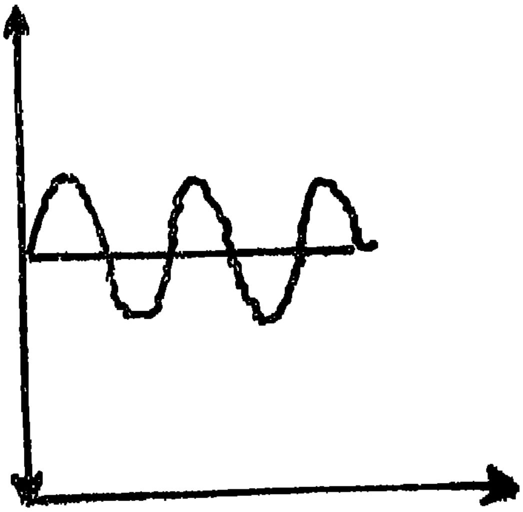
تطلق الذبذبة الصوتية على الدورة التى يقوم بها الجسم ابتداءا من نقطة سكونه الى اتجاه ما ، فرجوعه مارا بنقطة السكون الى الاتجاه المقابل ثم عودته مرة أخرى الى نقطة السكون •

---

(١٧) انظر : المرجع السابق جـ ٣/٤١٧
(١٨) انظر : المرجع السابق جـ ٨/٣٨٩ ، جـ ٢/٤٠٧ ، جـ ٣/١٠٢ — ١٠٣ ، ١٢٣ •

ويطلق على تكرار الذبذبة أما لاهتزازه اسم الاهتزاز أو التذبذب الصوتى (١٩) •

ويمكن تصور هذه الاهتزازات اذا ربطنا قلما على ذراع شوكة رنانة ، وقربنا سنه من ورقة موضوعة حول اسطوانة دائرة فى أثناء اهتزاز للشوكة وسوف يبدو ذلك على الشكل الآتى :



(ب) الموجات الصوتية :

ان كل ذبذبة فى مصدر الصوت تحدث أثرا مشـــابها لحركتها فى ذرات الهواء الملامسة لها ، وكل ذرة من هذه الذرات تحدث فى الذرة المجاورة لها الأثر نفســـه على هيئة خطين طوليين : يمثل أولهما عملية التضاغط حين تصطدم الذرة بما بعدها ، وثانيهما عملية التخلخل حين تعود لتصدم مع ما بعدها ، حتى تبلغ الاهتزازات الى غايتهـــا دون أن يغادر الهواء المحيط بالمصدر مكانه الى أذن المستمع •

---

(١٩) انظر : د• عبد الله ربيع ، عبد العزيز علام : علم الصوتيات ت• ١١٧ ط المكتبة التوفيقية ، د• تغريد عنبر : دراسات صوتية ص ٣٩ ط القاهرة ١٤٠١ هـ، ١٩٨٠م •

ويطلق على مجموع هذه الذبذبات الموجة الصوتية تشبيها لحركتها بحركة الموج فى الماء على النحو الذى ذكره اخوان الصفا فى النص السالف الذكر •

ومعنى أن موجات الهواء طولية غير مستعرضة أنها تكون فى نفس خط انتشار الموجة ، وليس فى اتجاه عمودى عليه ، لأن الهواء يمكن ضغطه ولا يمكن لولبته أو تحريكه حركات دائرية (٢٠) •

وقد أشار اخوان الصفا الى عملية التضاغط هذه حين قالوا :

« انما يحدث الصوت من تصادم الأجسام اذا كانت صدمتها بسرعة فينضغط الهواء عند ذلك وتتدافع أمواجه ، وتتموج حركته الى الجهات الست بسرعة فيحدث الصوت ويسمع » (٢١) •

ومصدر الصوت ينتج اهتزازات كثيرة متنوعة ، ومن ثم تكثر الموجات وتتتابع •

وقد رأى الاخوان أن تلك الذبذبات الصوتية تفنى فى الهواء ، اذ يقولون :

« ومن فضائل الهواء وخواصه العجيبة أنه يمنع الأصوات بسيلانه أن تثبت زمانا طويلا فيقل الانتفاع بها ويكثر الضرر منها ، وذلك أن الأصوات ليست تمكث فى الهواء الا ريثما تأخذ المسامع حظها ثم تضمحل ، ولو ثبتت الأصوات فى الهواء زمانا لامتلأ الهواء

---

(٢٠) انظر مزيدا من دراسة الموجة وأنواعها عند : د• عبدالله ربيع عبد العزيز علام : علم الصوتيات ص ١٢١ وما بعدها ، د• تغريد عيد دراسات صوتية ص ٣٠ وما بعدها ، د• سعد مصلاح : دراسة السمع والكلام ص ٥٠ ومابعدها • عالم الكتب ١٤٠٠ هـ ـ ١٩٨٠م •

(٢١) انظر : رسائل اخوان الصفا جـ ٣ / ١٣٢

من الأصوات ولعظم الضرر منها حتى لا يمكن أن يسمع ما يحتاج اليه من الكلام والأقاويل » (٢٢) •

ولكن هل يفنى الصوت بعد مدة كما ذكر الاخوان ؟ هذا ما أقرته الدراسة الحديثة فترة طويلة والى الآن ، ولكن نرى الدراسة الحديثة أن هناك أصواتا لا تضمحل ، ونسمع أن هناك فرق عمل تحاول اثبات هذا ، بل وتعمل على مدى امكانية استرجاع أصوات ظن أنها قد فنيت، وسوف يظهر فى مستقبل أيامنا مدى صحة هذه الدراسات .

(جـ) سعة الموجة ومداها :

ولما كان الأثر الذى يحدث الاهتزاز فى مصدر الصوت يختلف قوة وضعفا كان من الطبيعى أن تختلف حركة الأجسام المهتزة فيما يسمى بالمدى Amplitude الذى تصل اليه ما بين نقطة سكونها، ونقطتى النهاية فى حركتها الاهتزازية ، فتارة يتسع هذا المدى ، وتارة يضيق تبعا لدرجة قوة الجسم المهتز ، ومثل هذا يحدث أيضا فى الوسط الناقل حيث تتسع الموجة أو تضيق تبعا لقوة الاهتزازة التى صنعتها • وسوف نعرف قريبا أن لمدى الموجة تأثيرها على الأذن البشرية ، فكلما كانت سعة الموجة أكبر أحست الأذن بقوة الصوت وشدة تأثيره •

ومما أوضحته الدراسة هذا قد وضع جذوره وفكرته علماؤنا العرب ، ومنهم اخوان الصفا ، اذ نراهم يقولون :

« والأجسام العظيمة اذا تصادمت كان صوتها أعظم ، لأنها تموج هواء أكثر ، وكل جسمين من جوهر واحد ، مقدارهما واحد

(٢٢) انظر : المرجع السابق جـ٢ /٥٣ ـ ٥٤ ، وراجع جـ١/٢٠١

وشكلهما واحد نقرا نقرة واحدة معا فان صوتيهما يكونان متساويين ، فان كان احدهما أجوف كان صوتــه أعظم ، لانه يصــدم هواء كثيرا داخلا وخارجا ، والاجسام الملس اصواتها ملســاء ، لان الســطوح المشــتركة التى بينهــا وبين الهــواء ملســاء،والأجســام الخشــنة تكون أصواتها خشنة ، لأن الســطوح المشــتركة بينها وبين الهــواء خشــنة والأجســام الصــلبة المجوفة كالأوانى والطرجهارات (٢٣) والجرار اذا نقرت طنت زمــانا طويــلا ، لأن الهواء فى جوفها يتردد ويصدمها مرة بعد مرة ، وتارة بعد أخرى ، الى أن يســكن ، فما كان منها أوسع كان صوتها أعظم ، لأنه يصدم هواء كثيرا داخلا وخارجا ، والبوقات الطوال كان صوتها أعظم لأن الهواء المتموج فيها يصــدمها فى مروره مسافة بعيدة ، والحيوانات الكبيرة الرئات الطويلة الحلاقيم ، الواسعة المناخر والأشداق تكون جهيرة الأصوات لأنها تستنشق هواء كثيرا وترسله بشدة . فقد تبين بما ذكرنا أن عــلة عظم الصوت انما هى بحسب عظم الأجسام المصوتة وشدة صدمها وكثرة تموج الهواء فى الجهات عنها » (٢٤) .

---

(٢٣) الطرجهارات : شبه كؤوس يشرب فيها ، واحدتها طرجهارة

(٢٤) انظر : المرجع الســابق ج ١/١٩٠ . وقد رأى اخــوان الصفا أن أعظم الاصوات صوت الرعد ، وقد فرقوا بينه وبين صــوت الساعقة : أما صوت الرعد فسبب حدوثه « أن يطلع البخار بلطافته حتى يعلق فى عنان الهواء ، وهو على حزبين : رطب ويابس ، فاذا اجتمعــا وتكاثفا امتزجا وتعاقدا فعقد البخار الرطب مع البخار اليابس بقوة كثافته وشدة رطوبته ، ولا يكون له منفذ الا بشدة شديدة ، فيجتمع بقــوته ويخترق الهواء بلطافته فيحدث منه ذلك الصوت « أى صوت الرعــد ، على قدر كثرته وقلته » . ثم قال الاخوان : « ولولا رحمة الله بخلقه بأن جعل من شأن السحاب أنه اذا انخرق طلب الصعود الى فــوق ، ومن شأن قرع الهواء اذا حدث أن تكون حركته الى فوق ، ولولا ذلك لكانت

=

(هـ) التردد :

من الطبيعى أن تكون لكل ذبذبة صوتيـــة فترة زمنية تتم فيها ، وعدد الذبذبات الى تحدث فى فترة زمنية محددة (كالثانية مثلا) هو ما يطلق عليه فى الدراسة الحديثة مصطلح التردد Frequency وتختلف الأصوات فى هذا التردد تبعا لظروف الجسم المهتز كمـــادته وشكله وســمكه (٢٥) .

وقد أدرك الاخوان هذا المضمون ، اذ نراهم يقولون :

« الحركة نوعـــان : سريعة وبطيئة ، والحركة السريعة هى التى

=

أصوات الرعد ولمعان البرق تضر بمسامع الحيوان وأبصارها ، لاهلكتها كما يكون ذلك فى بعض الاحايين » .

انظر : المرجع الســابق ج ٩٦/٣ ـ ٩٧ ويراجع ج ١٩٠/١ .. ١٩١ ، ج ٧٥/٢ ـ ٧٦ أما صوت الصاعقة فسبب حـــدوثه « أن هذا البخار ربما طلب العلو فلم يكن له منفذ فانعكس البخار اليابس فطلب السفل ، فقدح نارا أو يحدث منه صوت هائل وهو الذى يسمى الصاعقة. ثم قال الاخوان « وهى تقتل كثيرا من الحيـــوان الذى يقرب من ذلك المكان ، وربما أحرقت بعض الاجسام ، ومن الناس أيضا كما فعل بقوم شعيب وصالح عليهما السلام » .

انظر : المرجع السابق ج ٩٧/٣ . ويراجع ج١٩١/١ ، ج٧٦/٢

(٢٥) انظر : د. عبد الله ربيع ، وعبد العزيز علاّم : علم الصوتيات، د. عبد الحميد أبو سكين .

دراسات فى التجويد والاصوات اللغـوية ٣٢ . مطبعة الامـــانة ١٤٠٤ هـ ـ ١٩٨٣ م .

يقطع المتحرك بها مسافة بعيدة فى زمان قصير ، والبطيئة هى التى يقطع المتحرك بها مسافة أقل منها فى ذلك الزمان بعينه » (٢٦) •

ونراهم فى موضوع آخر يؤكدون هذا :

« الحركة تكون سريعة وبطيئة ، فالسريعة هى التى يقطع المتحرك بها مسافة طويلة فى زمان قصير ، والبطيئة هى التى يقطع المتحرك بها مسافة قصيرة فى زمـــان طويـــل • وعلى هذا المثـــال تعتبر الحركات والمتحركات » (٢٧) •

وبسرعة الصوت أو بمعنى آخر السرعة التى تنتشر بها الموجـــة الصوتية فى الوسط الناقل يكون معدلها أدنى من معدل سرعة الضوء ، نستنتج هذه المعلومة المهمة من قول الاخوان :

« وأما البروق والرعود فانهما يحدثان فى وقت واحـــد ، ولكن البرق يسبق الى الابصـــار قبل الصوت الى المســـامع ، لأن أحدهما روحانى الصورة ، وهو الضوء، والآخر جسمانى وهو الصوت » (٢٨)•

وقد أكد هـــذا فى العصر الحديث ، اذ تصـــل سرعة الصوت فى الهواء (١١٣٠) قدما فى الثانية الواحدة ، وهو ما يعادل (٣٤٠) مترا فى الثانية أو (٢٠٠) كلم فى الساعة ، وذلك فى درجة حرارة ٣٠ درجة ، وتنتقص سرعة الصوت كلما انخفضت درجـــات الحرارة ، كما تكون أبطأ فى المواد السائلة ثم الغازية (٢٩) •

---

(٢٦) انظر رسائل اخوان الصفا جـ ١٩٣/١ •

(٢٧) انظر المرجع السابق جـ ١٣٦/٣ •

(٢٨) انظر المرجع السابق جـ ٧٥/٢ •

(٢٩) انظر : كندر أتوفا : الاصوات والاشارات ١٩٩ •

أما سرعة الضوء فهي أعـلى من ذلك بكثير ، اذ يقطع الضـوء المسافة بين الأرض والقمر في ثانية واحـدة ، وبين الأرض والشمس في ثمان دقائق (٣٠) •

ثالثا : سماع الصوت :

بعد أن يصدر الصوت من جسم مهتز ، ويحمله الوسط الناقل ، تأتى مرحلة التقاطه وسماعه عبر الأذن • ويتوقف وضـوح الصوت وشدته على مدى قرب الأذن من مصدر الصوت • يقول الاخوان :

« فمن كان حاضرا من الناس وسائر الحيوانـات الذى له أذن بالقرب من ذلك المكان فيتموج ذلك الهواء بحركته يدخل في أذنيه الى صماخيه في مؤخر الدماغ ويتموج أيضا ذلك الهواء الذى هناك فتحس عند ذلك القوة السامعة بتلك الحركة وذلك التغيير » (٣١) •

ويؤكد الاخوان هذا أيضا بصورة أوضح في قولهم :

« فمن كان حاضرا في ذلك الموضع أو بالقرب منه من الحيـوان سمع ذلك الصوت فبلغ ذلك التموج الذى جرى في الهواء الى مسامعه ودخل صماخه وتحرك الهواء المسـتقر في عمق الأذنين بحسب القوة السامعة بذلك التموج والحركة التى أحدثت التغيير •

وقد أكدت الدراسة الحديثة مارتـآه اخوان الصفا من أن شدة الصوت وارتفاعه تتوقف على قرب الأذن من مصدر الصوت (٣٢) •

---

(٣٠) انظر : د• سعد مصلوح : دراسة السمع والكلام ٤١ •

(٣١) انظر : رسائل اخوان الصفا ج ١/١٨٩ ، ج ٢/٤٠٧ ـ ٤٠٨ ، ج ٣/١٢٣ •

(٣٢) انظر : د• عبد الحميد أبو سيكين : دراسات في التجويد والاصوات اللغوية ٣١ •

وأوضحت كذلك ـــ معتمدة على التشريح ـــ كيفية التقاط الأذن الصـــوت :

فاذا كانت الأذن عضو ثابت فان لأجزائها الداخلية حركه لابـــد منها لأداء الوظيفـــة السـمعية ، وتتمثـل هذه الحركـــة فى اهتزاز طبلة (٣٣) أذن الانسان عند التقـــاطها موجـــات الصوت المهتزة ، ثم تنتقل هذه الاهتزازات الى عظيمـــات الأذن الوســـطى : المطرقـــة ، فالســـندان ، فالركـــاب ، ثم تنتقل الى الجـــزء الأســـفل من الأذن الداخلية المشـــتمل على ذلك الجســـم الحلزونى التركيب الذى يعرف بالقوقعة والمملوء بذلك السائل المسمى بالسائل التيهى ، فيهتز ويتحرك، ومن ثم تهتز الخلايا الشعرية التى تمثل أهداب الأعصـــاب السمعية والتى يصل عددها الى أكثر من (١٥٠٠) خلية شعرية ، ثم تتحـــول هذه الاهتزازات الى اشارات كهربائية تحملها الأعصـــاب السمعية ـــ التى تتكون من (٣٠٠٠٠) خيط عصـــبى ـــ الى المركز الســـمعى فى المخ . ويستطيع الخيط الواحد نقل (١٠٠٠) اشارة فى الثانية ، ومن هذا يتبين أن الأعصاب السمعية تستطيع نقل (٣٠) مليون اشـــارة كهربائية الى المخ فى الثانية الواحدة (٣٤) .

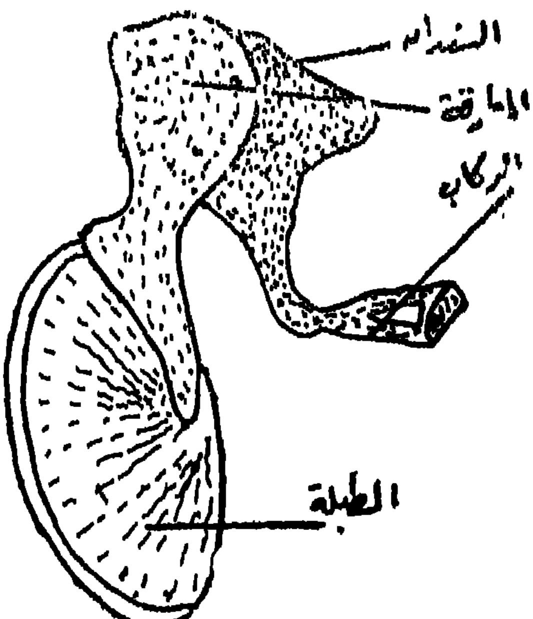
---

(٣٣) وهى عبارة عن غشاء رقيق له قدرة على التجارب لأى اهتزاز وتصل الطبلة بالجزء الخارجى البارز من الاذن عن طريق الصماخ « وهو قناة ضيقة تستخدم بمثابة ممر سمعى يعمل صندوق رنين يضخم الصوت الى جانب توصيله موجات الاصوات الى الطبلة »

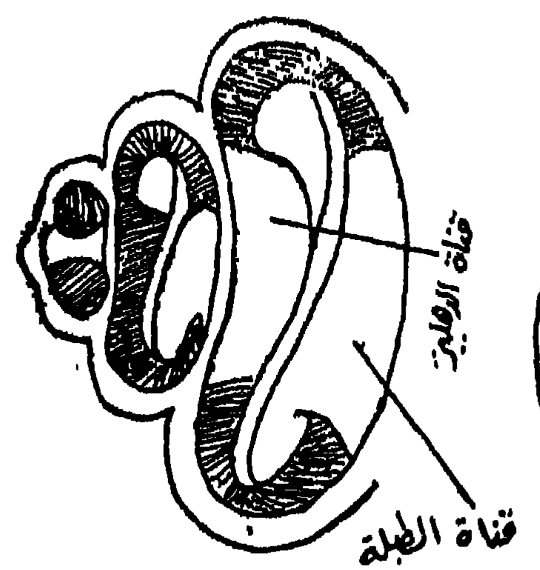
(٣٤) انظر : د. عبد الله ربيع ، د. عبد العزيز علام علم الصوتيات ١٣٦ ـــ ١٣٩ بتصرف .

(٣٥) انظر Heffner : General phonetics P. 54

والشـــكلان الآتيـــان يوضحـــان أجـــزاء الأذنين : الوســـطى والداخلية (٣٥) :



الأذن الوسطى



الأذن الداخلية

ويبدأ الاحساس بالصوت عندما تهتز الأعصاب السمعية المنغمة فى السائل التيهى بعد اثارة الخلايا الشعرية • ويمكن حينئذ التفريق بين أنواع الصوت المختلفة باختلاف مصدرها ، فيستطيع الانسان أن يميز أصوات الحيوانات ونغماتها ، وصــفير الهواء وزفيره ، وخرير الماء وأمواجه ، ووقع المــدنيات ، وطنين الأحجار ونقــرة الخشب ، وكلام الانسان ولفظه ومنطقه ، كما ســبق نقله عن الاخـــوان • كما يستطيع أن يميز بين أنواع الصـــوت من جهة كيفيته ، وقد قســـمها الاخوان الى ثمانية أنواع ، كل نوعين منها متقابلان : الكبير والصغير ، والسريـــع والبطىء ، والدقيق والغليظ ، والثقيـــل والخفيف(٣٦) أو

---

(٣٦) انظر : رسائل اخوان الصفا ج ٣/١٣٦ ـ ١٣٧ •

بعبارة أخرى : العظيم والصغير ، والسريع والبطيء ، والحاد والغليظة والجهير والخفيف (٣٧) ٠

ومن الأصوات أيضا ما تستلذه المسامع ، وما تنفر عنه ، يقول الاخوان :

« واعلم بأن الأصوات الحادة والغليظة متضادان ، ولكن اذا كانت على نسبة تأليفية ائتلفت وامتزجت واتحدت ، وصارت لحنا موزونا واستلذتها المسامع وفرحت بها الأرواح وسرت بها النفوس ، وان كانت على غير النسبة تنافرت وتباينت ولم تأتلف ولم تستلذها المسامع ، بل تنفر عنها وتشمئز منها النفوس وتكرهها الأرواح » (٣٨)٠

وتلك قضية صفة الصوت quality التى تتحدث عنها الدراسة الصوتية الحديثة (٣٩) ٠

والتركيب الوظائفى للأذن يسمح لها بسماع النغمات والشدات الواقعة داخل مجال معين يطلق عليه مجال السمع بحيث اذا استقبلت الأذن أصواتا ذات نغمات أو شدات أدنى من هذا المجال فلا تدركه ، واذا استقبلت أعلى منه فانها قد تتلف ، ولذا يقول الاخوان :

« اعلم أنه اذا اعتبر أحوال الانسان ومجارى أموره من ذلك وحال جثته فانه متوسط بين الصغر والكبر فلا صغيرا جدا ولا كبيرا مفرطا ٠٠٠ وهكذا حال قوة حواسه على ادراك المحسوسات فلا يحس منها الا المتوسطات بين الطرفين ، وذلك أن القوة الباصرة لا تقوى على ادراك الألوان فى الظلمة الظلماء ، ولا على ادراكها فى النور الباهر كالنظر الى عين الشمس فى نصف النهار فى يوم الصيف ،

---

(٣٧) انظر : المرجع السابق ج ١/١٩٣ ـ ١٩٥ ٠

(٣٨) انظر : المرجع السابق ج ١/١٩٥ ٠

(٣٩) انظر :

John Laver : Phonetic description of voice quality 1980.

وهكذا قوة السمع لا تطيق استماع الصاعقة لشدتها وجلالتها ، ولا تقوى أيضا على ادراك دبيب النملة لخفائها وخمولها » (٤٠) •

وقد أوضحت الدراسة الحديثة تلك الفكرة التى تحدث عنها الإخوان ، اذ « تختلف حساسية الأذن لأدنى شدة (٤١) تسمعها باختلاف تردد النغمة (٤٢) وتبلغ هذه الحساسية أقصاها مع نغمة

---

(٤٠) انظر : رسائل اخوان الصفا ج ٣/٢٠ ـ ٢١ •

(٤١) أو فى شدة تسمعها الاذن $\frac{٢}{١٠٠٠٠}$ من الميكروبار مع ذبذبة قدرها ١٠٠٠ فى الثانية • ويرقم هذا المستوى بـ « صفر يسيبل » •

« والميكروبار : هو وحدة قياس الضغط « داين / سم٢ » • والميكروبار الواحد يساوى ضغطا يحوثه جسم وزنه حوالى $\frac{١}{١٠٠٠}$ من الجرام ، على مساحة قدرها سم٢ ، والديسيبل : هو وحدة قياس شدة الصوت مقارنا بشدة ثابتة هى شدة ذات ضغط قيمته $\frac{٢}{١٠٠٠٠}$ من الميكروبار مع نغمة ذات تردد مقداره ١٠٠٠ ذ/ت » •

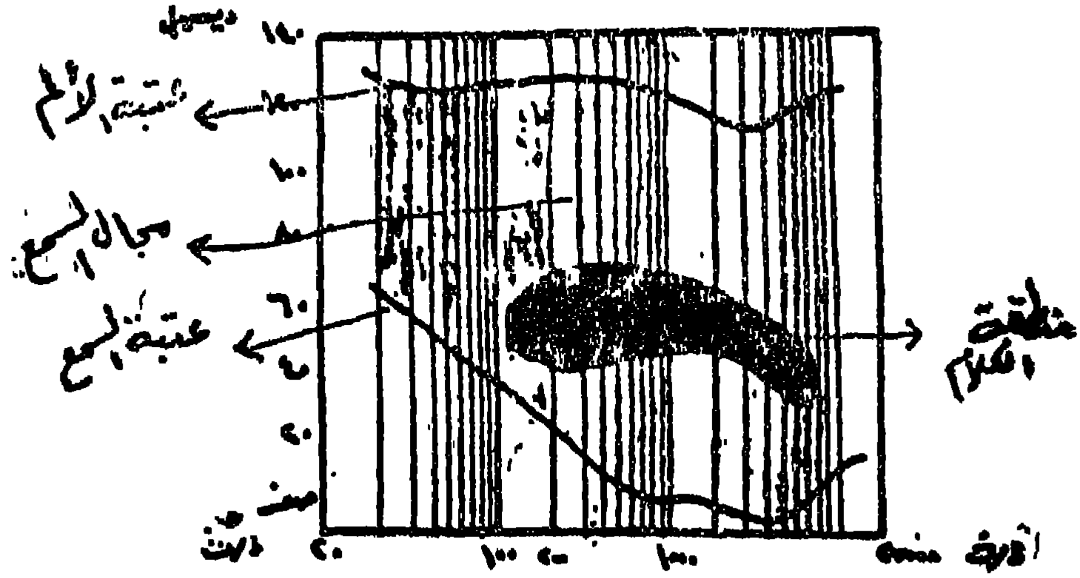
انظر : د• تغريد عنبر : دراسات صوتية ٣٤ ، ٤٢ •

(٤٢) أدنى نغمة تسمعها الاذن العادية تتراوح بين ١٦ ، ٢٠ذ/ت، وما تحت هذا العدد من الترددات لا يسمع ، ويسمى « ما تحت الصفر »، أما أعلى نغمة تسمعها الاذن السليمة تتراوح بين ٢٠ ـ ٢٥ الف ذ/ت وما أعلى من ذلك لا يسمع ويسمى « ما فوق الصوت » •

انظر المرجع السابق ٤١ •

ذات تردد ٤٠٠٠ ذ/ث ، ويعبر عن نقط بداية السمع مع النغمات المختلفة منحنى يسمى بعتبة السمع • كذلك تختلف حساسية الأذن للألم بزيادة الشدة (٤٣) تبعا لقيمة تردد النغمة ، ويعبر عنها منحنى يسمى « حد الألم » ، والمساحة بين عتبة السمع وحد الألم تسمى « مجال السمع » (٤٤) •

انظر الشكل الآتى :



وقد ذكر الاخوان أن الأصوات العظيمة الهائلة ، غير المتناسبة اذا وردت على المسامع دفعة واحدة مفاجأة أفسدت المزاج وأخرجته عن الإعتدال وتحدث موت الفجأة (٤٥) •

---

(٤٣) تشعر الاذن بالالم ابتداء من شدة قدرها حوالى ١٢٠ ديسيبل ، فاذا زاد الضغط الى أكثر من ذلك فانه قد يتلف الاذن •

انظر المرجع السابق ٤٢ وما هو معروف أن الشدة تطلق على الجوانب المتصلة بالضغط على الهواء ، وكلما زاد تردد الجسم المهتز كلما زادت حدة الصوت الناتج عنه ، وكلما زادت سعة اهتزازاته كلما زاد الضغط ومن ثم زادت شدة الصوت •

وقد سبق أن ذكرنا ـ نقلا عن الاخوان ـ أن صوتى الرعد والصاعقة اذا اقترب من مكانهما الانسان أو الحيوان بصفة عامة أضرا بمسامعه .

وقلما تخطىء الأذن فى التقاط الأصوات والتمييز بين أنواعها ، الا اذا وجد عائق فى الحركة الواصلة (الوسط الناقل) أو فى الحاسة السامعة نفسها .

أما عن العائق الأول فيتضح فى قول الاخوان :

« وأما حاسة السمع فانها لا تكذب ، وقلما تخطىء ، وذلك لأنه ليس بينها وبين محسوساتها الا واسطة واحدة وهى الهواء ، وانما يكون خطؤها بحسب غلظ الهواء ورقته ، وذلك انه ربما كانت الريح عاصفة والهواء متحركا حركة شديدة ، فيصوت المصوت فى مكان قريب من المسامع ، فلا يسمع من شدة حركة الهواء وهيجانه ، فتكون حركة ذلك الصوت يسيرة فى شدة حركة الهواء وهيجانه ، فيضعف عن الوصول الى الحركة السامعة . واذا كان الهواء ساكنا وصل ذلك الصوت الى الحاسة اذا كان فى مكان يمكن أن يتصل به ذلك التموج والحركة الحادثة فى الهواء . فأما اذا كانت المسافة بعيدة فانها لا تحركه وتتلاشى تلك الحركة وتنفذ قبل وصولها اليها » (٤٦) .

وأما العائق الثانى فيتضح فى قول الاخوان :

« متى كانت أدوات القوة السامعة التى هى صماخا الأذنين مفتوحتين نقيتين من الأوساخ ، سليمتين من الآفات العارضة ، طنت فيهما الأصوات بهيئتها ، فأدركتها القوة السامعة بحقائقها ، واذا

---

(٤٥) انظر : رسائل اخوان الصفا ج ١/١٩٥ .

(٤٦) انظر : المرجع السابق ج ٣/١٠٧ ، ١٢٦ .

كانت على غير ما ذكرنـــا لعـــارض من الآفـــات عاقت عن ادراكهـــا المسموعات » (٤٧) •

وقد ذكر الاخوان أن الحاســة السامعة اذا كانت خالية عن أى اعـــاقة فان قواهـــا فى تمييزهـــا الأصـــوات بعضها من بعض ألطف وأشرف من بقية الحواس (٤٨) •

وقد رأى بعض العلماء أن السمع أدق تمييزا من البصر ، ومن ثم فان حاسة السمع أشرف وألطف من حاسة النظر ، وبرهـــان هذا يظهر فى قول الاخوان :

« واختلف العلماء فى حاسة النظر وحاسة الســـمع أيهما ألطف وأشرف ، فقال بعضهم : حاسة السمع أشرف ، وكان برهـــان من قال ذلك أن محسوسات السمع كلها روحانية ، وأن النفس بطريق السمع تدرك من هو غائب بالمكان والزمـــان ، وأن محسوســـات البصر كلها جسمانية ، لأنها لا تدرك الا ما كان حـــاضرا فى ذلك الوقت • وقال : ان الســـمع أدق تمييزا من البصر ، اذ يعـــرف جودة الذوق ، وجودة الحس ، والكلام الموزون ، والنغمـــات المختلفة والفرق بين الســـقيم والصحيح والمســـتوى والمنزحف ، وصوت الطير من صوت الكلب ، وصوت الحمار من صوت الجمل ، وأصـــوات الأصدقـــاء من أصوات الأعداء ، وما يحدث من أصوات الأجسام التى لا روح فيها ، وأصوات النـــاس على اختلافهم وأشـــكال كلامهم ، فتخـــبر عن كل صـــوت بما هو دأبه ، وتنبه الى الذى بدا منه ، ولا يحتاج الى البصر فى ذلك وقت ادراكه • والبصر يخطىء فى أكثر مدركاته ، فانه ربما يرى الصغير

---

(٤٧) انظر : المرجع السابق ج ٣/٤٠٦ ، وراجع ١٣٦ •
(٤٨) انظر : المرجع السابق ج ٣/١٢٣ •

كبيرا ، والكبير صغيرا ، والبعيد قريبـــا ، والقريب بعيدا ، والمتحرك ساكنا ، والساكن متحركا ، فصح بهذا القول أن السمع ألطف وأشرف من البصر ، ولنعم ما قيل :

الشمس تســتصغر الأجســام جثتها
فالذنب للعين لا للشمس فى الصغر (٤٩)

وفضل بعض العلماء السمع على البصر ، « لأن البصر يذهب فى طلب محسوساته ويخدمها حتى يدركها مثل العبيد ، والســمع يحمل اليه محسوساته حتى تخدمه مثل الملوك » (٥٠) ٠

وقد أثبتت بعض الدراسات الحديثــة تميز العين على الأذن فى القدرة على الاستقبال ، اذ تحتوى شــبكية العين على عشرة ملايين خلية عصــبية ، ويصل العينين بالمخ مليون من الألـيــاف العصــبية ، ويستطيع جهــاز الاســتقبال البصرى (العين ومراكزهـــا فى المخ)

---

(٤٩) انظر : المرجع السابق جـ ١٢٣/٣ ـ ١٢٤ ، جـ ١ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ٠

وقد ربط الاخوان بين حواس الانســـان الخمس وبين الطبــائع الخمس الموجودة فى جسم العالم كما زعموا وهى الارض ، والما ، والهواء ، والنار ، والفلك ٠ ذكروا أن حاسة السمع مناسبة لطبيعة الفلك الذى هو مسكن الملائكة الذين شعارهم وشغلهم ، ليلهم ونهارهم وكلامهم كله تقديس وتسبيح وتهليل ٠ ويلتذ بعضهم بسماع بعض ، ويقوم لهم فى ذلك العالم العلوى مقام الغذاء الجسمانى فى العالم السفلى ، وذلك لأن حاسة السمع محسوساتها كلها روحانية » ٠ انظر المرجع السابق جـ ٣/ ١٢٤ ـ ١٤٥ ٠ وقد سبق أن عرفنا بطـــلان الاعتقـــاد فى الكواكب وتاثيرهـــا ٠

(٥٠) انظر : المرجع السابق جـ ٢٣٦/١ ٠

استيعاب ما يقرب من خمسة ملايين وحدة من المعلومات فى الثانية الواحدة • بينما تحتوى الأذن على ثلاثين ألفا من الألياف العصبية ، ويستطيع جهاز الاستقبال السمعى استيعاب ما يقرب من خمسين ألف وحدة فى الثانية • كما أكدت هذه الدراسة أن حاسة اللمس تقع مرقما وسطا بين الرؤية والسمع » (٥١) •

وللاخوان فلسفة فى ادراك الحاسة السامعة للاصوات المختلفة ، حيث يوجد فى نظرهم مناسبة بين مصدر الصوت وبين حاسة سمع الانسان ، فهو يدرك صوت الحجر والمعادن والجمادات غير النامية والحية لما بينها وبينه من مناسبات ومجانسات من جهة الجسمية والطبيعية الأرضية ، وذلك أن جسم الانسان مائل الى التراب ، كما يدرك صوت النبات والأشجار لأنه يشاركها فى النمو والزيادة والكبر بعد الصغر ، كما يدرك صوت الحيوان لأنه يشاركه فى الحياة والحس، بالاضافة الى أن النفس الحيوانية جارية بينهم متصل بعضها ببعض وأكثر اتصالا من النفس النامية بين النبات والحيوان ، كما يدرك أصوات الهواء والنار لأنه مهيأ منهما (٥٢) •

رابعا : ادراك الصوت :

بعد أن تلتقط الحاسة السامعة للأصوات على اختلاف مصادرها وأنواعها تتصل الى المخ على هيئة اشارات كهربية يقوم — بقدراته الكبيرة — بحل ملايين الاشارات الكهربية التى تصل اليه فى الثانية الواحدة بسرعة خاطفة ، ويترجمها الى معان ومدركات ، ثم ترسل الأوامر الى كل أجهزة الجسم للتجاوب مع تلك الأصوات حسب الظروف •

---

(٥١) أنظر : كندراتوف : الاصوات والاشارات ٥٢ ـ٥٣ •
(٥٢) انظر : المرجع السابق جـ ٣/١٣١ ـ ١٣٢ •

وقد تحدث الاخوان عن مراكز ادراك الأصوات فى دماغ الانسان ، نراهم يقولون عن أول مركز يستقبل الأصوات بعد سماعها:

« طنين الأصوات لا يمكث فى المسامع زمانا الا ريثما تأخذ القوة المتخيلة رسومها ، ثم تضمحل من المسامع تلك الطنينات .. » (٥٣) .

وأما موقع تلك القوة المتخيلة فى دماغ الانسان فيحددها الاخوان فى قولهم :

« اعلم أن كل صوت له نغمة وصيغة وهيئة روحانية خلاف صوت الآخر ، وأن الهواء من شرف جوهره ولطافة عنصره يحمل كل الصوت بهيأته وصيغته ويحفظها لئلا يختلط بعضها ببعض ؛ فيفسد هيأتها الى أن يبلغها الى أقصى مدى غاياتها عند القوة السامعة لتؤديها الى القوة المتخيلة التى سكنها مقدم الدماغ ، وذلك تقدير العزيز الحكيم الذى جعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون » (٥٤) .

وقد رأى الاخوان أن الدماغ بما فيه من مراكز ادراكية يستطيع أن يميز بين الأصوات المختلفة — لغوية أو غير لغوية — باختلاف مصدرها ، وأن يبين الغرض الذى من أجله صدرت ، كما سيأتى نقل النص المتعلق بهذا فى فصل الصوت اللغوى .

كما رأوا للقلب دورا فى تمييز الأصوات وفهمها .

وسوف نناقش فى فصل الصوت اللغوى ما آثار الاخوان من مراكز ادراكية ونتعرف على وجهة النظر الحديثة .

---

(٥٣) انظر : المرجع السابق جـ ١/٢٠٠ .

(٥٤) انظر : المرجع السابق جـ ١/١٨٩ ، جـ ٢ ، ٤٠٨ ، جـ ١٠٣ — ١٠٥ ، ١٢٥ .

ومما هو جدير بالذكر هنا أن الاخوان يميزون بين سماع الصوت، وبين ادراكه ، وهو ما تنبهت له الدراسة الحديثة مؤخرا ، حيث جعلت الدراسة السمعية علما مستقلا بازاء الدراسة الادراكية ، وفصلت بينهما ، ورأت على موضوع الدراسة الادراكية دراسة ادراك الاشارات الصوتية ، وليس مجرد سماعها •

ونلاحظ على الاخوان تأثرهم بمذهبهم في الكواكب والأملاك في تعرضهم للصوت العام كغيره من المباحث اللغوية التي طرقوها كما سبق :

فنراهم يذكرون أن الأصوات والنغمات سرت أولا في عالم السموات ، ثم في حركات الهواء ، ثم في حركات النبات ، ثم في أجسام الحيوان ، ثم في عالم الانسان (٥٥) •

ونرى تأكيدا لهذه الفكرة في قولهم :

« أصل الصوت في العالم الكبير الذي هو بمنزلة انسان كبير ، الهواء فيما دون فلك القمر ، والنفس في عالم الأفلاك ، ولذلك توجد في الانسان الذي هو عالم صغير في الرئة وفي قوة نفسه معاني ما يدل عليه الصوت ، وكذلك الحركات والأصوات التي دون فلك القمر انما هي مثالات ودلالات على تلك الأصوات الفاضلة والحركات المنتظمة ، وتلك أرواح وهذه أجساد » (٥٦) •

ونراهم يعقدون فصلا طويلا في معرفة الأصوات الفلكية (٥٧) يؤكدون فيه أن للأفلاك حركا تو أصوات ونغمات « ولما كانت الأفلاك

---

(٥٥) انظر : المرجع السابق ج ١١٣/٣ •
(٥٦) انظر : المرجع السابق ج ١١٤/٣ •
(٥٧) انظر : المرجع السابق ج ٩٠/٣ ٩٥ •

دائرات والكواكب والنجوم متحركات وجب أن يكون لها أصوات ونغمات » •ويؤكدون أن حركات وأصوات عالم الأبدان « محاكية لحركات الأشخاص الفلكية ، والأصوات الملكية ومناسبة لها ، وتلك هى الأصل فى جميعها ، وهذه فروعها » •

ويزيدون الفكرة وضوحا فى قولهم : « اعلم أنه لو لم يكن لحركات أشخاص الأفلاك أصوات ونغمات ، و لا للملائكة كلام ولا تسبيح ولا تقديس ، فليسوا هم اذا أحياء ، بل هم أموات ، لأن الصمت بالموت أولى ، ولربما احتكت بعض الأحجار ببعض فيحدث من بينهما قرع فى الهواء ولو كان الفلك ومن فيه بغير كلام ولا صوت ولا نطق لكان ما يكون تحته مشاكلا له ، وكان من يكون ساكنا بغير حركة • ولما كان هذا هو الأصل فى البداية وجب أن يكون ما تحته مناسبا له ، لكن هو الأعلى زيادة عليه ، اذ كان هو الفاعل ، وهذا المنفعل » •

ويؤكدون فكرتهم بنقلهم عن الحكماء قولهم : « أن الموجودات والمعلولات هى التى تحاكى أحوال الموجودات الأولى التى هى علل لها » وقولهم : « ان الأشخاص الفلكية عال وآلات لهذه الأشخاص التى فى عالم الكون والفساد ، وان حركات تلك علة لحركات هذه ، وحركات هذه تحاكى حركات تلك ، فواجب أن تكون أصوات هذه ونغماتها تحاكى ما هو علة لها ، كمحاكاة الصبيان أصوات آبائهم وأمهاتهم وحركاتهم فى لعبهم فانهم يحاكون أفعال الآباء والأمهات ، وهكذا التلامذة يحاكون أفعال الأستاذين » •

ونراهم يزعمون أن « أكثر العقلاء والعلماء من الناس يعلمون أن الأشخاص الفلكية وحركاتها المنتظمة وأصواتها الموزونة مع النسبة الفاضلة ، متقدمة الوجود على الحيوانات التى تحت فلك القمر ،

وحركاتها علة لحركات هذه ، وأن عالم النفوس متقدم الوجود على عالم الأجسام » •

ثم نراهم يقارنون بين أصوات العالم الأرض بالعالم العلوى فى قولهم :

« فقد بان بما ذكرنا وتحقق بما وصفنا أن السموات عامرة بأهلها ، مسكونة ، ولسكانها أصوات ونغمات ، والأصوات والنغمات والحركات التى هى أغراض تحدث من حركات الأجسام الحيوانية وغير الحيوانية انما تظهر ويبرز بحسب بروز تلك الأصوات فى ذلك العالم • وهكذا أيضا تتبع هذه الحركات الجزئية تلك الحركات الكلية، وهذه حركات ناقصة ، وتلك حركا تكاملة ، وهذه حركات فانية ، وتلك حركات باقية صالحة ، وتلك الحركات والأصوات والنغمات كلها مفهومة ، وهذه غير مفهومة ، وتلك مستوية ، وهذه غير مستوية » •

وأما أصوات الأفلاك فانما هى تسبيح وتهليل وتكبير وتحميد ، هكذا يختمون الفصل بهذا : « اعلم أن من لدن فلك المحيط الى منتهى فلك القمر أصواتا مرتفعة وألحانا مطربة ، ونغمات لذيذة ، ولغات مختلفة وحركات مؤتلفة ، ناطقة كلها بالتسبيح والتهليل والتكبير والتحميد ، فقد بان لك بهذا الوصف معرفة الأصوات الفلكية والحركات السماوية » •

وقد أكدوا تلك المزاعم فى مواضع متفرقة من رسائلهم (٥٨) •

---

(٥٨) أنظر المرجع السابق : رسالة الموسيقى : فصل فى أن لحركات الأفلاك نغمات كنغمات العيدان ج١/٢٠٦ ـ ٢١٨، وفصل فى حقيقة نغمات الافلاك ج ١/ ٢٢٥ ـ ٢٢٩ ، وفصل فى نوادر الفلاسفة فى الموسيقى ج ١/ ٢٣٤ ـ ٢٣٩ ، وانظر رسالة علل اختلاف اللغات ورسوم الخطوط والعبارات : فصل فى الفرق بين الصوت والكلام ج ٣/ ١١٤ ـ ١١٨ •

وقد كفانا العلامة ابن خلدون مؤنة ابطال ما ذهب اليه اخوان الصفا على ما ذكرناه فى الفصل السابق •

واذا استثنينا فكرة الكواكب وتأثيرها نرى الاخوان على وعى بكثير من مسائل وقضايا الصوت بمفهومه العام ، وهى تكشف عما فى تراثنا العلمى من حقائق علم الصوتيات وقضاياه ، وتقدم فى الوقت نفسه حقائق مذهلة للذين يظنون سبق الغرب فى معظم قضايا هذا العلم •

هذا عن الصوت بمعناه العام •• فماذا عن الصوت اللغوى ؟ هذا ما سنتحدث عنه فى الفصل القادم •

الفصل الخامس

الصوت اللغوى

تحدثنا فيما سبق عن تصور اخوان الصفا للصوت بمفهومه العام ، وعرفنا أنه قرع يحدث فى الهواء من تصادم الأجسام ، أو طاقة يحس بها الانسان نتيجة اهتزاز الأجسام المحدثة له ، وانتقال هذا الاهتزاز عبر الوسط الناقل الى أذن السامع ومنها الى جهاز الادراكى فى المخ •

والصوت البشرى ضرب من هذه الطاقة ، يحدث نتيجة لاهتزاز أعضاء النطق ، وينتقل عبر الوسط الناقل الى الأذن ومنها الى المخ الذى يترجمها بدوره الى معان •

ويمثل الصوت البشرى مادة اللغة ومظهرها الواقعى الذى يسمى بالكلام ، وقد عبر ابن جنى عن ذلك فى تعريفه المشهور للغة بأنها « أصوات يعبر عنها كل قوم عن أغراضهم » (١) •

وقد أدرك الاخوان هذا فرأيناهم يتحدثون عما نسميه بالصوت اللغوى ، ومستويات نطقه ، والمراحل التى يمر بها فى عملية التواصل اللغوى •

مفهوم الصوت اللغوى :

لقد أطلق الاخوان على أصوات الانسان أصواتا منطقية ، وقسموها الى دالة وغير دالة ، ورأوا أن الأصوات الدالة هى الكلام أو ما نعبر عنه بالأصوات اللغوية • ويقول الاخوان :

---

(١) انظر : الخصائص جـ ١/٣٣ •

« وأما الأصوات المنطقية فهى أصوات الناس ، وهى نوعـان : دالة وغير دالة ، فغير الدالة كالضحك والبكاء والصياح ، وبالجملة كل صوت لا هجاء له وأما الدالة فهى الكلام والأقاويل التى لها هجاء » (٢).

ويقصدون بهجـاء الصوت تقطيعه بالحروف عن طريق تحركات أعضاء النطق ، يقول الاخـوان :

« وأما الحيوان الإنسى فأصواته على نوعين : دالة وغير دالة ، فأما غير الدالة فهى صوت لا هجـاء له ، ولا ينقطع بحروف متميزة يفهم منها شىء ، مثل البكاء والضحك والسعال والأنين ، وما أشـبه ذلك . وأما الدالة فهى الكلام والأقـاويل التى لها هجـاء فى أى لغة وبأى لفظ قيلت » (٣) .

وقد أطلق الاخوان على هذا الصوت المقطع أو ما يسمى بالصوت اللغوى حرفا ونطقا لفظيا ، اذ يقولون :

« النطق اللفظى انما هو أصوات مسموعة لها هجاء ، وهى تظهر من اللسان الذى هو عضو الجسد ، وتمر الى المسامع من الآذان التى هى أعضاء من أجساد أخر » (٤) .

وأيضـا :

« ان الحروف اللفظية وضعت سمات ليسـتدل بها على الحروف الفكرية التى هى الأصل » (٥) .

---

(٢) انظر : رسائل اخـوان الصـفا جـ ١/١٨٩ ، جـ ٢/٤٠٧ ، جـ ٣/١٢٣ .

(٣) انظر : المرجع السابق جـ ٣/١٠٢ .

(٤) انظر : المرجع السابق جـ ١/٣٩٢ .

(٥) أنظر : المرجع السابق جـ ١/٣٩٣ . وهذا النص ضمنه احمد.

وأيضـــا :

« والدالة هى التى تلفظ بالحروف المعجمة ، وهى التى تدل على المعانى فى أفكار النفوس » (٦) •

وهكذا نرى أن الصوت البشرى أو ما ســـماه الاخـــوان صوتا منطقيا لا يكون لغويا أو حرفا لفظيا الا اذا قطع بصورة معينة فى أثناء مروره من الرئة وحتى انطلاقه الى الهواء الخارجى •

أما اذا لم يقطع ذلك الصوت التقطيع الملائم لأصـــوات الكلام ووقف فيه بقصد أو بغير قصد عند مرحلة التصويت التى تتم بقيـــام الحنجرة والأوتار الصوتية بالدور المطلوب منها ، أو تتبع تلك المرحلة ببعض التحركات النطقية الناقصة بوســـاطة أجزاء ما فوق الحنجرة ، فانه يسمى صياحا أو أنينا أو ضحكا أو ما أشبهها •

وتلك الأصوات المنطقية غير المقطعة لا تنفى عنها الدلالة بشكل قاطع كما زعم اخوان الصـــفا ، وأنها مجردة عن الدلالات ، وفاقـــدة المعانى بين المجتمعات لكونها لا تمثل برموز مثل أصوات الكلام ، فهى وان كانت قاصرة عنها فقد تحمل دلالات وتؤدى دورهـــا بشكل بارز بين أفراد المجتمع فيما يعرف فى الدراسة الحديثة بالدور شبه اللغوى الذى يعنى به ذلك العلم المعروف بعلم اللغة الاجتماعى •

فالصوت المصاحب لعمليـــة الضحك مثلا ، كما يدل على السرور فى بعض المواقف يدل على السـخرية أو العجب من الفزع فى مواقف

=

ابن محمد بن المظفر بن المختار الرازى « ٦٣١ هـ » •

كتابه الخاص بحروف المعجـم انظـر فى مجلة معهد المخطوطات العربية ص ٩٤ المجلد ٢٠ ربيع الآخر ١٣٩٤هـ ، مايو ١٩٧٤م •

(٦) انظر : المرجع السابق جـ ٢/٤٦٨ ـ ٤٦٩ •

أخرى يقتضيها المقام • وكذلك صوت الغنة له دلالات من هذا القبيل (٧) •

ولك أن تقرأ — مثلا — ما كتبه ابن منظور عن « النحنحة » وتستخلص الدلالة شبه اللغوية التى يؤديها :

« النحيح : صوت يردده الرجل فى جوفه ، وقد نح ينح نحيحا، ونحنح اذا رد السائل ردا قبيحا • وشحيح نحيح اتباع كأنه اذا سئل اعتل كراهة للعطاء فردد نفسه لذلك • والتنحنح والنحنحة : كالنحيح، وهو أشد من السعال • الأزهرى عن الليث : النحنحة التنحنح ، وهو أسهل من السعال ، وهى علة البخيل ، وأنشد :

يكاد من نحنحة وأح
يحكى سعال الشرق الأبح

والنحنحة أيضا : صوت الجرع من الحلق ، يقال منه : تنحنح الرجل (عن كراع) ، قال ابن سيدة : ولست منه على ثقة وأراها بالخاء ، قال بعض اللغويين : النحنحة أن يكرر قول نح نح مستروحا، كما أن المقرور اذا تنفس فى أصابعه مستدفئا فقال : كه كه ، اشتق منه المصدر ثم الفعل فقيل : كهكه كهكهة ، فاشتقوا من الصوت • وذكر ابن برى فى الحواشى فى فصل وغب :

كز المحيا أنح إرزب

« قال : الأنح : البخيل الذى اذا سئل تنحنح » •

---

(٧) ابحث تحت الطبع عن الغنة أوضحت فيه دلالتها شبه اللغوية •

المستويات الأدائية للصوت اللغوى :

يمكن حصر مستويات نطق الصوت اللغوى فى اثنين : تقطيعه على مستوى الإفراد ، ثم على مستوى التأليف والتركيب .

وقد أدرك الاخوان هذين المستويين .

● أما الأول فيظهر فى قولهم عن الأصوات اللغوية :

« وهى تقطيع الصياح بانضمام أجزاء الفم فتحدث منه حروف، كما تضم الشفتين بنوع ما فتحدث الباء ، وتضم بنوع آخر فتحدث الميم » (٨) . وهذا المستوى من التقطيع الذى يشير الى نطق أصوات الكلام مفردة وما يلزم لذلك من تحركات أعضاء النطق لاخراج تلك الأصوات هو ما يطلق عليه فى الدراسة الحديثة مصطلح Articulation ويعنون به ما يعبر عن الجانب الفسيولوجى (العضوى) فى اصدار واخراج الأصوات (٩) .

وليس عجبا أن يلتفت الاخوان فى رسائلهم الى هذا المستوى ، فان علماء العربية كالخليل بن أحمد (ت ١٧٠هـ) وسيبويه (ت ١٨٠هـ) والمبرد (ت ٢١ هـ) وغيرهم قد عالجوا أصوات اللغة من هذه الناحية فنظروا اليها فى افرادها وبحثوا فى كيفية اخراجها وتقطيعها ملتفتين الى فكرة المادة الصوتية التى يجرى عليها هذا التقطيع .

وقد عبر ابن جنى عن فكرة الخليل وغيره — وقد كان معاصرا لهؤلاء الاخوان فيما نعلم — فقال :

---

(٨) انظر : رسائل اخوان الصفا ج ٢/٤٠٧ .

(٩) انظر : د. عبد الله ربيع : الملامح الأدائية عند الجاحظ فى البيان والتبيين ٨٢ .

« اعلم أن الصوت عرض يخرج مع النفس مستطيلا متصلا حتى يعرض له فى الحلق والفم والشفتين مقاطع تثنيه عن امتداده واستطالته ، فيسمى المقطع أينما عرض له حرفا ، وتختلف اجراس الحروف بحسب اختلاف مقاطعها ، واذا تفطنت لذلك وجدته على ما ذكرته لك » (١٠) .

● ولما كانت اللغة تتطلب تأليف تلك الأصوات المفردة وتركيبها لتصير كلاما فاننا نرى الأخوان يلفتون النظر الى هذا التأليف والتركيب ، ويكونون بهذا قد أدركوا المستوى الأساسى الثانى فى النطق والأداء . يقول الأخوان :

« النطق اللفظى هو ألفاظ مؤلفة من الحروف المعجمة » (١١) . ويقولون :

« اعلم أن الحروف اذا ألفت صارت ألفاظا ، والألفاظ اذا ضمنت المعانى صارت أسماء ، والأسماء اذا ترادفت صارت كلاما ، والكلمات اذا اتسقت صارت أقاويل ، والأقاويل نوعان : موزون ونثر ، فالموزون كالشعر والرجز والقوافى ، والنثر نوعان : فمنه فصاحة وبلاغة ، ومنه مخاطبات ومحاورات ... » (١٢) .

ونراهم يعرفون الكلام بأنه « صوت بحروف مقطعة دالة على معان مفهومة من مخارج مختلفة » (١٣) .

---

(١٠) نظر : سر صناعة الاعراب ج ٦/١ بتحقيق : مصطفى السقا وآخرين . الطبعة الأولى ١٣٧٤هـ / ١٩٥٤ .
(١١) انظر : رسائل اخوان الصفا ج ٣٩٢/١ .
(١٢) انظر المرجع السابق ج ٣٩٣/١ .
(١٣) انظر المرجع السابق ج ١١٤/٣ .

ومن المعلوم أن النظرة الى الأصوات فى هذا المستوى قديمة ، وقد ترتب عليها وقوف العلماء على كثير من الظواهر الصوتية التركيبية التى يرجع بعضها الى تأليف الكلمات وبنائها الصوتى ، ويرجع بعضها الآخر الى قوانين الدمج بين الوحدات الكلامية المختلفة .

وقد لاحظ المحدثون أيضا ما لاحظه القدماء ، وأكدوا على أن المشخصات الفسيولوجية والفيزيائية للأصوات المفردة لا تتطابق تماما مع نظائرها عندما تكون الأصوات فى سياقات صوتية (١٤) .

المراحل التى يمر بها الصوت اللغوى :

يمر الصوت اللغوى بمراحل متعددة فى أثناء عملية التواصل التى هى عبارة عن سلسلة متصلة الحلقات ، تجمع بين متكلم ومستمع ووسط بينهما ينتقل عبره الصوت . وتبدأ تلك العملية بأحداث نفسية وعمليات عقلية تجرى فى ذهن المتكلم قبل أو فى أثناء الكلام ، ثم يتحقق لتلك الأحداث وجود نطقى حين يرسل المخ أوامره الى أعضاء النطق على هيئة مثيرات عصبية تنطلق عبر ممرات عصبية الى تلك الأعضاء ، حيث تقوم بتحركات معينة ، فتعوق تدفق الهواء القادم من الرئتين ، مما يترتب على ذلك عملية تقطيع للأصوات فتظهر على صورة أصوات كلامية منطلقة عبر الشفتين الى الهواء الخارجى . ثم تنتقل تلك الأصوات — على هيئة موجات صوتية عبر وسط ناقل — الى أذن المستمع فتحدث أيضا عمليات عضلية وعصبية وعضوية تنتهى بأحداث نفسية وعمليات عقلية تجرى فى ذهنه لتفسير تلك الموجات وادراك ما تحمله من معان .

---

(١٤) انظر : د. عبد الله ربيع : الملامح الأدائية عند الجاحظ فى البيان والتبيين ص ٨٤ ، وانظر: Heffner : General phonetics P.163

ويهتم علماء النفس ونفر من علمـــاء الأصـــوات بتلك الأحداث النفسية التي تجرى فى ذهن المتكلم أو المســـتمع ، بينما يركز غالبية علماء الأصوات على الجانب اللغوى المادى المتمثل فى الكلام المنطوق بالفعل فى الموقف المعين ، ودراسة جوانبه الصوتية المتمثلة فى عمليات الأصدار والانتقال والاستقبال •

وعلى أية حال فقد صارت كل مرحلة من مراحل التواصل اللغوى علما مستقلا ، وتنوعت وتعددت فروع الدراسات الصوتية مثل عـــلم الأصوات النطقى (الفســـيولوجى) ، والفيزيـــائى (الأكوسفيكى) ، والسمعى ، والنفسى أو الادراكى ، كما ظهرت عـــلوم أخرى حديثة تهتم بالصوت فى مرحلته الذهنية مثل علم اللغة العصبى ، وعلم النفس العصبى ، وعلم النفس اللغوى الى غير ذلك من العلوم •

وقد كانت لإخـــوان الصفا جهـــود تتصـــل بالصوت فى مراحله المختلفة حتى النفسية منها • ويهمنا أن نظهر تلك الجهود فى ضوء ما أتيح لنا مما كتبه المحدثون •

وقد قضت النصوص التى جمعتها من تراث الاخوان أن نظهرها ونناقشها فى ضوء المراحل الخاصة باصدار الصوت وانتقاله وسماعه وادراكه •

أولا : اصدار الصوت اللغوى :

لا يتم نطق الصوت اللغوى ـــ سواء فى حالة الإفراد (التقطيع) أو السياق « التأليف » إلا بوســـاطة أعضـــاء النطـــق • ولهـــذا نرى اخـــوان الصفا يشيرون الى أعضـــاء النطق الرئيســـية التى تصدر الأصوات يقولون : والحروف اللفظية انما هى أصوات تحدث فى الحلقوم

والحنك وبين اللسان والشفتين ، عند خروج النفس من الرئة ، بعد ترويحها الحرارة الغريزية التي في القلب »(١٥) •

والرئة هي مستودع النفس أو الهواء الذي ينطلق منها لإحداث الصوت ، ولذا نرى الاخوان يشيرون الى ذلك حين ذكروا أن « الرئة بيت الهواء » (١٦) • والرئة في الحقيقة ثنتان : يمنى ويسرى ، وتتصل كل منهما بالشعبة التي تفصل بينها وبين القصبة الهوائية ، وهما جسم مطاط قابل للحركة فيتمدد وينكمش ، ويتكونان مما يسمى بالحويصلات الهوائية والأنابيب الشعرية والشعيبات الهوائية ، وتمتلىء جميعها بهواء التنفس •

واذا كان الاخوان لم يشيروا الى ازدواج الرئة فاننا نراهم يربطون بينها وبين أعضاء أخرى في الجسد تساعدها على أداء وظيفتها ، ويوضحون من خلال هذا الربط عملية الشهيق والزفير • يقول الاخوان :

« الرئة بيت الريح يخدمها ويعينها في أفعالها أربعة أعضاء أخرى وهي الصدر والحجاب والحلقوم والمنخران ، وذلك أن من المنخرين يدخل الهواء المستنشق الى الحلقوم ، ويعتدل فيه مزاجه ، ويصل الى الرئة ويتصفى فيها ، ثم يدخل الى القلب ويروح الحرارة الغريزية هناك وينفذ من القلب الى العروق الضوارب ويبلغ الى

---

(١٥) انظر : رسائل اخوان الصفا ج ٣٣٠/١ • وهذا النص ضمنه أحمد بن محمد بن المظفر بن المختار الرازي (ت٦٣١هـ) كتابه الخاص بحروف المعجم • ونصه « •• والحنكين وفي اللسان •• الخ » انظره في مجلة معهد المخطوطات العربية ص ٩٤ •

(١٦) انظر : رسائل اخوان الصفا ج ١١٤/٣ •

سائر أطراف البدن الذى يسمى النبض : ويخرج من القلب الهواء المحترق الى الرئة ، ومن الرئة الى الحلقوم ، ومن الحلقوم الى المنخرين أو الى الفم • والصدر يخدم الرئة فى فتحة لها عند استنشاق الهواء وضمه اياها عند خروج النفس • والحجب تحفظ الرئة من الآفات العارضة لها عند الصدمات والدفعات واضطراب أحوال البدن » (١٧) •

وقد أكدت الدراسة الحديثة ما ذكره الاخوان ، وأوضحت أن حركة القفص الصدرى (المكون من اثنى عشر زوجا من الأضلاع) متزامنة مع حركة الحجاب الحاجز (الفاصل بين الجهازين التنفسى والهضمى) فى الضغط على الرئتين ، حيث تتم عملية الزفير التى تتم بوساطته عملية الكلام (١٨) •

وتعد حركة الحجاب الحاجز والقفص الصدرى والرئة من الحركات الطبيعية التى لا اختيار للانسان فيها : وذلك فى عمليتى الشهيق والزفير ، بخلاف الحركة العضوية اللازمة لعملية الكلام فانها من الحركات المقصودة على ما ذكره الاخوان وأكد المحدثون (١٩) •

وايجاد تيار هوائى — مع تلك الحركات — شرط لايجاد الصوت، وكما عرفنا أن هذا التيار اما أن يكون داخلا وذلك فى حالة الشهيق ، أو خارجا فى حالة الزفير • وجميع اللغات تستخدم هواء الزفير فى اصدار جميع أو معظم أصواتها ، « ولا يعرف اللغويين حتى الآن لغة

---

(١٧) انظر : المرجع السابق جـ ٢/ ١٩٠ •

(١٨) انظر : د• عبد الله ربيع ، عبد العزيز علام : علم الصوتيات ٨٧ — ٩١ •

(١٩) انظر : المرجع السابق ، ورسائل اخوان الصفا جـ ٣/ ٣٢٩ — ٣٣٠ •

تنتج بعض أصواتها مستخدمة هواء الشهيق كسمة مميزة لانتاج هذه الأصوات » (٢٠) • وفى هذا يقول الاخوان « اعلم أن هذه الأحرف لا تحدث الا بارسال النفس المستنشق من الهواء ، وارساله وقطع اللسان لها فى مخارجها ومجاريها » (٢١) •

ونراهم يشيرون الى أن أبعد المخارج أقصى الحلق :

« اعلم يا أخى أن الكلام هو صوت بحروف مقطعة ، دالة على معان مفهومة من مخارج (٢٢) مختلفة ، وأبعد مخارج الحروف اقصى الحلق ، وهو مما يلى أعلى الصدر » (٢٣) •

واذا كان المحدثون يرون أن الحنجرة هى أبعد المخارج ، فان أقصى الحلق بمفهومه العربى القديم يمكن أن يشملها • وقد أظهرت الدراسة الحديثة المعتمدة على معطيات علم التشريح أن للحلق ثلاثة أقسام ، يتصل أسفلها بالحنجرة ، وأعلاها بالفم (٢٤) •

ومهما يكن من أمر فان الاخوان قد ذكروا مكونات آلة النطق الرئيسية ، والتى تشتمل على الرئة والصدر والحجاب والحلقوم والمنخرين والفم وما يشتمل عليه من لسان وشفتين ، وهى تلك المكونات التى صارت دراستها علما فى زماننا يعرف بعلم الأصوات النطقى (الفسيولوجى) •

---

(٢٠) انظر : د• تغريد عنبر : دراسات صوتية ٩٤ •

(٢١) انظر : رسائل اخوان الصفا ج ٣/٣٣٠ •

(٢٢) يعنى بالمخرج المكان الذى يخرج منه الصوت ، أى مكان نطقه وتقطيعه حيث تحدث التحركات الخاصة به فى ممر النطق •

(٢٣) انظر : المرجع السابق ج ٣/١١٤ •

(٢٤) انظر : د• عبد الحميد محمد أبو سكين : دراسات فى التجويد والأصوات اللغوية ٤١ •

وقد أدرك الاخوان أهمية تلك المخارج وآثرها فى صحة النطق حين عرضوا لما سموه اتســاع الحروف ، وسـهولة التصرف فى مخــارج الكلام ، وخفة اللغة . والذى يتبادر الى الذهــن هنا من الاتســاع والسهولة والخفة هو ذلك الانسياب الصــوتى وعروج الاصــوات أو الكلام من اماكن التقطيع والنطق دون تعثرات أو عقبــات لغويــة أو فسيولوجية أو عصبية ، وهذا لا يمكن أن يتم الا اذا كانت أعضــاء النطق فى كامل صلاحيتها ومرونتها الحركية والعصبية ، والا اذا كانت التحركات اللازمة لإخراج الأصوات متوافقة منسجمة غير متنافرة أو متبــاعدة .

وقد أرجع الاخوان اتساع الحروف وسهولة التصرف فى مخارج الكلام وخفة اللغة الى عوامل فلكية وجغرافية وفسيولوجية ونفســيه تظهر فى قولهم :

« وأصل الأصوات فى الرئة هواء يصعد الى أن يصير الى الحلق فيديره اللسان على حسب مخارجه ، فــان خرج على حروف مقطعة مؤلفة عرف معنــاه وعلم خبره ، وان خرج على غير حروف لم يفهم كان كالنهاق والرغاء والسعال وما أشبه ذلك ، فان رده اللســـان الى مخرجه المعلوم فى حروف مفهومة يسمى كلاما ونطقا بأى لفظة كانت على حسب الموافقة ومســاعدة الطبيعة لكل قوم فى اتســـاع حروفهم وسهولة تصرفهم فى مخارج كلامهم وخفة لغاتهم بحسب مزاج طباعهم وأهوية بلدانهم وأغذيتهم ، وما أوجبت لهم دلائل مواليــدهم ، وما تولاهم من الكواكب فى وضــع أصل تلك اللغة فى الابتــداء الوضعى والمنهــاج الشرعى وما تفرع من ذلك الأصــل وما ينقســم من ذلك النــوع » (٢٥) .

---

(٢٥) انظر : رسائل اخوان الصفا جـ ٣/١١٤ ــ ١١٥ .

ونحن لا نسلم بذلك العوامل جملة ، فلقد تبين لنا من الفصول السابقة بطلان ذلك العامل الفلكي الذى يعتقده الاخوان من دلالات الكواكب وتاثيرها في الكائنات ويعدونه عاملا أصيليا • أما البيئة الجغرافية فان أثرها لا ينكر في خصائص اللغة وأصواتها ، اذ جميع خصائص الاقليم الطبيعية تنطبع في لغة سكانه ومن أجل دلك تنشأ فروق كبيرة في مختلف مظاهر اللغة بين سكان المناطق الحارة والمعتدلة والباردة ، وبين سكان المناطق الجبلية وسكان الصحراء وسكان الأودية ، وبين سكان المناطق الشمالية والوسطى والجنوبية ، كذلك تنشأ فروق كبيرة بين أفراد الفصيلة الواحدة ، بل بين لهجات اللغة الواحدة • أما اختلاف الشعوب بعضها عن بعض في خواصها الوراثية المتعلقة بأعضاء النطق فان له كذلك أثرا لا يستهان به في خواص اللغة ، وذلك أن أعضاء النطق تختلف في بنيتها واستعدادها تبعا لاختلاف الشعوب وتنوع الخواص الطبيعية المزود بها كل شعب ، والتى تنتقل عن طريق الوراثة من السلف الى الخلف • ومما يدعم ما نذكره قول الاخوان :

« اعلم أن اختلاف الناس في كلامهم ولغاتهم على حسب اختلافهم في أجسادهم وتركيباتهم ، وأصل الاختلاف في اللغات هو اختلاف مخارج الحروف ونقصها عن تأدية ما يؤديه البليغ منها » (٢٦) •

أما اختلاف الشعوب بعضها عن بعض في الخواص النفسية ومناحى التفكير والوجدان وما جبلو عليه من طباع وأخلاق فانها تتضافر مع العوامل المتقدمة في خلقه فروق في خصائص اللغة بين البشر •

---

(٢٦) انظر : رسائل اخوان الصفا جـ ١١٨/٣ •

ولك أن تقرأ ما كتبه الاخوان عن هذا العامل النفسى الذى يؤثر فى السلوك الانسانى بصفة عامة يقولون :

« اعلم أن أمزجة الأبدان كثيرة الفنون ، وطبائع الحيوانات كثيرة الأنواع ، ولكل مزاج وطبيعة نغمة مشاكلة ، ولحن ملائم لها لا يحصى عددها الا الله تعالى • والدليل على ذلك أنك اذا تأملت وجدت لكل أمة من الناس ألحانا ونغمات وأصواتا يستلذون ويفرحون بها لا يستلزها غيرهم ولا يسر بها سواهم ، وذلك لاختلاف لغاتهم وتباين أمزجتهم وطباعهم وما جرت به العادات والأخلاق • وهكذا يجرى فى أصحاب لغة واحدة : أقوام يستلذون ألحانا ونغمات وأصواتا لا يستلذها غيرهم من لغتهم ، وهكذا ربما تجد انسانا واحدا يستلذ وقتا لحنا ما ، ويعافه وقتا آخر • وهكذا تجد حكمهم فى مأكولاتهم ومشروباتهم ومسموعاتهم وملبوساتهم وسائر الأنواع من الملاذ والزينة ، كل ذلك بحسب تغيير أمزجتهم واختلاف طبائعهم وما جرت به عاداتهم ، وما تولاهم من الأسباب الفلكية ، والأحكام السماوية فى أوقات مواليدهم ومساقط نطفهم » (٢٧) •

هذا وقد يفسد الكلام وتحدث اضطرابات فى التكلم واخراج المقاطع وتقطيعها مما ينتج عنها عيوب نطقية بالرغم من سلامة آلة الصوت • وقد رد الاخوان على من يزعم خلاف ذلك ويرى أن فساد الكلام من فساد المزاج ، حين قالوا :

« وقد زعم بعضهم أن فساد الكلام من فساد التركيب وفساد المزاج ، وليس هو كما زعم ، وانما هو من اختلاف مخارج الحروف فى قوتها وضعفها ، وهو فساد فى اللسان يقلب ويعدل الحروف عن

---

(٢٧) انظر : المرجع السابق جـ ١٣٩/٣ ، وكلاما يؤكده فى ٥٣٣

مخارجها ، ولو كان من فساد المزاج لكانت اللغة كلها فى حرف واحد من مخرج واحد ، ولكانت ترجع الى الاستواء عند صلاح المزاج كما يحدث بالفصيح الكلام ، وضعف الصوت من فساد المزاج وغلبة بعض الطبائع ، واذا عاد الى الأمر السالم عاد كلامه الى المعهود منه أولا واللغة ليست كذلك ، والناس فيها مختلفون ، وغير متفقين فى الحروف التى يقع الخطأ فيها والعدول بها عن استوائها الى خلافها ، وهى أغراض كثيرة تختص باللسان ، وتعرض فتفسد الكلام ، وهى زمانة لازمة مثل الخلة ، والفأفأة ، والتمتمة ، والعقلة ، والحكة ، والرتة ، واللثغة ، وما أشبه ذلك » (٢٨) •

وسوف نلقى الضوء على تلك العيوب فى الفصل الخاص باللغة العربية ان شاء الله •

ثانيا : انتقال الصوت اللغوى :

لقد تحدث الاخوان عن تلك المرحلة التى تنتقل أصوات الكلام خلالها عبر الهواء ، وباعتبار تلك الأصوات ضربا من الصوت العام كما مر •

وقد صارت دراسة تلك المرحلة علما فى زماننا يعرف بعلم الأصوات الفيزيائى أو (الأكوستيكى) (٢٩) ، وقد قطع شوطا كبيرا

---

(٢٨) انظر المرجع السابق جـ ١١٨/٣

(٢٩) نسبة الى « أكوستيك » وهو فرع من الفيزياء ، ويفضل الدكتور كمال بشر التسمية الاولى بغرض التسهيل على القارىء العربى .. ويرى أنه الترجمة العربية للمصطلح الثانى الا بعبارة طويلة • انظر علم اللغة العام : الاصوات ١٠٧ ط ٤ دار المعارف ١٩٧٩ م

فى ميدان التقدم حيث اســتخدمت أجهزة عديــدة فى تحليل الصوت وتركيبه (٣٠) •

وقد عرف الاخوان أصوات الكلام بأنها « أصــوات محمولة فى الهواء فمدركة بطريق الأذنين بالقوة السامعة » (٣١) •

والنشــاط الأكوســتيكى لا يقتصر دوره على قنــاة التوصيل الخارجية ، وانما مبدأ من الجهاز الصــوتى للمتكلم وينتهى بجهــاز الاستقبال لدى السامع •

فالانسان عندما يتكلم يحدث تيار نفسه وتحركات لسانه وشفتيه اضطرابا فى الهواء الداخلى تســمى موجات صوتيــة تتغير من ضغطه داخل الممر الصوتى ، ثم ينتقل الى الهواء الخارجى بصــورة خاصة حتى تصل الى أذن الســامع •

ومعنى هذا أن اختلاف أعضــاء النطق هو الذى يحــدد طبيعة الموجات الصوتية وما يترتب على ذلك من تنوع أصوات الكلام ، وقد سبق أن نقلنا عن الاخوان قولهم « اعــلم أن هذه الأحرف لا تحدث الا بارسال النفس المستنشق من الهواء وارساله وقطع اللسان لها فى مخارجها ومجاريها » •

وقد سبق أن عرفنا فى أثناء الحديث عن الصوت العام فى الفصل السابق أن الاخوان كانوا على وعى بالموجات الصوتية ومداها وسعتها بما يغنى عن الاعادة هنا •

---

(٣٠) انظر : د• محمد صالح بن عمر : الثورة التكنولوجية و... ص ١٥ ومابعدها : الطبعة الاولى • بغداد ١٩٨٦م •

(٣١) انظر : رسائل اخوان الصفا جـ ٣٩٢/١ • والنص ذكــره الرازى فى كتاب الحروف • انظره فى مجلة معهد المخطوطات العربية •

واذا كان علمـاء الصـوت يرون أن هناك تلازم وترابـط بين المرحلتين : الفسيوجية والأكوستيكية ، فاننا ترى الاخـوان يربطون بينهما . ويتضح هذا فى ربطهم بين مدى الصوت وانتشاره وبين قوة رئة الانسان وأعضائه (بل والحيوان بصفة عامة) .

يقولون :

وكذلك صوت الحديد والذهب والفضة وغير ذلك فـان أصواتها اذا حدثت تكون مختلفة بحسب اختلاف جواهرها وتباين طباعها من الصلابة والرخاوة واللين واليبوسة ، ومثالها فى ذلك مثـال أصوات الحيوانات فكلما كان فى نفسه أمثل ورئتـه أقوى كان صوتـه أعظم وأبعد مسافة فى الهواء لشدة حركته » (٣٢) .

ويقولـون :

« فأما مخارج (الأصوات) من سائر الحيوان فانها من الرئـة الى الصدر ، ثم الى الحلق ثم الى الفم ، ثم يخرج من الفم شكل على قدر عظم الحيوان وقوة رئته وسـعة شدقه ، وكلما اتسـع الحلقوم وانفرج الفكان وعظمت الرئه زاد صـوت الحيوان على قـدر قوته وضعفه » (٣٣) .

ويقولـون :

« ومن أراد أن يكون له صـوت طويل يمكث فى الهواء فليتعمد ذلك ويجتهد فى جمع الهواء حتى يكون ارساله بحسب ما اجتمع فيـه فيدرك بذلك ما يريد وان تأذى وتألم » (٣٤)

---

(٣٢) انظر : المرجع السابع ج ٣/١٠٣

(٣٣) يظر : المرجع السابق ج ٣/١٠٢ .

(٣٤) انظر : المرجع السابق ج ٣/١٠٤

(ج) مرحلة سماع الصوت اللغوى :

لقد سبق أن تحدثنا فى الفصل السابق عن كيفية التقاط الأذن وسماعها الصوت بمفهومه العام . ولقد أدرك الاخوان مدى التلازم والترابط بين هذه المرحلة التى صارت علما فى زماننا يعرف بعلم الاصوات السمعى وبين المرحلتين السابقتين :

فاذا كان اختلاف تحركات أعضاء النطق هو الذى يحدد طبيعة الموجات الصوتية ومداها وسعتها ، فان لهذا المدى تأثيره على الأذن البشرية ، فكلما كانت سعة الموجة أكبر كلما أحست الأذن بقوة الصوت وشدة تأثيره ، ولذلك نرى الاخوان يذكرون ثمانية أنواع من الأصوات، كل اثنين منها متقابلان : الجهير والخفيف ، والحاد والغليظ ، والعظيم والصغير ، والسريع والبطىء (٣٥) .

ويتضح الربط بين الجوانب الفسيولوجية والسمعية والنفسية فى قولهم عن أصوات الحيوانات بصفة عامة :

« واعلم بأن أصوات الحيوانات المتنفسة متفننة كثيرة الاختلاف من الطول والقصر والغلظ والعظم والاصغر والجهير والخفيف وفنون الطنين والزمير والألحان والنغم : كل ذلك بحسب طول أعناقها وقصرها، وسعة مناخيرها وحلاقيمها ، وضيقها ، وصفاء طباعها وغلظها ، وشدة قوة استنشاقها الهواء وارسالها وتعديل أنفاسها بعد ترويح الحرارة الغريزية التى فى قلوبها أو فى عمق أجسادها » (٣٦) .

ونلقى الضوء فيما يلى على أنواع الأصوات التى ذكرها الاخوان كى يستطيع القارىء أن يفرق بينها :

---

(٣٥) انظر : المرجع السابق جـ ١ / ١٩٣ ـ ١٩٥ ، جـ ٣ / ١٣٦ ـ ١٣٧ .

(٣٦) انظر : المرجع السابق جـ ٢ / ١٩١ ـ ١٩٢ .

جهارة الصوت وخفته :

لقد ربط الاخوان بين جهارة صوت الانسان وبين سلامة أعضاء نطقة وقوتهـا ، ومعنى هذا أنهم ربطـوا بين الجانبين الفسيولوجي والفيزيائي وبين احساس الأذن بجهارة الصوت • يقول الاخوان :

« وأما الجهـير والخفيف من الأصـوات فبحسب قوة الحركـة وضعفها ، والمثال فى ذلك صوت العليل السـقيم بالقياس الى صـوته الصحيح المعافى ، وصوت العليل الى من هو أضعف منه وأسـقم حتى يكون أجهر الأصوات من الناس ما كان فى غاية الصحة وسلامة الحواس، واستواء الآلة ، وأخفاهن ما كان فى الغاية بخلاف هذه الصفة لما به من ضعف القوة وقلة الحركة وفساد الجملة وغير ذلك » (٣٧) •

ويقولون :

« والحيوانات الكبيرة الراثات ، الطويلة الحلاقيم ، الواسـعة المناخر والأشداق ، تكون جهيرة الأصوات ، لأنها تستنشق هواء كثيرا وترسله بشدة » (٣٨) •

ويقولون :

« وكلما اتسع الحلقوم وانفرج الفكان وعظمت الرئة زاد صـوت ذلك الحيوان على قدر قوته وضعفه » (٣٩) •

وقد قابلوا بين الجهارة وبين الخفاء كما هو وأضح فى النص قبل السابق •

---

(٣٧) انظر : المرجع السابق جـ ٣/١٣٧ •
(٣٨) انظر المرجع السابق جـ١ /١٩٠
(٣٩) انظر : المرجع السابق جـ ١٠٢/٣

وقد عبروا عن الجهارة فى بعض المواضع من رســائلهم بالثقل فى مقابل الخفة (٤٠) . ويبدو أن المقصود بالجهارة أو الثقل هنا هو مــا يسميه علم الصوتيات الحديث شدة الصوت وبعد مداه . وقد أطلق هذا العلم على الاحساس بالشدة مصطلح Laudnes ، وهو يرتبــط فسيولوجيا بالطاقة العضلية لأعضاء النطق والضغط تحت الحنجرة ، فكلما ازداد هذا الضغط وزادت تلك الطاقة كلما اتسع مــدى الموجات الصوتية واشتد الصوت ، ويرتبط فيزيائيا بأمور ، أهمها اتساع مدى الموجات الصوتية Ampiltude التى تشكل الصوت ، فكلما كانت تلك الموجات أكثر اتســاعا أحست الأذن بأن الصــوت أشد فى الســمع (٤١) .

حدة الصوت وغلظته :

لقد ربط الاخوان بين الجانبين الفســيولوجى والفيزيائى وبين احساس الأذن بحدة الصوت وغلظته حين قالوا :

« وأما أصوات الحيوانات ذوات الرئة واختلاف أنواعها وفنون نغماتها فهى بحسب طول أعناقها وقصرها ، وســعة حلاقيمها وتركيب حناجرها ، وشدة استنشاقها الهواء وقوة ارسال أنفاسها من أفواههــا ومناخرها » (٤٢) .

وقد عبر الاخوان عن حدة الصوت فى بعض المواضع بالدقة(٤٣) .

---

(٤٠) انظر المرجع السابق ج٣/١٣٦ .

(٤١) انظر : د. عبدالله ربيع ، عبد العزيز علام : علم الصوتيات ١٣٢ ـ ١٣٣ .

وانظر : Heffner: General phonetics P. 51

(٤٢) انظر : رسائل اخوان الصفا ج ١/ ١٩١ ، ج ٣/ ١٣٣

(٤٣) انظر : المرجع ج ٣/ ١٣٦

وقد عرفها الفيزيائيون بأنها الخاصية التى تميز بها الأذن الأصوات أو النغمات من حيث الحدة والغلظة ، وأطلقوا عليها حدة الصوت أو النغمة gitch •

واحساس الأذن بحدة الصوت وغلظته يتوقف أساسا على ما يسمى فى الدراسة للحديثة التردد الأساسي فى الموجات المركبة ، والذى سبق ذكرة فى الفصل السابق ، وهذا التردد يقابل ـ فسيولوجيا ـ اهتزاز الوترين الصوتين فى الحنجرة ، فكلما زاد معدل اهتزاز الوترين أحست الأذن بارتفاع نغمة الصوت • وزيادة هذا المعدل أو نقصه تتوقف بالطبع على طبيعة هذين الوترين وحجمها ودرجة توترهما ، بالاضافة الى طبيعة ضغط الهواء تحت الحنجرة • ومع مرونة الوترين وقدرة الانسان على التحكم فى ضغط الهواء يمكن أن يغير فى نغمة أصواته ، ولذلك أثر كبير فى أداء الكلام (٤٤) •

ونلاحظ أن الاخوان يربطون بين جهارة الصوت ونغمته واختلاف أنواعه من ناحية وبين ما سموه بسعة الحلاقيم والمناخر والأشداق « التى تعمل صندوق رنين يضخم الصوت ويقويه » •

وهم بذلك يذكرونا بما تسميه الدراسة الحديثة لون الصوت أو نوعه voice quality • وهو يرتبط ـ فسيولوجيا ـ بصناديق الرنين التى تصنعها تحركات أعضاء النطق وما تقوم به هذه الصناديق من ترشيح وتقوية لبعض النغمات التى تمر بها • ويرتبط ـ فيزيائيا ـ بعدد النغمات التوافقية التى تصاحب التردد الأساسى وتوزيعها ،

---

(٤٤) انظر : د • عبد الله ربيع ، عبد العزيز علام • علم الصوتيات ١٣٣ ـ ١٩٤

وانظر : Heffner : General phonetics P. 46

والشدة الفردية لكل منها(٤٥) . ويعطى المتكلم صوته اللون العام عندما يختار — مكان تلك الصناديق وهيئاتها تبعا لظروفه النفسيه ومقتضى الحال أو السياق الكلامى .

كبر الصوت وصغره :

تحدث الاخوان عن نوع آخر من الأصوات وصفوه بالكبر فى مقابل الصغر ، وعقدوا فصلا فى رسائلهم بينوا فيه اختلاف الأصوات فى الصغر والكبر (٤٦) . وقد عبروا عن كبر الصوت بالعظم فى مقابل الصغر أيضا (٤٧) .

ويبدو أن كبر الصوت وعظمة — فى نظرهم — يجمع بين جهارته وشدته وبعد مداه من ناحية ، وبين غلظته وارتفاع نغمته من ناحية أخرى ، ولذلك نراهم يذكرون أن العلة فى عظم الصوت انما ترجع الى عظم الجسم المصوت وشدة صدمه الهواء وكثرة تموجه فى الجهات(٤٨).

وقد ضرب الاخوان أمثلة توضح كبر الصوت بمفهومه العام . يقولون :

« فأما الكبير والصغير من الأصوات فان المثال فيها أصوات الطبول الكبار والصغار ، وذلك أن أصوات طبول المواكب اذا أضيفت الى أصوات اللهو كانت كبيرة ، واذا أضيفت الى أصوات طبول الكوس(٤٩)

---

(٤٥) انظر : د. عبد الله ربيع ، عبد العزيز علام : علم الصوتيات ١٣٥ ، :

John Laver : The phonetic description of voice quality P. 14.

(٤٦) انظر : رسائل اخوان الصفا جـ ٣/ ١٣٢

(٤٧) انظر : المرجع السابق جـ ٣/١٣٢ — ١٣٥ ، جـ ١ / ١٩٣

(٤٨) انظر : المرجع السابق جـ٣/١٣٣ ، جـ /١٩٠

(٤٩) الكوس : طبل عظيم يضرب فى ثغور خراسان عند النفير ، يسمع صوته من فراغ . انظر المرجع السابق جـ /١٩٣

كانت صغيرة ، واذا أضيف صوت طبول الكوس الى صوت الرعد كان صغيرا ، وعلى هذا المثال تعتبر الأصوات فى الصغر والكبر باضافة بعضها الى بعض » (٥٠) •

وأما بالنسبة لصوت الانسان فقد ربطوا بين كبره وبعد مداه وبين كبر الرئة وطول الحلاقيم وسعة المناخر والأشداق ، وهذا يعنى بالتعبير الحديث أنهم أدركوا المترابطات الفسيولوجية والفيزيائية والسمعية فى احساس الأذن بعظم الصوت •

وكبر الصوت بما اشتمل على جهارة وشدة وبعد مدى وغلظة وارتفاع نغمة يتميز بالوضوح السمعى بدرجة كبيرة ، ولذلك استخدم هذا الصوت وسيلة اتصال أو اعلام عند الشعور بالخطر مثل ما كان يحدث فى ثغور خراسان ، حيث كان يضرب فيها طبل عظيم عند النفير، يسمع صوته من تراسخ كما ذكر الاخوان •

وقد درس المحدثون هذا الوضوح السمعى تحت مصطلح sonority وقصدوا به تلك الصفة التى يتصف بها الصوت العام بناء على مظهره المنتلئ الضخم ، ويتصف بها الصوت الانسانى بناء على درجة الجهر المسموعة ، ومدى خلو الممر الصوتى من الاعاقات (٥١) •

وهذا الوضوح يقابل من الناحية الفيزيائية بالطاقة الاكوستيكية، وتحدد مقادير تلك الطاقة بالطرق (الالكترونية) •

واذا كان علم الصوتيات يفصل اليوم بين القوة والشدة من ناحية، وبين الطبقة والنغمة من ناحية أخرى ويتحدث الى جانب ذلك عن

---

(٥٠) انظر : المرجع السابق جـ ٣/١٣٦ ، وراجع جـ١ /١٩٣

(٥١) انظر Heffner : General phonetics PP. 74 - 75.

الوضــوح السـمعى ، ويعالج كل هذا من الجوانب الفسـيولوجية ، والفيزيائية والسمعية بمناهجها المختلفـة عندما يريد تصـوير الأداء وتوضيح جوانبه فاننا بالطبع لا ننتظر من الاخوان وأمثالهم ممن عاشوا فى تلك الفترة المبكرة أن يقدموا ما لم يجد به زمانهـم ولم تسـمح به طبيعة التقدم والتطور العلمى فى أوانه ٠ ومن ثم فقد رضـينا فى هذا الجانب بما أشاروا اليه ٠

سرعة الصوت وبطؤه :

تحدث الاخوان عن الصوت بمفهومه العـام من ناحيـة السرعة والبطء حين قالوا :

« وأما السريع والبطىء من الأصوات باضافة بعضـها الى بعض فهى التى تكون أزمـان سكونات ما بين نقراتهـا قصيرة بالاضـافة الى غيرها ، والمثال فى ذلك أصوات كوذينات القصارين (٥٢) ومطارق الحدادين ، فانها سريعة بالاضـافة الى أصـواته دق الرزازين (٥٣) والجصاصين (٥٤) ، وهى بطيئة بالاضافة اليها ، وأما بالاضـافة الى

---

(٥٢) كوزينات أى مطارق والقصار والمقصر « بتشديد الصـاد» : المحور للثياب لانه يدقها بالقصرة « بفتح الصاد » التى هى القطعـة من الخشب ، وحرفته القصاة » ٠ انظر لسان العـرب «قصر» ٠ ويبدو «الكو» كلمة غير عربية وهى المقابلة للقصرة او المقصرة التى هى خشـبة القصار ٠

(٥٣) الرزاز : بائع الارز ٠ المعجم الوسيط «رز» أو هو من قولك : رززت الباب أى أصلحت عليه الرزة ٠ أنظر : لسان العرب « رزز» ٠

(٥٤) الجصاص : صانع للجص « بفتح الميم وكسرها » وهو الذى يطلى به ٠ انظر : المرجع السابق «جصص» ٠

أصوات مجاذيف الملاحيين فهى سريعة ، وعلى هذا المثال تعتبر سرعة الأصوات وبطؤها باضافة بعضها الى بعض » (٥٥) .

والصوت الانسانى — باعتباره ضربا من الصوت العام — يتصف أيضا بالسرعة والبطء ، واذا كنا لا نلمح فى رسائل الاخوان شيئا يتصل بسرعة الصوت الكلامى وبطئه فاننا نرى علماء التجويد قد استطاعوا أن يحددوا بصورة عامة بعض أنماط من سرعات تلاوة القرآن الكريم على نحو ما يذكرون من تحقيق وحدر وتدوير وترتيل (٥٦) .

أما علماء اللغة فانهم لم يصلوا الى تلك الدرجة واكتفوا فى هذا المجال بالعبارات العامة والألفاظ ذات الدلالة الواسعة .

أما فى الحديث فقد درست سرعة الأصوات الكلامية تحت ما سمى بالتزمين أو سرعة الكلام The Tempo ، ويعنى بها توزيع زمن التكلم على أصوات المنطوق توزيعا يتفق مع نظام اللغة وقوانين الكلام فيها ، فينال كل صوت من أصوات المنطوق ما له من كم زمنى Duration (وهو تلك الفترة التى تستغرقها أعضاء النطق فى استجاباتها وتحركاتها لصنع الصوت المعين) .

وتتحدد السرعة المطلوبة للمنطوق تبعا لظروف الكلام والحالة النفسية للمتكلم . أى سرعة الكلام فانها تمثل تتابع تلك الفترات الزمنية التى تستغرقها سلسلة الأصوات فى المنطوق والموقف المعين ، ولهذه السرعة معدلاتها وأنماطها التى قبلها المجتمع اللغوى ، وعندما يخرج

---

(٥٥) انظر : رسائل أخوان الصفا جـ ١ /١٩٣ ، جـ٣/١٣٦ .

(٥٦) انظر : رسالة العالمية للباحث : التجويد القرآنى فى ضوء علم الصوتيات الحديث ص ٤٧٦ — ٤٧٩ .

المتكلم عن تلك المعدلات فان أداءه يكون محل سخط من المستمعين أو المخاطبين ويدخل بذلك فى دائرة الأداء المعيب •

ومن أجل ذلك كانت محاولات علماء الأصوات فى اللغات المختلفة لاستنباط النظم الترمينية وقوانين السرعات المختلفة للكلام(٥٧) •

رابعا : ادراك الصوت اللغوى :

تختص هذه المرحلة بدراسة أصوات اللغة بعد أن تنتقل من الأذن على هيئة ذبذبات واشارات كهربائية ••• الخ •

ويرى كثير من العلماء أن عملية ادراك الأصوات هى عملية نفسية ولكنها تخضع أيضا لعلم الأصوات السمعى ، اذ أنه بجانب دراسة لتلك العملية الادراكية النفسية يدرس أيضا تلك المرحلة العضوية أو الفسيولوجية المتمثلة فى الذبذبات الصوتية التى تستقبلها أذن السامع وآلية الجهاز السمعى ووظائفه عند استقبال هذه الذبذبات •

وقد جمع بعض العلماء هاتين المرحلتين تحت ما سمى بعلم الأصوات النفسى ، أو الادراكى مرجحين بذلك الجانب النفسى على الجانب العضوى بناء على أن العملية النفسية هى الأثر الواضح فى سلوك السامع عند ادراكه الأصوات(٥٨) •

وعلى أية حال فقد أهتم بدراسة هذه المرحلة بجانب علماء اللغة

---

(٥٧) انظر : د• عبدالعزيز علام : من الترمين فى نطق العربية الفصحى بمصر المعاصرة ١٨٤ ـ ٢٠٢ • رسالة دكتوراه بمكتبة كلية اللغة العربية بالقاهرة •

وانظر : Heffner : General phonetics PP. 204 - 212.

(٥٨) انظر : د• كمال بشر : علم اللغة العام : الاصوات ١٣

والأصوات ـ علماء النفس والمخ والأعصاب • وقد خطت تلك الدراسة خطوات أكيدة في الوقت الحاضر وتطورت تطورا هائلا ، ولا زال الاهتمام بها جاريا حتى تلحق بالتقدم الذي نالته فروع الدراسة الصوتية الأخرى ، على الرغم من الصعوبات الجمة التي تعترض طريق المتخصصين فيها ، ومن بين تلك الصعوبات احتواء تلك الدراسة على ميدان ينتظم عمليات نفسية معقدة لا تدخل في مجال البحث اللغوي بمعناه الاصطلاحي •

وتعتمد هذه الدراسة على اختبارات تقدم المثير وتتعرف على الاستجابة المقابلة ، ولذا لا ننتظر من اخوان الصفا أن يقدموا ما لم يسمح به التطور العلمي في أوانه ونرضى منهم في هذا الجانب بما أشاروا اليه وتحدثوا عنه لنقابله بما توصل اليه أحدث فروع الدراسة الصوتية •

ولكي نستخلص وجهة نظرهم في عملية الادراك اللغوي بصفة خاصة ، ونقارنها بما توصل اليه المحدثون ، نود أن نبرز نظرتهم الى وسائل الادراك في الانسان بصفة عامة :

اولا : اخوان الصفاء :

١ ـ وسائل الادراك :

لقد أسهب الاخوان في الحديث عن عملية الادراك الانساني بصفة عامة ، وأكدوا على العلاقة الوثيقة التي تربط الحواس الخمس بالدماغ (٥٩) ومكوناته ، وتعاونهما في تلك العملية • كما رأوا للقلب دورا في التمييز والفهم •

---

(٥٩) الدماغ هو حشو الرأس كما ذكر ابن منظور في لسان العرب

(أ) الحواس والدماغ :

فللنفس الساكنة فى الدماغ عشر قوى ، منها خمس حساسة تدرك صور المعلومات من خارج الجسد ، وتحملها الى القوى الخمس الأخرى التى تدرك رسوم المعلومات ادراكا روحانيا :

● **أما الخمس الأولى فيوضحها الاخوان فى قولهم :**

« اعلم أن الحواس هى آلات جسدانية ، وهى خمس : العين والأذن واللسان والأنف واليد ، وذلك أن كل واحد منها عضو من الجسد ، وأما القوى الحساسة فهى قوى روحانية نفسانية يختص كل منها بعضو من أعضاء الجسد ، وأما المحسوسات فالأشياء المدركة بالحواس ، والمدركة بالحواس هى أعراض حالة فى الأجسام الطبيعية مؤثرة فى الحواس مغيرة لكيفية مزاجها ، والحس هو تغيير مزاج الحواس عن مباشرة المحسوس لها ، والاحساس هو شعور القوى الحساسة لتغييرات كيفية أمزجة الحواس • بيان ذلك أن القوة الباصرة مجراها فى العينين ، وهى مستبطنة الصماخين حماية البطن المؤخر من الدماغ ، والقوة الشامة مجراها فى المنخرين ، وهى مستبطنة الخياشيم مما يلى البطن المقدم من الدماغ ، والقوة الذائقة مجراها الفم ، وهى مستبطنة فى رطوبة اللسان ، والقوة اللامسة مجراها فى عامة سطح بدن

=

دمغ • وقد جرت عادة الاطباء أن يطلقوا لفظ الدماغ على معان ثلاثة كما ذكر التهانوى : احدها : نفس المخ الذى داخل الحجب ، وهذا لا حس له • وثانيها : جميع القحف من المخ وغير ، وهذا له حس مما فيه من العصب • وثالثها : مجموع الرأس • انظر : كشاف اصطلاحات الفنون جـ ٢٧٨/٢ تحقيق د• لطفى عبد البديع • الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ١٩٦٩م ويبدو أن المعنى الثانى هو المقصود عند الاخوان •

الحيوان لرقيق الجلد ، ولكنها فى الانسان أظهر ، وخاصة فى الأنملة ، كما قيل : الانامل حاكمة البدن ، وهى مستبطنة فى الجلدين اللذين احدهما ظاهر البدن ، والآخر مما يلى » (٦٠) •

وتختص كل واحدة من تلك القوى بادراك جنس من المحسوسات ولا تشارك غيرها فى محسوساتها ، حيث ولت النفس — كما يقولون — كل قوة من هذه القوى ناحية من مملكتها لتأتيها بالأخبار من تلك الناحية من غير أن تشترك معها قوة أخرى : فالقوة السامعة تولت ادراك المسموعات ، وهى الأصوات على اختلاف أنواعها ، والباصرة تولت ادراك المبصرات على اختلاف أنواعها ، والشامة تولت ادراك الروائح والحكم عليها اذا كانت لذيذة أو كريهة ، والذائقة تولت ادراك الطعوم وأقسامه ، واللامسة تولت ادراك الملموسات بأنواعها (٦١) •

وتدرك القوى الشامة والذائقة واللامسة محسوساتها ادراكا جسمانيا بالماسة ، بينما تدرك القوتين السامعة والباصرة محسوساتها ادراكا روحانيا مطلقا (٦٢) • وقد شبه الاخوان حالة هذه القوى الخمس مع النفس بأولى العزم من الرسل ، مرسلهم واحد ، وشرائعهم مختلفة ، وتحت كل شريعة أحكام متباينة (٦٣) •

ورأوا أن تلك القوى هى أول قوى النفس التى ينال الانسان بها

---

(٦٠) انظر : رسائل اخوان الصفا جـ٢/٣٨٩ — ٤٠١ — ٤٠٢ • وقد عقدوا لكل قوة فصلا مستقلا يبين كيفية ادراكها المحسوسات انظر : جـ٢/٤٠٣ — ٤٠٩ •

(٦١) انظر : المرجع السابق جـ٢/٤٦٨ — ٤٧١

(٦٢) انظر : المرجع السابق جـ٢/٤٠٦ — ٤٠٧

(٦٣) انظر : المرجع السابق جـ٢/٤٧٠ — ٤٧١

العلوم والمعارف (٦٤) . كما رأوا أن كل قوة من تلك القوى تسمى نفسا لذلك العضو المختصة به ، فالقوة الباصرة تسمى نفس العين ، والسامعة نفس الأذن ، والذائقة تسمى نفس اللسان ، والشامة تسمى نفس الأنف (٦٥) .

● أما القوى الخمس الثانية فهى :

القوة المتخيلة التى مجراها مقدم الدماغ ، والمفكرة أو العاقلة التى مجراها وسطه ، والحافظة التى مجراها مؤخرة ، والناطقة المخبرة عنها معانى ما فى فكرها من العلوم والحاجات ، ومجراها فى الحلقوم الى اللسان ، وقوة اظهار الكتابة والصنائع ، ومجراها اليدين والأصابع (٦٦) .

وتتعاون هذه القوى فى تناولها صور المعلومات بعضها من بعض عقب وصولها — عبر القوى الخمس الحساسة الأولى — الى القوة المتخيلة ، ويوضح الاخوان هذا التعاون فى قولهم :

« وأما القوى الخمس الروحانية فانها كالمتعاونات فى ادراكها رسوم المعلومات ، وذلك أن القوة المتخيلة اذا تناولت رسوم المحسوسات كلها وقبلتها فى ذاتها كما يقبل الشمع نقش الفص ، فان من شأنها أن تناولها كلها الى القوة المفكرة من ساعتها ، فاذا غابت المحسوسات عن مشاهدة الحواس لها بقيت تلك الرسوم مصورة صورة روحانية فى ذاتها كما يبقى نقش الفص فى الشمع المختوم مصورا بصور روحانية مجردة عن هيولاها فيكون عند ذلك لها كالهيولى وهى فيها

---

(٦٤) انظر : المرجع السابق ج ٣/٤٠٤

(٦٥) انظر : المرجع السابق ج ٢/٣٨٧ ، ٤١٠

(٦٦) انظر : المرجع السابق ج ٢/٤١٤ — ٤١٥ ، ٤٧١ — ٤٧٢ ، ج ٣ /٢٤١ — ٢٤٢

كالصورة•ثم ان من شأن القوة المفكرة أن تنظر الى ذاتها وتراها معاينة، وتتروى فيها وتميزها عن خواصها ومنافعها ومضـــارها ثم تؤديها الى القوه الحافظة لتحفظها الى وقت التذكار • ثم ان من شأن القوة الناطقة التى مجراها على اللسان اذا آرادت الاخبار عنها والانباء عن معانيها والجواب للسائلين عن معلوماتها ألفت لها ألفـــاظا من حروف المعجم، وجعلتها كالسمات لتلك المعانى التى فى ذاتهـــا ، وعبرت عنها للقـــوة السامعة من الحاضرين • ولما كانت الأصوات لا تمكث فى الهواء الا ريثما تأخذ المسامع حظها ثم تضمحل ، احتالت الحكمة الالاهية بأن قيـــدت معانى تلك الألفاظ بصناعة الكتابة • ثم ان من شأن القوة الصانعة أن تصوغ لها من الخطوط والأشكال بالأقلام وتودعها وجوه الالواح وبطون المطامير ليبقى العلم مفيدا فائـــدة من الماضيين للغابرين وخطـــابا من الغائبين للحاضرين » (٦٧) •

ولما كانت القوة المتخيلة فى مقدمة الدماغ هى أول مركز فيه يتأثر بالحواس الخمس وبتلك القوى الحساسة المتقدمة فقد عقد الاخـــوان فصلا فى رسالة الحاس والمحســـوس خصصوه لكيفيـــة وصـــول آثار المحسوسات الى تلك القوة المتخيلة قائلين :

« انه ينتشر من مقدم الدماغ عصبات لطيفة لينة تتصل بأصـــول الحواس ويتفرق هناك وتنسج فى أجزاء جرم الدماغ كنسج العنكبوت، فاذا باشرت كيفية المحسوسات من أجزاء الحواس وتغير مزاج الحواس عندها وغيرتها عن كيفياتها وصل ذلك التغيير فى تلك الأعصاب التى فى مقدم الدماغ والتى منشؤها من هناك كلها فتجتمـــع آثار المحسوسات،

---

(٦٧) انظر : المرجع السابق جـ ٢ ، ٤١٤ ــ ٤١٥ ، ٤٧١ ــ ٤٧٢
والرسالة الجامعة جـ١ /٦٠٥ ــ ٦٠٦ ، ٧٠١ ــ ٧٠٢

عند القوة المتخيلة كما تجتمع رسائل أصحاب الأخبار عند صاحب الخريطة فيوصل تلك الرسائل كلها الى حضرة الملك ، ثم ان الملك يقرؤها ويفهم معانيها ثم يسلمها الى خازنه ليحفظها فيحفظها الى وقت الحاجة . فهكذا حكم القوة المتخيلة اذا اجتمعت عندها آثار هذه المحسوسات التى أدت اليها القوة الحساسة ، دفعتها الى القوة المفكرة التى مسكنها وسط الدماغ لتنظر فيها وترى فى معانيها وتعرف حقائقها ومضارها ومنافعها ، ثم تؤديها الى القوة الحافظة لتحفظها وقت التذكار » (٦٨) .

وقد أسهب الاخوان فى الحديث عن تلك القوة المتخيلة ، فنراهم يعقدون فى الرسالة الخاصة بالآراء والديانات فى العلوم الناموسية الالاهية والشرعية ثلاثة فصول فى بيان تلك القوة وعجائبها وفضائلها (٦٩) ، ومن أهم ما نخرج به من تلك الفصول :

١ ــ أن تلك القوة تتناول رسوم سائر المحسوسات جميعا وتتخيلها بعد غيبة المحسوسات عن مشاهدة الحواس لها .

٢ ــ أن تلك القوة تتخيل وتتوهم ما له حقيقة ، وما لا حقيقة له بعد أن عرف بسائطها بالحس .

٣ ــ أن تلك القوة تعجز عن تخيل شيء لم تؤد اليه حاسة من الحواس . وقد وضحوا هذا بقولهم : « وذلك أن كل حيوان لا بصر له فهو لا يتخيل الألوان وما لا سمع له فلا يتخيل الأصوات ولا يتوهمها ، لأن التخيل أبدا فى تصوره للأشياء تبع للادراك الحسى . والعقلاء فى

---

(٦٨) انظر : المرجع السابق جـ٢/٤١١ .

(٦٩) انظر : المرجع السابق جـ٣/٤١٦ ــ ٤٢٠ .

استنباطها تبع الدليل النفسى ، فأما الانسان فانه لما كان يفهم الكلام أمكنه أن يتخيل المعانى اذا وصفت له » .

٤ — أن الناس متفاوتو الدرجات فى هذه القوة تفاوتا بعيدا جدا ، اذ قد يكون الصبى أسرع تصورا لما يسمع ، وأجود تخيلا لما يوصف له ، وقد يعجز العالم العاقل المرتاض فى العلوم والآداب عن تصور أشياء كثيرة قد قامت الحجة والبراهين على صحتها . وقد أرجعوا هذا التفاوت الى اختلاف تركيب الأدمغة واعتدال الأمزجة أو فسادها .

وقد شبهوا وظيفة القوة المتخيلة بالنسبة للقوة المفكرة (العاقلة) «بصاحب خبر ملك يأتى بالأخبار اليه من ناحية من نواحى مملكته»(٧٠)

أما القوة المفكرة أو العاقلة التى تتمركز فى وسط الدماغ فتعبر القوة الرئيسة من بين تلك القوى ، وقد شبهها الاخوان بالملك بين الجنود والأعوان والخدم والرعية ، وبالقاضى بين الخصماء ودعاويهم : يقولون :

« اعلم أن القوة المفكرة التى مسكنها وسط الدماغ من بين هذه القوى كالملك ، وسائرها لها كالجنود والأعوان والخدم والرعية ، ينصرفون بأمرها ونهيها فيما يفعلون فى أعضاء الجسد من الحركات ، وما يظهرون من الصنائع والأعمال ، وأن موضعها من بين مواضع سائر القوى فى أشرف عضو من الجسد ، وأخص مكان فيه ، كما أن دار الملك فى أشرف مدينة من بلدان مملكته ، وفى أجل موضع من المدينة وفى أشرف بقعة منها .واعلم يا أخى أن أفعال هذه القوى الخمس أشرف وأكرم من أفعال سائر القوة ، وقد بينا فى رسالة الحاس والمحسوس أن القوة

---

(٧٠) انظر : المرجع السابق جـ٢/٤٦٩

المتخيلة التى مسكنها مقدم الدماغ نسبتها الى القوة المفكرة بما تجمع اليها من أخبار المحسوسات كنسبة صاحب الخريطة الى الملك ، ونسبة القوة الحافظة التى مسكنها مؤخر الدماغ ، ونسبتها الى المفكرة كنسبة الخازن الحافظ ودائع الملك ، ونسبة القوة الناطقة التى مجراها على اللسان الى المفكرة كنسبة الحاجب والترجمان الى الملك ، ونسبة القوة الصانعة التى مجراها اليدان والأصابع الى المفكرة كنسبة الوزير المعين له فى تدبير مملكته ، أو المساعد له فى سياسته لرعيته »(٧١) •

واذا كانت تلك القوة المفكرة ــ أو العاقلة كما يسمونها ــ بمثابة الملك الذى تعاونه بقية القوى على النحو السابق ، فان لها وظيفة أخرى ــ فى نظر الاخوان ــ تختص بها وهى « الفكر والروية والتمييز والتصور والاعتبار والتركيب والتحليل والجمع والقياس البرهانى والفراسة والزجر والتكهين والخواطر والالهام والوحى ورؤية المنامات وتأويلها » (٧٢) •

وبناء على هذه الوظيفة يعرف العقل ، حيث يشير به جمهور الناس الى أنه قوة من قوى النفس الانسانية التى فعلها التفكر والروية والنطق والتمييز والصنائع وما شاكلها (٧٣) • ونقل ابن منظور فى تعريف العقل أنه « التمييز الذى به يتميز الانسان من سائر الحيوان » (٧٤) •

وكما يتفاوت الناس فى القوة المتخيلة فانهم يتفاوتون أيضا فى درجات عقولهم ، وقد أرجع الاخوان هذا التفاوت الى ما يلى (٧٥) :

---

(٧١) انظر : المرجع السابق جـ٣/٢٤٢.
(٧٢) انظر : المرجع السابق جـ٣/٤٢١
(٧٣) انظر : المرجع السابق جـ٣/٢٣٢ •
(٧٤) انظر : لسان العرب : «عقل» •
(٧٥) انظر : المرجع السابق جـ ٣/٤٢٥ ـ ٤٢٦ •

١ ــ اختلاف طبائع الناس •

٢ ــ خواص جواهر نفوسهم التابعة فى اظهار أفعالهم لأمزجــة أبدانهــم •

٣ ــ كثرة غرائب علومهم ومعارفهم التى لا يمكن أن يحويها كلها انسان واحد •

٤ ــ اختلاف صنائعهم وتصاريفهم فى طلب معاشــهم وأحــكام تدبيرهم فى سياستهم ، وهى كثيرة لا تحصى ، ولا يمكن أن ينهض بهــا كلها انسان واحد •

٥ ــ اختلاف أخلاقهم المتضــادة فى الحسن والقبــح ومجارى عاداتهم بين الجودة والرواءة •

٦ ــ نشوؤهم على اختلاف سنن دياناتهم وتباين مذاهب آبائهم وآراء أستاذيهم ومعلميهم •

ونظرا لأن القوتين الناطقة والكاتبة يأتى دورها بعد بقية القوى ، فقد رأى الاخوان أن القوى الثمــانى الأخرى (اللامسة والذائقــة والشامة والسامعة والباصرة ، والمتخيلة والمفكرة والحافظة) هى المعول عليهــا فى عمليــة الادراك وســموها القوى العــلامة أو الداركــة للمعلومات (٧٦) ، وبخاصة قوة الفكر والسمع والبصر التى تعد الطرق التى ينال الانسان بها العلوم (٧٧) •

وأكد الاخوان تفاوت الناس تفاوتا بعيدا فى درجات تلك القوى الدراكة ــ بين الجودة والرداءة ، وقد أرجعوا هذا التفاوت الى اختلاف

(٧٦) انظر : المرجع السابق ج٣/٤٠٤ ، ٤٠٥ ، ٤٠٨

(٧٧) انظر : المرجع السابق ج٣ / ١٣، ٤١٤ •

أدوات تلك القوى ، واختلاف آلاتها فى الجودة والرداءة (٧٨) ، مما يترتب عليه اختلاف الناس فى ادراك المحسوسات والمعقولات والالاهيات المبرهنة (٧٩)

وقد نسب الاخوان الى تلك القوى الدراكة مجموعة من الخصال ، ويمكن اجمالها فيما يلى (٨٠) •

١ ـ من هذه القوى تكون معارف الحيوان كلها •

٢ ـ من تعاون أدوات هذه القوى بالمعاونات اللائقة تزيد فى قواها ، ومن تفاوتها اختلاف معارفها فى الجودة والذكاء أكثر وأقل • .

٣ ـ هى الأصل فى جميع العلوم والمعارف •

٤ ـ من تفاوت افعال هذه القوى يكون أكثر أختلاف الناس فى معلوماتهم ومنازعات العلماء فى آرائهم ومذاهبهم •

وتؤدى تلك القوى الدراكة وظيفتها شريطة أن تكون سليمة من الآفات العارضة وألا يعرض لها عائق يعوقها (٨١) •

---

(٧٨) انظر : المرجع السابق ج٣/٤٠٥ • .

(٧٩) انظر : المرجع السابق ج٣/٤٠٢ ـ ٤٠٤ • والمعقولات هى رسوم المحسوسات التى أدتها الحواس الى القوة المتخيلة اذا بقيت فى الأوهام بعد غيبة المحسوسات عن مباشرة الحواس لهما والالاهيات المبرهنة هى أشياء لاتدركها الحواس ولاتتصورها الاوهام ، ولكن الدليل والبراهين الصادقة باعثة للعقول الى الاقرار بها والقبول لها •

وقد ذكر الاخوان سببين اخرين فرعيين لاختلاف الناس فى تلك الامور ، وهما دقة المعانى ونظافتها ، وفنون الطرق المؤدية اليها الاسباب المعنية على ادراكها •

(٨٠) انظر : المرجع السابق ج٣/٤٠٧ •

(٨١) انظر : المرجع السابق ج ٣/٤٠٥ ـ ٤٠٧ حيث فصلوا القول فيما يعرض لتلك القوى من آفات •

كما تعتمد تلك القوى الدراكة بعضها على بعض فى القيام بدورها فى عملية الادراك ، فاذا ما تعرضت الحواس الخمس لآفة من الآفات فان ذلك يؤثر على القوى المتخيلة والمفكرة والحافظة فى الدماغ مما يترتب عليه فقد القدرة على ادراك المحسوسات والمعقولات والأمور المبرهنة . يقول الاخوان :

« فكل ما لا تدراكه الحواس بوجه من الوجوه لا تتخيله الأوهام . وما لا تتخيله الأوهام لا تتصوره العقول ، واذا لم يكن شىء معقول فلا يمكن البرهان عليه ، لأن البرهان لا يكون الا من نتائج مقدمات ضرورية مأخوذة من أوائل العقول ، والأشياء التى هى فى أوائل العقول انما هى كليات أنواع وأجناس ملتقطة من أشخاص جزئية بطريق الحواس ، والدليل على ذلك الصبى ، لولا أنه قدر أن عشر جوزات أكثر من خمس ، أو خشبة طولها عشرة أذرع أطول من أخرى لها ستة أذرع ، فمن أين كان يمكنه أن يعلم أن الكل أكثر من الجزء ، وعلى هذا القياس حكم سائر المعقولات فانها مأخوذة أوائلها من الحواس ، والدليل على ذلك أيضا أنك تجد من كان أكثر محسوسات ، ولها أكثر تأملا ، وللمتخيلات أجود اعتبارا فان الأشياء المعقولة عنده أكثر عددا ، ونفسه لها أكثر تحققا ، فقد تبين بما ذكرنا أن الأشياء المعقولة ليست بشىء سوى رسوم المحسوسات الجزئية الملتقطة بطريق الحواس من الأشخاص ، مجموعة فى فكر النفس المسمى أنواعا وأجناسا ، وأن العقل للانسان — اذا تبين — ليس هو شيئا سوى النفس الناطقة اذا تصورت رسوم المحسوسات فى ذاتها ميزت بفكرها بين أجناسها وأنواعها وأشخاصها ، وعرفت جواهرها وأغراضها ، وجربت أمور الدنيا واعتبرت تصاريف الأيام بين أهلها . ثم اعلم أن كل من كان أكثر تأملا للمحسوسات ، وأدق نظرا فى أمور الموجودات ، وأجود بحثا عن

الخفيات ، وأكثر تجارب للأمور الحنيوية ، وأحسن اعتبارا لأهلها كان أرجح عقلا من أبناء جنسه ، وأكثر علما من أهل طبقته » (٨٢) ٠

وقد ميزوا بين نوعين من العقل : أحدهما غريزى والآخر مكتسب « فأما الغريزى فيحصل للانسان بعد تأمله للمحسوسات ، وأما المكتسب فكل من كان أكثر تأملا للمحسوسات وأصفى نفسا كان أعقل » (٨٣)٠

وقد أكدوا أهمية الحواس لبقية القوى الدراكة فى مواضع أخرى عديدة ومن ذلك قولهم : « كل حيوان لا يبصر لا يتخيل الألوان العرضية والأجسام الجوهرية ، وما لا سمع له لا يتصور ولا يتخيل الأصوات الكلامية ، ولا يتوهم الألفاظ المنطقية ، فأما الانسان الصحيح التركيب السالم الحواس فانه لما كان يفهم الكلام صار يمكنه أن يتخيل المعنى اذا وصف له » (٨٤) ٠

(ب) القلب :

للقلب — فى نظر الاخوان — دور فى عمليتى التمييز والفهم ، ولكنهم ترددوا فى رتبة هذا الدور : فمرة يرونها بعد دور مراكز الدماغ ، ومرة أخرى يرونها العكس :

يقولون عن دور القلب ، قبل الدماغ :

« اعلم أن منتهى كل حاسة الى القلب مقرها ، وعنده موئلها ، ولكل حاسة محسوسة مختصة بها ، مجعولة لها ، لا تتعداها ، ولا تتعرض لسواها ، فالبصر مختص بالنظر ، والأذن مختصة بالسمع ، والفم

---

(٨٢) انظر : المرجع السابق جـ٣/٣٢٤ ـ٣٢٥

(٨٣) انظر : المرجع السابق جـ٣/٤٦٦

(٨٤) انظر : المرجع السابق جـ ٣/٣٠٨ ، ٤٢٢ ، ٤٢٣

مختص بالذوق ، والأنف مختص بالشم ، وكل حاسة من هذه الحواس تؤدى محسوساتها الى القلب ، ويفهم منها حاسة القلب ، ثم ان قوة حاسة القلب اذا أدركته من الحواس شيئا وقبلته منها أدته الى العقل ليدركه ، ولولا قوة حاسة القلب لبطلت هذه الحواس ، كما أن الأكمه الذى يولد كذلك لا يمكنه أن يتصور السماء ولا موضعها من الجهات ، لأنه لم ير جهة فتؤديها الحاسة الناظرة الى حاسة القلب المناسبة لها ، لأن حاسة البصر تؤدى آثار محسوساتها الى قوة عاقلة مناسبة لهـا ، حافظة لما يؤدى اليها ، ولذا قال تعالى « فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي فى الصدور » ، وقد بينا فى رسالة الحاس والمحسوس شيئا من هذا بغير هذا الشرح • ثم اعلم أن القلب فى الجسد مصور على صورة الانسان ؛ ولذا صار أفضل الأعضاء التى فى أجسام الحيوان ، وذلك أن له بصيرة يبصر بها ما غاب من حاسة النظر من خارج ، وله مسامع يدرك بها الأصوات ويؤدى الى حاسة السمع ما يدركه بها ، وله حاسة اللمس فهو يتشوق الى محسوساتها اذا فقدها مثل ما يشتاق العاشق عناق معشوقه والتزامه » (٨٥) •

ونراهم مرة أخرى يرون دوره بعد الدماغ قائلين :

« فمن كان حاضرا فى ذلك الموضع [الذى صدر منه الصوت] أو بالقرب منه من الحيوان سمع ذلك الصوت فبلغ ذلك التموج الذىجرى فى الهواء الى مسامعه ودخل صماخه ، وتحرك الهواء المستقر فى عمق الأذنين بحسب القوة السامعة بذلك التموج ، والحركة التى تنتهى الى مؤخر الدماغ ، ثم يقف فلا يكون له مخرج ، فيؤديه الى الدماغ ، ثم يؤديه الدماغ الى القلب ، فيفهم القلب من هذه الحاسة ما أدته اليه من ذلك الحادث ، فان كان صوتا مفهوما يدل على معنى توجهت المعرفة

---

(٨٥) انظر : المرجع السابق ج ٣/١٠٥ ـ ٢٠٦

بذلك ، وان كان غير مفهوم فانه لابد أن يستدل بصفاء جوهره على ذلك الصوت ، ومن أى جوهر حدث ، وعن أى حركة عرض ، وهو يستدل على ذلك من ماهية الصوت وكيفية التموج والقرع والحركة الواصلة الى حاسة السمع • ومثال ذلك طنين الطاس فانه اذا سمعه الانسان قال : هذا طنين الطاس حدث من قرع شىء آخر أصابه اما من جهة حيوان أو حدوث شىء وقع عليه من غير قصد ولا تعمد ، وكذلك صوت الحديد والذهب والفضة وغير ذلك فان أصواتها اذا حدثت تكون مختلفة بحسب اختلاف جواهرها وتباين طباعها من الصلابة والرخاوة واللين واليبوسة ••• » (٨٦) •

ومما يؤكد هذا الدور قولهم فى موضع آخر :

« الدماغ فى بدن الانسان ملك الجسد ، ومنشأ الحواس ، ومعدن الفكر ، وشعبة الروية ، وخزانة الحفظ ، ومسكن النفس ، ومجلس محل العقل ، وأن القلب خادم للدماغ ومعينه فى أفعاله ، وان كان هو أمين الجسد ، ومدير البدن ، ومنشأ العروق الضوارب ، وينبوع الحرارة الغريزية » (٨٧) •

٢ ـ الادراك الذهنى :

يمكننا من خلال تصور الاخوان السابق لعملية الادراك الانسانى بصفة عامة أن نتصور عملية ادراك الكلام وأصواته باعتباره حلقة من حلقات عملية التواصل بين المتكلم والمستمع ، اذ يرتبط الجانب الادراكى فى هذه العملية بالجوانب الفسيولوجية والفيزيائية والسمعية

---

(٨٦) انظر : المرجع السابق ج٣/١٠٣.
(٨٧) انظر : المرجع السابق ج٢ /١٨٩ ـ ١٩٠

التى تحدثنا عنها • ويمكن الاستعانة ببعض النصوص المتقدمة وغيرها فى توضيح تصور الاخوان الادراك اللغوى :

فعندما يصدر المخ أوامره لجهاز النطق ـ الذى تربطه به حركات خاصة بالكلام ـ بعملية تقطيع الأصوات فى حالتى الافراد والتركيب ، تنتقل هذه الأصوات عبر الهواء الى أذن المستمع (أو قوته السامعة) لتؤديه الى القوة المتخيلة فى مقدم الدماغ التى تنقله بدورها الى القوة المفكرة فى وسط الدماغ لتنظر فيه وترى فى معانيه وتعرف حقائقه ومضاره ومنافعه ثم تؤديه الى القوة الحافظة فى مقدم الدماغ لتحفظه الى وقت الحاجة والتذكار • ثم ان من شأن القوة الناطقة اذا استعانت بها القوة المفكرة فى النيابة عنها فى الجواب والخطاب أن تؤلف ألفاظا من حروف المعجم بنغمات مختلفة السمات التى هى الكلام فتدفعها عند ذلك الى القوة المعبرة لتخرجها الى الهواء بالأصوات المختلفة فى اللغات لتحملها الى مسامع الحاضرين بالقرب ، فتكون تلك الألفاظ المؤلفة من الحروف المختلفة الأشكال والسمات كالأجساد المركبة من الأعضاء المختلفة ، وتكون تلك المعانى المضمنة فى تلك الألفاظ كالأرواح لها ، لأن كل لفظة لا معنى لها فهى بمنزلة جسد لا روح فيه • ثم ان من شأن القوة الصانعة أن تصوغ لتلك الألفاظ من الخطوط والأشكال بالأقلام وتودعها وجوه الالواح وبطون المصاحف ليبقى المعلم مفيدا فائدة من الماضين للغابرين ، وخطابا من الغائبين للحاضرين (٨٨) •

والناس يتفاوتون فى القوة السامعة كما يتفاوتون فى بقية القوى كما سبق ، وهو الأمر الذى يؤدى الى تفاوتهم فى ادراك الأصوات

---

(٨٨) انظر : المرجع السابق جـ٢/٤١٤ ـ ٤١٥ ـ جـ٣/ ٢٤٣ ـ ٢٤٥ •

« وذلك أن منهم من يكون جيد السمع يسمع الأصوات الخفية ، ويميز بين النغمات الموزونة والمزحفة ، ومنهم من يحتاج من ذلك الى مفاعيل العروض ، ومنهم من لا يحس بشيء من ذلك » (٨٩) •

وقد أكد الاخوان أهمية السمع حين عدوه الطريق الذى تقبل به النفس معانى اللغات وما تدل عليه الأصوات من الأخبار الغائبة (٩٠) •

وقد سبق أن نقلنا عن الاخوان قولهم « وما لا سمع له لا يتخيل الأصوات ولا يتوهمها لأن التخيل أبدا فى تصوره للأشياء تبع للادراك الحسى » • وقولهم : « وما لا سمع له لا يتصور ولا يتخيل الأصوات الكلامية ، ولا يتوهم الألفاظ المنطقية » •

واذا كانت عملية ادراك اللغة المنطوقة تتوقف على السمع ودرجة جودته فان عملية ادراك اللغة المكتوبة تتوقف أيضا على البصر وجودته، يقول الاخــوان :

اعلم أن الانسان مع استماعه الأصوات وتمييزه بالنغمات يفهم معانى اللغات والأقاويل والكلمات ، كما أنــه عند نظره الى الخطوط والكتاب يفهم ما يتضمنها من معانى الكلام والعبارات ما لا يفهم عليها غيره من الحيوانات • ثم اعلم أن من هاتين الطريقتين أكثر معلومات الانسان التى ينفرد بها دون سائر الحيوانات » (٩١) •

وقد رأى الاخوان أن الدماغ بما فيه من مراكز ادراك يستطيع أن يميز بين الصوت الانســان ذى الدلالة والمعــان العلنية ، وبين الأصوات الحيوانية الأخرى ، التى تريد بأصواتها دفع المضار وجذب المنافع بدافع غريزى ، وبين الأصوات الألية لحركة الانســان كصوت

(٨٩) انظر : المرجع السابق جـ٣ /٤٠٥ •
(٩٠) انظر : المرجع السابق جـ٣/١٣ ، ٤١٤ •
(٩١) انظر : المرجع السابق جـ٣/١٣٠ ـ ١٣١ •

البوق والزمر والعود وما شـــاكل ذلك ، وبين الأصـوات الطبيعية ، اذ يقولون ا.

« ولكل صوت عند الحاسة السامعة كيفية وماهية : فماهية صوت الانسان أنه غرض مفهوم دال على معنى ، فتحتاج القوة المفكرة الى أن تفكر فيه وتفتش عن معناه ، وأصوات الحيوانـات غير مفهومة ، لكن القوة المفكرة تقضى عليها أنها ما صوتت الا لحاجة ، وما أرادت به الا سبب أكل وشرب ونكـاح ، فهذه الأقســام من الصوت مختصة بالأجسام الحية • فأما صوت الحجـارة والخشب فان القوة المفكرة لا تقضى عليها بأنها ما بدت لغرض ولا لقصد الا أن تكون آلية لحركة الانسان مثل البوق والزمر والعود وما شاكل ذلك ، وأنها تنسبها الى الحركة التى كانت هى السبب فى تصويتها مثل بوق ومزمـار وعــود وصفارة وما شاكل ذلك • وكل هذه الأصوات انسانية أودعتها النفس للجزئية هذه الأشــكال النباتية بالصــناعة التى اتخذتها حيلة للمعاش والكسب • وأما صوت هبوب الرياح والرعد وخرير الماء اذا انحـدر من علو الى أسفل ، واضطراب موج البحار واهتزاز الأشـجار ؛ فان القوة المفكرة لا تعبـأ بذلك ولا تفكر فيه ، وانما تمر على الحاســـة السامعة شبه الخوار ولا حاجة اليه ، وربما ضجر الانسان منه وتأذى من مداومة سماعه »

وبعد أن عرفنا تصور الاخوان لعملية الادراك اللغوى من خلال تصورهم للادراك بصفة عامة ننتقل الى تصور المحدثين لتلك العملية ، ومدى موافقتهم أو مخالفتهم لتصور الاخوان •

ثانيا : التصور الحديث

من المعلوم فى العلم الحديث أن المخ أســاس العمليات المعرفية والنفسية والسلوك والادراك والتـذكر والتفكير • ويتم كل هذا من خلال وظيفة مركبة مكتملة التنظيم تحتـوى على اثنا عشر بليونا من

الخلايا العصبية التى تشكل فى مجموعها ما يسمى المخ البشرى •

وسوف نلقى الضوء ـ بايجاز ـ على الوظيفة اللغوية للمخ من خلال نظرة مبسطة لأجزاء الجهاز العصبى (٩٣) •

ان الجهاز العصبى يعمل بصورة متكاملة ومترابطة ، وحتى يسهل دراسته قسم الى نظامين : عصبى فرعى ، وعصبى مركزى •

أما النظام الأول فيتكون من مجموعة كبيرة من الحزم المحتوية على آلاف من الأعصاب أو الألياف التى تربط النظام العصبى المركزى بجميع أجزاء الجسم •
وتنقسم هذه الألياف وظيفيا الى نوعين : حسية ومحركة ، أما الألياف الحسية فتختص بنقل الحوافز الناتجة عن المثيرات الخارجية : مثل استجابة العصب السمعى للحركة التى تحدث بوساطة الخلايا الشعرية فى عضو (كورتى) فى الأذن الداخلية • أما الألياف المحركة فانها تقوم بنقل الحافز العصبى من النظام المركزى الى أجزاء الجسم حيث تقوم بتحريك العضلات أو تنظيم افرازات الغدد •

أما النظام المركزى فيشتمل على المخ ، ويقع فى قاعه ساق تربطه بالحبل الشوكى الذى يوصل الحوافز العصبية من المخ واليه ، ويستجيب تلقائيا للأفعال المنعكسة • وتسمى النهاية العليا لهذا الحبل بالنخاع المستطيل الذى يحتوى على مجموعات من الخلايا المتحكمة فى بعض الوظائف الحيوية مثل التنفس فى الدورة الدموية : كما تحتوى على توصيلات لنقل الحوافز العصبية الى مناطق المخ العليا •

---

(٩٢) انظر : المرجع السابق جـ٣/٤١٢ ـ ٤١٣

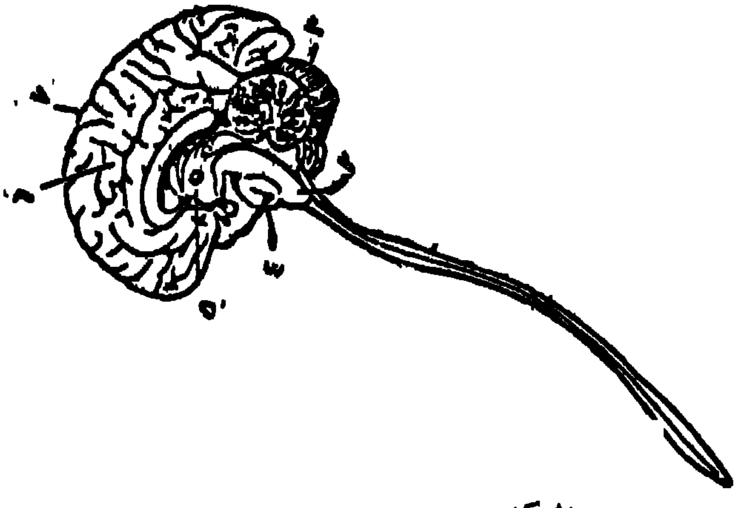
(٩٣) ينظر هذا بالتفصيل : د• سعد مصلوح : دراسة السمع والكلام ٣٠٠ ـ ٣١٥ ، د• محمد حسن عبد العزيز : مدخل الى اللغة ٦٠ ـ ٧٠ ـ ط القاهرة ١٩٨٢م

وتحت المخ يقع « المخيخ » وهو مقسوم الى شقين مثل المخ كما سيأتى ، وهو يعتبر المسئول عن توازن الجسم •

أما المخ فيقع تحت الجمجمة ، ويتكون من اثنى عشر بليونـا من الخلايا العصبيه التى تمثل مادة المخ الرمادية ، وتكون سطح المخ أو ما يسمى لحاء المخ • كما يشتمل المخ أيضا على بلايين من الأليـاف التى تربط تلك الخلايـا بعضها ببعض ، وتقع تحت اللحاء مباشرة ، وتمثل مادة المخ البيضاء •

ولحاء المخ هو المسئول عن اتخـاذ القرارات فى الجسم ، حيث يتلقى الرسائل من الأعصاب الحسية ، ثم يقوم بتصنيفها وتفسيرها ، ثم يصدر تعليماته بوساطة الأعصـاب المحركة الى خلايا الاسـتجابة لتقوم برد الفعل الملائم ، وان كان من الممكن تولد النشاط — وبخاصة النشاط الذهنى — داخل المخ دون حـاجة الى مثير خارجي مباشر •

والشكل الآتى يوضح أجزاء النظام العصبى المركزى (٩٤) :



النظام العصبى المركزى

١ — الحبل الشوكى ٢ — النخاع المستطيل ٣ — المخيخ
٤ — جسر المخيخ ٥ — التلموس ٦ — نصف كرة المخ ،
٧ — لحاء المخ

---

(٩٤) انظر : د• سعد مصلوح : دراسة السمع والكلام ص ٣٠٠

وقد كان علماء النفس واللغة يرون ـــ منذ وقت غير طويل ـــ أن التفكير والتعبير هما وظيفة المخ بأجمعه ، وأنه لا يمكن تحديد منطقة بعينها باعتبارها مسئولة لوحدها عن اللغة ، ولكن البحوث الجارية أخذت تحدد بعض المناطق التى يمكن أن تعتبر مسئولة عن قسم من الوظائف اللغوية .

ومما هو متفق عليه فى هذه الآونة أن مخ الانسان ينقسم الى شقين : أيمن وأيسر ، ويفصل بينهما أخدود عميق يسمى بالشق الطولى ، ويقابل كل منهما الآخر ، وفى كل شق أربعة فصوص : أمامى (جبهى) ، ويقع فى الجزء الأمامى من الدماغ ، وخلفى (جدارى) ، ويقع فى الجزء الخلفى ، فى الجهة العليا من الدماغ . وصدغى ، يمتد الى الخلف حتى الفص القفوى ، وقفوى ، يقع فى المؤخرة الى الجهة السفلى من الدماغ ، ويعد أصغر الفصوص (٩٥) .

وتتصل الفصوص الأربعة بعضها ببعض بواسطة مسالك ، كما أن شقى الدماغ يتصلان أيضا بواسطة مجموعة من الخلايا ما يسمى بالقرن الأعظم أو الجسم الجاسىء .

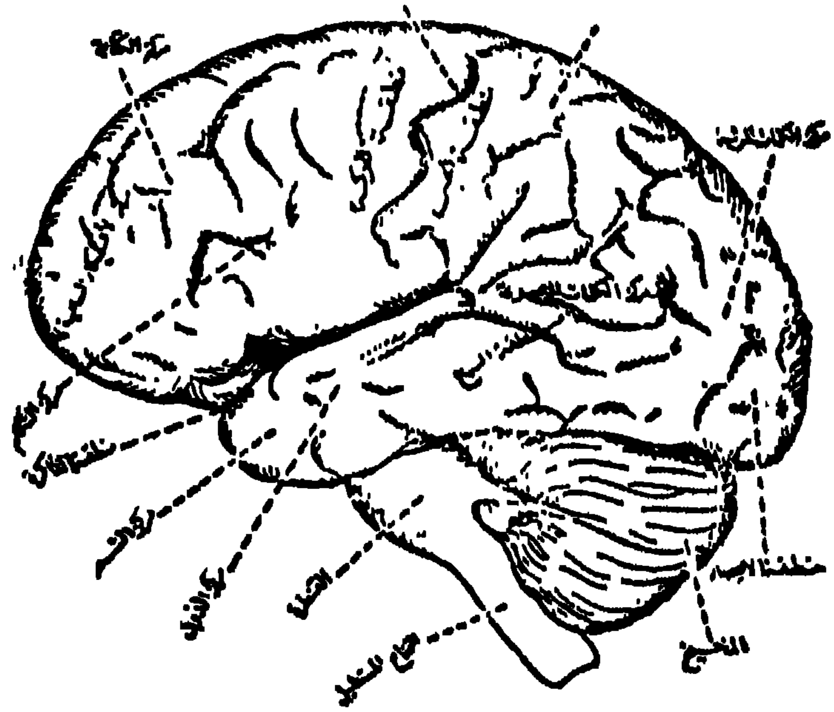
والشكل الآتى يبين مواقع تلك الفصوص والمراكز الحسية فيها (٩٦) .

---

(٩٥) انظر : المرجعين السابقين ، د. موفق الحمدانى : اللغة وعلم النفس ٦٨ ـ ٧٠ ط بغداد ١٩٨٢م

(٩٦) انظر : د. مصطفى فهمى : امراض الكلام ٢٣ . الطبعة الرابعة مكتبة مصر .

المخ



واذا كانت الدراسة الحديثة أكدت أن الجهاز العصبى متماثل بشكل عام — أى أن ما هو موجود فى الشق الأيمن موجـود أيضا فى الشق الأيسر ، فقد أكدت أيضا أن هذين النصفين ليسا متساويين ولا متشابهين من الناحيتين التشريحية والوظيفية •

فمن الناحية التشريحية تشير الدراسات الى أن الفص الصدغى على النصف الأيسر أكبر من نظيره على النصف الأيمن •

ومن الناحية الوظيفية تشير الدراسات الى هيمنة النصف الأيسر من الدماغ على الحركة فى النصف الأيمن من الجسم بالاضافة الى معظم فعاليات الانسان بينما يسيطر النصف الأيمن من الدماغ على الحركة فى النصف الأيسر من الجسم ••• وتشير أيضا الى أن المناطق

المسئولة عن الكلام تتمركز فى النصف الأيسر من الدماغ وتنحصر فى الفص الامامى : حيث تتمركز فيه المناطق المسئولة عن الحركة ومنها حركة الشفتين والفك الأسفل واللسان والحنجرة ، ويطلق عليها منطقة التصويت أو الكلام ، فى حين لم يكتشف من مراكز الكلام فى الشق الأيمن الا منطقة تقع فى الفص الأيمن من ذلك الشق وتمتد الى ما يقابلها فى نفس الفص من الشق الأيسر ، ويطلق عليها « منطقة التصويت الاضافية » ، ونستطيع لوحدها أن نسيطر على الحركة اللغوية عند حدوث عطب فى النصف الآخر •

كما يعزى الى الشق الأيمن بعض الوظائف البصرية التى تقع تحت سيطرته ، كما يعزى اليه فهم الأصوات غير اللغوية •

ويمكن ايجاز المهام التى تقوم بها المراكز المسئولة عن اللغة فى خصوص الشق الأيسر على النحو الآتى(٩٧) :

١ ــ الفص الامامى (الجبهى) :

ينحصر دوره فى عملية اصدار اللغة وتسلم الرسالة المبلغة من الفص الصدغى ووضع « برنامج » حركى لها • ماذا ما تعرض هذا الفص لأى عطب فان ذلك يؤدى الى ما يسمى بالحبسة التعبيرية وعدم القدرة على الكلام والنطق الصحيح ، حيث يبدو النطق متعثرا بطيئا ، ويتطلب جهدا كبيرا ، وتفتقر الجمل المنتجة الى الصياغة القواعدية الصحيحة ، كما يؤدى الى صعوبات فى التحكم فى الحركات المطلوبة

---

(٩٧) انظر د• محمد حسن عبد العزيز : مدخل الى اللغة ٦٣ ــ ٦٦
انظر : د• موفق الحمدانى : اللغة وعلم النفس ٦٨ ــ ٧٧
انظر : د• جمعة سيد يوسف : سيلكوجية اللغة والمرض العقلى ١٦٨ ــ ١٧٤ •

المكتابة • كما تؤدى اصابة الجزء الخلفى من هذا الفص الى عديد من الاضطرابات فى الحركات الارادية والتعبيرية ، وفى الحركات المطلوبة لنطق اللغة ويمكن أن يقوم بدورها — اذا ما حدث عطب — تلك المنطقة التصويتية الاضافية فى هذا الفص من الشق الأيمن •

وقد اكتشف الطبيب الفرنسي « بردكا » فى عام ١٨٨١ م بقعة فى هذا الفص فوق الأذن اليسرى الى الأمــام ، نسبت اليه ، حدد فيها بكل دقة تلك المواقع المخية المسئولة فى هذا الفص عن اســتخدام اللغة ، وما يترتب على حدوث خلل فيها ، كما تقدم ، وأيدته كثير من الدراسات التى أجريت فيما بعد •

وتشير الدراسات الى أن القشرة أو اللحاء الجبهى يؤدى دوره فى تخطيط السلوك والخبرة •

٢ — الفص الصدغى :

ينحصر دوره فى عملية فهم اللغة بشــقيها المنطوق والمكتــوب ، والتعرف على الصيغ السمعية لها • كما يضطلع بدوره أيضا فى صياغة الرسالة أو التبليغ •

ويؤدى الخلل فى هذا الفص الى صعوبة فهم اللغة •

وتشير بعض الأبحاث أيضــا الى أنه كلما كان الخلل أقرب الى الجزء الأمامى ازداد الاضــطراب فى تحقيق الجانب الحركى للكــلام ويكون من مظاهر ذلك اضطراب فى تركيب الجمل ، وتحوير نطق بعض الكلمات ، وابدال كلمة مكان أخرى ، وصياغة كلمات لا معنى لها عند السامع ، واضطراب فى الكتابة • وكلمــا كان الخلل أقرب الى الجزء

الخلفى ازداد الاضطراب فى المضمون المعنوى للكلام وتكوين الجمل، وتصاحب تلك الاضطرابات — فى كلتا الحالتين — صعوبة فى الفهم والادراك •

وقد اكتشف الطبيب فيرنيك — بعد اكتشاف بروكا السابق بعشر سنوات ، منطقة فى هذا الفص ، نسبت اليه ، وتقع تحت المنطقة السمعية وبالقرب منها ، حدد فيها المواقع المخية المسئولة عن فهم اللغة بشقيها ، وقد دللت الدراسات اللاحقة على صحة النتائج التى توصل اليها •

٣ — الفص الخلفى (الجدارى) :

تقوم بعض مراكز فى هذا الفص عند الحدود العليا للأخدود الفاصل بين الفصين الجبهى والصدغى ، بعملية الاستقبال وتتعلق بدلالات الألفاظ ومعانيها ، بينما يقوم جزؤه الأمامى بالعملية التعبيرية للغة ، فاذا ما حدث خلل فى تلك المواقع فان ذلك يؤدى الى اضطراب فى الاستقبال والتعبير •

٤ — الفص القفوى :

يؤدى دوره فى الرؤية ، وفى القراءة ، ويساعد فى فهم اللغة ويؤدى الخلل منه الى فقدان الرؤية فى النصف الأيمن من المجال البصرى ، وصعوبات فى القراءة ، ونوع من الاعاقة فى فهم اللغة والقدرة الحسابية •

وقد أشارت الدراسات الى أن القشرة أو اللحاء الجانبى القفوى يقوم بدور استقبال ومعالجة وتخزين المعلومات • بينما تشير دراسات أخرى الى منطقتى بروكا (فى الفص الجبهى) وفيرنيك

(فى الفص الصدغى) بالاضافة الى منطقة الكلام الاضافية فى الفص الجبهى ، تعمل مجتمعة ومتعاونة — بصورة رئيسية — على الاحتفاظ بالكلمات وتخزينها فى الذاكرة ، بالاضافة الى سيطرتها على الجوانب الفكرية فى الكلام •

ويعزو الباحثون تطور اللغة فى أعلى مراحلهـا الارتقـائية لدى الانسان الى نمو منطقتى بروكا وفيرنيك •

وهكذا نرى أن الشق الأيسر من الدماغ بفصوصه الأربعة يحتوى على المراكز الخاصة باللغة فى شـقيها المنطوق والمكتوب ، بل ويعتبر المكان الذى يحدث فيه التكامل البصرى — اللفظى بصفة عامة •

وعلى الرغم من أن الوظيفة التى يقوم كل مركز من مراكز المخ تختلف — فى معظم الأحيان — عن وظيفة المراكز الأخرى ، فان المراكز بشكل عام تعمل بعضها مع بعض بصورة مشتركة عن طريق منـاطق الترابـط ، وهو الأمر الذى يترتب عليه القـول بأن العملية الكلامية تحتاج الى نوع من التوافق الوظيفى بين تلك المراكز ، والا لما حدث الكلام بالشكل المألوف ذى الدلالة ، والذى يصـبح أداة للتخـاطب والتفاهم بين أفراد المجتمع (٩٨) •

ولازال العلماء يواصـلون جهودهم فى فك مغاليق السر العظيم الذى ينطوى التكوين التشريحى والفسيولوجى والعصبى لمخ الانسان•

---

(٩٨) انظر : د• مصطفى فهمى : امراض الكلام ٢٣ — ٢٤ •

مقارنة بين نظرتى اخوان الصفا والمحدثين :

بعد عرضنا وجهتى نظر اخوان الصفا والمحدثين فى تصور عملية الادراك اللغوى فانه يمكن القول بأن كثير من أقوال اخوان الصفا فى عملية الاحساس أو الادراك اللغوى تتفق فى جملتها مع أقـوال كثير من المحدثين مع بعض الفروق والتوضيحات التى سـمح بها التقدم العلمى فى الحديث ، ومن خلال المقارنة بين النظرتين يمكن أن نستنتج مـا يلى :

١ ـ لقد رأى الاخوان أن الدماغ باكمله هو المسئول عن عملية الادراك والتواصل اللغوى بصفة عـامه ؛ وهى النظرة التى سـادت فترة طويلة ، ثم تغيرت ابتداءا من منتصف القرن التاسع عشر على يد بعض العلماء من أمثـال بروكا وفيرنيك وغيرهمـا حين حددوا بعض المناطق المسئولة فى المخ عن الوظائف اللغوية وبخاصة فى نصفه الأيسر على نحو ما سبق تفصيله ، وان كنا لا نعدم من يتمسك ـ من العلماء بعد منتصف القرن العشرين ـ بأن الكلام هو وظيفة المخ بأجمعها(٩٩)، « واذا كانت محلية الكلام لا ينازع فيها من حيث المبدأ فان تفاصيل التجديد فى حاجة الى اعادة النظر فيها من جديد » (١٠٠) .

٢ ـ لقد رأى الاخـوان أن كل حاسـة من حواس الانسـان الخمس تتصل بعضو من الجسد ، وتدرك جنسا واحدا من المحسوسات وأن تلك الحواس ـ حين تدرك محسوساتها يأمر المخ لاتصالها به عن طريق نظام من الأعصاب ـ تسمى قوى جسمانية حساسة . وكل هذه الرؤى تقرها الدراسة الحديثة .

---

(٩٩) انظر : د. موفق الحمدانى : اللغة وعلم النفس ٦٨ .
(١٠٠) انظر : فندريس : اللغة ص ٣٨ .

وقد رأوا أن آثار المحسوسات تتجمع — بوساطة الأعصاب اللينة — في مقدم الدماغ (وهو مركز القوة المتخيلة على حد تعبيرهم)، وهذا يصدق من وجهة النظر الحديثة — مع التسامح — على الشم والذوق فقط اذ حددت المركز الخاص بكل منهما في الفص الصدغي ٠

أما السمع فمركزه في الفص الجداري (الخلفي) ، وأما بالنسبة لمركزي احساس اللمس والبصر فهما في الفص القفوي ٠

وقد سبق أن عرفنا أن الاخوان سموا كل قوة من تلك القوى الجسمانية الحساسة نفسا للعضو المختصة به ، ولو استبدل الاخوان كلمة « النفس بكلمة الدماغ أو المخ لكان رأيهم متمشيا مع النظرة الحديثة ٠

ولك أن تقرأ ما يلي مع استبدال كلمة « النفس » بكلمة « الدماغ » لترى وضوح العلاقة بين سائر الجسد وبين الدماغ :

« ثم ان هذا الجسد لهذه النفس — من جهة أخرى — بمنزلة دكان الصانع ، وأن جميع أعضاء الجسد للنفس بمنزلة أداة الصانع في دكانه ، وان النفس بكل عضو من أعضاء الجسد تظهر ضروبا من الأفعال وفنونا من الأعمال ، كما أن الصانع بكل أداة يعمل ضروبا من الأعمال وفنونا من الحركات ، كالنجار فانه يخت بالفأس وينشر بالمنشار ويثقب بالمثقب ويبرد بالمبرد وينقر بالمنقار ، وهكذا الحداد فانه ينفخ بالمنفاخ ويأخذ بالكليتين ، ويطرق بالمطرقة ، وعلى هذا القياس سائر الصناع ، كل واحد منهم يعمل بأدوات مختلفة أعمالا مختلفة وحركات متباينة ، فهكذا حال النفس تبصر بالعينين ، وتسمع بالأذنين ، وتشم بالمنخرين وتذوق باللسان وتتكلم بالشفتين واللسان وتمس باليدين وتعمل الصنائع بالأصابع وتمشي بالرجلين ، وتبرك

على الركبتين وتقعد على الإيليتين وتنام على الجنبين وتستند بالظهر وتحمل الأثقال على الكتفين وتفكر بوسط الدماغ الأشياء ، وتتخيل بمقدم الدماغ المحسوسات وتحفظ بمؤخر الدماغ المعلومات ، وتصوت بالحلقوم وتستنشق الهواء بالخياشيم ، وتقطع الطعام بالأسنان ، وتزدرد بالمرئ وما شاكل ذلك • وبالجملة ما من عضو فى الجسد الا وللنفس فيه ضروب من الأفعال وفنون من الأعمال » (١٠١) •

ولك أن تقرأ غير ذلك مما أورده الاخوان فى رسائلهم لترى صدق ما نذكره (١٠٢) •

ولا نعدم فى رسائلهم أيضا ما يؤيد وجهة نظرنا حين رأوا أهمية الدماغ وسيطرته على أعضاء الجسد ، اذ يقولون :

« ما من عضو فى أبدان الحيوانات صغيرا كان أو كبيرا الا وهو خادم لعضو آخر ومعين له فى بقائه وتتميمه فى أفعاله ومنافعه ، مثال ذلك الدماغ فى بدن الانسان فانه ملك الجسد ، ومنشأ الحواس ، ومعدن الفكر ، وبيت الروية ، وخزانة الحفظ ، ومسكن النفس ومجلس محل العقل » (١٠٣) •

فاذا ما دققنا النظر فى قولهم عن الدماغ أنه « مسكن النفس » يتبين لك صحة رؤيتنا •

٣ ــ رأى الاخوان أن الدماغ مقسم الى ثلاثة أقسام : مقدمه ووسطى ومؤخره • وهذا التقسيم فى مجمله يتفق الى حد ما ــ من الناحية التشريحية ــ مع العلم الحديث حين رأى العلماء أن فى كل

---

(١٠١) انظر : رسائل اخوان الصفا جـ٢/٣٨٤ ــ ٣٨٥
(١٠٢) انظر : المرجع السابق جـ ٢/٣٨٧ ، ٤١٠ •
(١٠٣) انظر : المرجع السابق جـ٢/١٨٩ ــ ١٩٠

شق من شقى الدماغ أربعة فصوص : أمامى وخلفى وصدغى وقفوى على نحو ما سبق تفصيله .

ورأى الاخوان أن لكل جزء من أجزاء الدماغ وظيفة ، فالجزء الأمامى يتخيل والأوسط يهيمن ويفكر ، والمؤخر يحفظ ويخزن ، وسموا كل جزء حسب وظيفته ، ونسبوه الى النفس المتمركزة فى الدماغ ، فسمى الجزء الأول « قوة النفس المتخيلة » والثانى « قوة النفس المفكرة » والثالث « قوة النفس الحافظة » . ولأن مجارى تلك القوى فى الدماغ لا فى الحواس الخمس الجسمانية الظاهرة ، وأطلقوا عليها « قوى النفس الروحانية الحساسة » . ولو استبدلنا « قوة النفس » — فى كل ما ذكروا — بمركز الدماغ أو المخ لتمشى ذلك مع النظرة الحديثة .

وقد أكدت بعض الدراسات الحديثة أن اللحاء أو القشرة القفوية (فى مؤخر الدماغ) تقوم باستقبال وتخزين المعلومات ، فى حين أشارت دراسات أخرى الى تمركز نقاط التخزين والتفكير فى الفصين: الأمامى والصدغى كما ذكر « بروكا » و « فيرنيك » على نحو ما سبق.

٤ — وقد ذكر الاخوان قوتين أو مركزين آخرين — لم يحددوا موقعهما فى الدماغ ، يتعاونان مع مراكز دماغ الانسان وحواسه فى الادراك ، وبهما تتم حلقة الاتصال اللغوى ، وهما ما سموه بالقوتين : الناطقة والصانعة أو الكاتبة ، حيث تقوم الأولى بأمر القوة المفكرة بالتعبير واصدار الكلام ، والأخرى بأمر نفس تلك القوة بتسجيل اللغة وكتابتها . وقد حددت الدراسة الحديثة موقعهما فى الفص الأمامى (الجبهى) من الشق الأيسر من المخ على النحو الذى أوضحناه .

٥ — وقد رأى الاخوان أن وظيفة مراكز الادراك فى الدماغ

تتوقف على سلامة الحواس الخمس من الآفـات ، وبخاصة حاسـتا السمع والبصر ، أو يتوقف على الأولى عمل الدمـاغ فى ادراك اللغة فى شقها المنطوق ، وعلى الثانية ادراك اللغة فى شقها المكتوب • وهذه نظرة ثاقبة أكدتها الدراسة الحديثة ، اذ العملية الكلامية تحتـاج الى نوع من التوافق الوظيفى بين مراكز الاحساس والحركة فى الدمـاغ حتى يحدث الكلام بشكل طبيعى ويكون أداة للتخاطب والتفـاهم بين أفراد المجتمع ، وكذلك الأمر نفسه بالنسبة للغة المكتوبـة والا حدثت اضطرابات لغوية عديدة كما سبق •

٦ ــ تحدث الاخوان عن حركات الانسان وقسموها الى قسمين: ارادية وغيرها ، وحصروا الحركات الارادية فى مـائة ونيف وعشرين حركة ، ورأوا أن للحركات المتطلبة لعملية الكلام تعد من تلك الحركات الارادية ، اذ يقولون :

« اعلم أن حركات أعضـاء البدن نوعـان : طبيعية وارادية ، فالطبيعية مثل حركات نبض العروق الضوارب ، وحركات عضـلات صدره وفؤاده ورئته وحلقومه عند استنشاقه الهواء وارساله فى حال النوم واليقظة من غير ارادة منه ولا اختيار • وأما الحركات الارادية والاختيارية فمثل القيام والقعود والذهاب والمجىء والصنائع والأعمال والكلام والاشارات بأعضاء بدنه ، فـانه لا يكون الا بارادة واختيار منه ، وهى مائة ونيف وعشرون حركة ••• » (١٠٤) •

وقد أوضحت الدراسة الحديثة ــ كما سـبق ــ أن المخ يعتبر مركزا للسيطرة ، ويؤدى دوره بشـكل فعال بالتعـاون مع الأجزاء من الجهاز العصبى ، فتنطلق البواعث القادمة من المتسلمات الحسية

---

(١٠٤) انظر : رسائل اخوان الصفا جـ ٣٢٩/٢ ــ ٣٣١

فتذهب الى المناطق المختلفة فى المخ حتى تعود فى النهاية الى الأنسجة العضلية التى تسيطر على حركة الجسم الارادية وغير الارادية •

وقد حددت الدراسة ذاتها مركز تلك الحركة فى أعلى الفص الأمامى (الجبهى) فى الشق الأيسر من المخ (١٠٥) • وهذا يتفق الى حد كبير مع ما ذكره الاخوان كما سبق: فقد نقلنا عنهم قولهم «انه ينتشر من مقدم الدماغ عصبات لطيفة لينة تتصل بأصول الحواس ويتفرق هناك وتنسج فى أجزاء جرم الدماغ كنسج العنكبوت ••• » •

وتتألف أعصاب الحركة التى تربط بين مراكز الكلام فى المخ وأعضاء النطق من مجموعة من الأعصاب ، أهمها (١٠٦) :

(أ) العصب المسمى الحائر الذى يقوم بالاثارة العصبية بالحنجرة •

(ب) عصب الوجه الذى يتحكم فى عضلات الوجه بما فى ذلك الشفتين والخدين •

(جـ) العصب تحت اللسان الذى يتحكم فى العضلات المحركة للسان فى عمليتى الكلام والبلع •

(د) العصب اللسانى البلعومى الذى يتولى ـ بالاشتراك مع العصب الحائر ـ اثارة عضلات البلعوم والحنك اللين •

(هـ) العصب الحجابى الذى يتولى اثارة عضلات الجهاز التنفسى، ويمتد من منطقة الرقبة الى عضلة الحجاب الحاجز •

---

(١٠٥) انظر فى تفصيل تلك الحركات د• موفق الحمدانى : اللغة وعلم النفس ٧٠ ـ ٧٣ •

(١٠٦) انظر : د• سعد مصلوح : دراسة السمع والكلام ٣١٢

(و) العصب المسمى بمثلث التوائم الذى يتحكم فى حركة الفك الأســفل •

ففى أثناء عملية التواصــل اللغوى تقوم الأليــاف المحركة بنقل الحوافز العصبية للمتكلم الى العضلات المتحكمة فى جهاز النطق من منطقة (بروكا) التى تتحكم فى النشاط الحركى المعقد لأعضاء النطق ، وذلك عن طريق التحكم فى تقلص هذه العضــلات واسترخائها وتوقيت الحركات فى تزامنها أو بتتابعها • كما تتعاون الحوافز العصبية السمعية مع حركات أعضاء النطق فى ضبط أنماط التحركات التى تقوم بها تلك الأعضــــاء •

كما تقوم الألياف الحسية بمهمة عكسية ومكملة لدور الألياف المحركة حين تنقل الحوافز العصبية من المستقبلات الحسية فى أعضــاء النطق الى المخ ، وهكذا تكتمل فى المخ دائــرة الحركة والاحســـاس فى أثناء عملية التواصل •

٧ ــ رأى الاخوان أن لحــواس الانســان دورا رئيســيا فى الادراك بعامة ، وأن لحاستى الســمع والبصر نفس الدور فى الادراك اللغوى بخاصة •

ولا يزال المحدثون يرددون ما ذكره الاخوان وغيرهم فى أهمية هذه الحواس : ويؤكدون أن حاستى الســمع والبصر أكثر الحواس نفعا فى ادراك واكتساب المعارف بعامة وأصوات اللغة رموزها المكتوبه بخاصــة (١٠٧)•

---

(١٠٧) انظر : د• تمام حسان : اللغة بين المعيارية والوصفية ص ١٠٥ ومابعدها ط المغرب • وقد تحدث بصراحة عن دور الرموز اللمسيه والذوقية والشــمية والســمعية والبصرية فى عملية الادراك ، وتتحدث عن موقع الرموز الصوتية والمكتوبة من بين تلك الانواع •

كما أثبتت بعض الدراسات الحديثة تميز العين على الأذن فى القدرة على الاستقبال ، كما سبق فى أثناء الحديث عن سماع الصوت العام ، فارجع اليه (١٠٨) •

٨ ــ رأى الاخوان أن للقلب دورا مهما ، ولولا قوة هذه الحاسة لبطلت بقية الحواس • والحقيقة أنى لم أعثر فيما اطلعت عليه من كتابات المحدثين ما يؤيد كلام الاخوان أو يرفضه ، بيد أنهم ينسبون الى القلب الأمور العاطفية • أما القدماء من الحكماء والفلاسفة والصوفية وغيرهم فان نظرتهم الى القلب لا تبعد كثيرا عن نظرة اخوان الصفا •

فهاهو الحكيم الترمزى : أبى عبد الله محمد بن على (ت ٣٢٠ هـ) يرى ــ مثلا ــ أن « القلب ليس فى يد النفس رحمة من الله تعالى ، لأن القلب هو الملك ، والنفس هى المملكة » (١٠٩) •

ويرى أن « علم الأشياء مجتمعة متراكمة فى الصدر بعضها على بعض ، فاحساس القلب من ذلك العلم هو علم القلب ، أداة الى الذهن والى الحفظ ، فالذهن قبله بما استودعه الحفظ حتى يؤديه عند الحاجة اليه » (١١٠) •

أما اللغويون وأصحاب المعاجم فنراهم يطلقون على العقل قلبا ، وعلى القلب عقلا وكذلك الأمر بالنسبة للب (١١١) •

---

(١٠٨) وانظر : كندرانوف : الاصوات والاشارات ٥٢ ـ ٥٣ •

(١٠٩) انظر : بيان الفرق بين الصدر والقلب والفؤاد واللب ٣٧ تحقيق : د• نفو لاهير • دار احياء الكتب العربية ١٩٥٨ •

(١١٠) انظر : علم الاولياء • تحقيق : د• سامى نصر ١٣٧ • القاهرة ١٩٨٣ •

(١١١) انظر : ابن منظور : لسان العرب «عقل ، قلب ، لب» •

٩ ـ ربط الاخوان بين قوى الاحساس والادراك مختلف القوى، فى الانسان وبين الأفلاك والكواكب ، يتضح هذا قولهم :

« اعلم أن البارى تعالى جعل فى تركيب جسد الانسان أمثلة واشارات الى تركيب الأفلاك وأبراجها ، والسموات وأطباقها ، وجعل سريان قوى النفس فى مفاصل جسده ، واختلاف أعضائه كسريان قوى أجناس الملائكة وقبائل الجن والإنس والشياطين فى أطباق السموات والأرض فى أعلى عليين ، وأسفل سافلين » (١١٢) .

وقد أسهبوا فى توضيح تلك العلاقة فى مواضع متفرقة من رسائلهم ، من ذلك حديثهم عن القوى الجسمانية والروحانية للنفس ، وأن هذا يشبه الكواكب ، اذ هى ذوات نفوس وأجسام ، ومن ثم فان لها أفعالا جسمانية فى الأجسام ، وأفعالا روحانية فى النفوس . ومن ذلك حديثهم عن القوة الناطقة ، وأن نسبتها الى القوة العاقلة كنسبة القمر الى الشمس ، وذلك أن القمر يأخذ نوره من الشمس فى جريانه من منازل القمر الثمانية والعشرين ، كذلك القوة الناطقة تأخذ معانى ألفاظه بجريانه فى الحلقوم فيعبر عنها بثمانية وعشرين حرفا . ومن ذلك حديثهم عن صلة العقل بالجسم كصلة العالم العلوى بالعالم السفلى ، فكما ينحط من الروحانيات الى العالم ما يكون به صلاحه فكذلك تنحط من القوة العاقلة من الرأس الى الجسم ما يكون به صلاحها . ومن ذلك حديثهم عن الحاسة السامعة وأنها مناسبة لطبيعة الفلك الذى هو مسكن الملائكة الذين شعارهم وشغلهم ليلهم ونهارهم وكلامهم كله تقاديس وتسبيح وتهليل ويلتذ بعضهم بسماع بعض ،

---

(١١٢) انظر : رسائل اخوان الصفا جـ٢/ ٤٦٣

ويقدم لهم فى ذلك العالم العلوى مقـــام الغذاء فى العالم الســفلى . وهكـــذا (١١٣) .

وهذا الاعتقاد منبثق من فكرتهم العـــامة التى مفادهـــا أن كل الكائنات التى دون فلك القمر مربوطة بحركات الأشــخاص الفلكية . وقد سبق أن عرفنا بطلان هذا الاعتقاد وذلك فى الفصل الثالث .

ونتساءل كيف يكتسب الانســان لغة مجتمعة ؟ ومتى ؟ وما طرق هذا الاكتساب ؟ وما عوامله ؟ وهل يختلف تصور الاخوان فى ذلك عن تصور المحدثين . وللاجابة عن هذه التساؤلات وغيرها عقدنا الفصـــل التـــالى .

(١١٣) انظر هذا بالتفصيل فى المرجع السابق جـ٢/٤٦٣ ــ ٤٦٨ ، جـ ١٢٣/٣ ــ ١٢٥ ، جـ ٢٣١/٤ ــ ٢٣٥ .

الفصل السادس

الاكتســاب اللغــوى

يمثل اكتساب اللغة (أو التنشئة اللغوية) أحد الموضوعات التى حظيت باهتمام العلماء وبخاصة علماء النفس الارتقائيون واللغويون •

وتجد فى رسائل اخوان الصفا اشارات تتصل بهذا الموضـــوع ، وتلك الاشارات لا تمثل الا قدرا ضئيلا مما كتب عن هذا الموضوع فى العصر الحديث • ويهمنا أن نتعرف على تلك الاشارات فى ضوء ما كتب عنها حديثا • فقد عقد الاخوان فصـــلا فى الرســـالة الخاصة بالآراء والديانات ، بعنـــوان « بيان ما يخص الانســـان من المعلومات » (١) قالوا فيه :

« ان الله لما خلق الانسان الذى هو آدم أبو البشر ، عليه السلام، وفضله على كثير ممن خلق قبله تفضيلا : جعل احـــدى فضـــائله كثرة العلوم وغرائب المعارف ، وجعل له اليها عـــدة طرقـــات : فمنها طرق الحواس الخمس التى بها يدرك الأمور الحاضرة فى المكان والزمان ، كما بينا فى رسالة الحاس والمحسوس • ومنها طريق استماع الأخبار التى ينفراد بها الانسان دون سائر الحيوانات ، يفهم بها الأمور الغائبة عنه بالزمان والمكان جميعا ، كما ذكر الله تعالى ومن به عليه فقال : « خلق الانسان • علمه البيان » (٢) • ومنها طريق الكتابة والقراءة يفهم بها الانسان معانى الكلام واللغات والأقاويل ، بالنظر فيهما عمن لم يره من

---

(١) انظر : رسائل اخوان الصفا ج ٣/٤١٤ ـ ٤١٥ •

(٢) الآيتان ٣ ـ ٤ الرحمن •

أبناء جنسه مع الزمان ، أو من هو غائب عنه بالمكان ، كما قال الله ومن به على الانسان ، فقال لنبيه محمد عليه الصلاة والسلام : « اقرأ وربك الاكرم • الذى علم بالقلم • علم الانسان ما لم يعلم » (٣) • وبهذه الفضيلة شارك الانسان الملائكة الكرام ، كما قال الله تعالى : « وان عليكم لحافظين • كراما كاتبين • يعلمون ما تفعلون » (٤) • واعلم أن فهم القراءة والكتابة ومعرفتها متأخرة عن فهم الكلام والأقاويل ، كما أن فهم الكلام والأقاويل ومعرفتها انما هى متأخرة عن فهم المحسوسات ، كما هو بين ظاهر لا يخفى على العقلاء ، وذلك أن الطفل اذا خرج من الرحم فانه فى الوقت والساعة تدرك حواسه محسوساتها، فيحس بالقوة اللامسة الخشونة واللين ، وبالقوة الباصرة النور والضياء ، وبالقوة الذائقة طعم اللبن ، وبالقوة الشامة الروائح ، وبالقوة السامعة الأصوات ، ولكنه لا يعلم معانى الكلام والأصوات الا بعد حين • فأول شىء يحس باللمس فيتألم ، لأن حاسة اللمس أعم الحواس ، ثم يحس بالطعم فيميز لبن أمه من غيره ، ثم يميز بين الروائح فيعرف الشم،ثم يميز بين الصوت الشديد الجهير وبين الصوت الضعيف الخفيف ، ثم يفرق بن الصور ، ثم يميز على ممر الأوقات بين نغمة الأم ونغمة الأب والاخوة والاخوات والاقرباء وغيرهم ، ثم شيئا بعد شىء على التدريج • وعلى هذا المثال فهمه ومعرفته بسائر الحواس ومحسوساتها ، الى أن تتم سن التربية ، ويغلق باب الرضاع ويفتح الكلام والنطق ، ثم بعد ذلك تجىء أيام الكتابة والقراءة والآداب والصنائع والرياضيات وسماع الأخبار والروايات والفقه فى الدين والنظر فى العلوم والمعارف ، وطلب حقائق الموجودات والبحث عن الكائنات ، والاستدلال بالحاضرات على

---

(٣) الآيات ٣ ـ ٥ العلق •

(٤) الآيات ١٠ ـ ١٢ الانفطار

الغائبات ، والمحسوسات على المعقولات وبالجسمانيات على الروحانيات ، وبالرياضيات على الطبيعيات ، وبالطبيعيات على الإلاهيات التى هى الغاية القصوى فى العلوم والمعارف والسعادة الأبدية والدوام السرمدى ، بلغك الله وإيانا هذه الغاية وشرح صدرك وفتح قلبك ونور فهمك ، وصفى نفسك ، وحسن أخلاقك وأصلح شأنك ، وزكى أعمالك ، وأنعم بالك ، وأكرمك مما أنعم به على أوليائه وأنبيائه بما علمهم من البيان والكتاب ، كما قال تعالى : « ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا » (٥) .

وعقد الاخوان فصلا آخر فى رسالة الحاس والمحسوس بعنوان « بيان المحسوسات بعضها بالذات وبعضها بالعرض » (٦) قالوا فيه :

« اعلم أن الانسان اذا رأى ثمرة من بعيد ، يعلم من وقبة أنها حلوة أو مرة أو طيبة الرائحة أو منتنة ، أو أنها خشنة أو لينة او صلبة أو رخوة أو حارة أو باردة أو رطبة أو يابسة ، وليس علمه بهذه الصفات كلها بطريق البصر ، ولكن بالقوة المفكرة وبرؤيتها وتجاربها وما جرت لها به العادة . وكذلك اذا أخطأ فى حكم شىء من هذه فليس الخطأ من قبل الباصرة ، ولكن من قبل المفكرة اذا حكمت من غير روية ولا اعتبار . مثال ذلك اذا رأى الانسان السراب فظن أنه الماء فليست الباصرة هى المخطئة ، ولكن المفكرة حكمت بأن ذلك المتلون يناله اللامس والذوق ، وهو جسم سيال رطب ، فلما جاءه لم يجده بهذا الوصف ، فبان خطؤها ، فسبيل المفكرة اذا أدت اليها المتخيلة أثر حاسة واحدة ألا تحكم أو تستخبر حاسة أخرى ، فان شهدت لها حكمت عند ذلك بأنها كيت وكيت . مثال ذلك اذا رأت الباصرة تفاحة معزولة من

(٥) الآية ٣٢ فاطر .

(٦) انظر : رسائل اخوان الصفا جـ ٢ / ٤١١ ـ ٤١٢ .

الكافور ، مصبوغة بلون التفاح فأوردت خبرها الى المتخيلة ، فأوردتها هى الى المفدرة ، فليس سبيلها أن تحكم أن طعمها ورائحتها وملمسها مثل التفاحة التى هى الثمـــرة ، أو تســـتخبر قوة الزائغة والشـــامة اللامسة . فاذا أخبرت كل واحدة منها بما لها أن تخبر به حكمت عند ذلك المفكرة بأنها كيف وكيف حتى يكون حكمها صوابـــا لا خطأ فيه . ثم اعلم أن من أجل هذه العلة منعت القوة الناطقة أن تعبر على ألسنة الأطفال حكم شىء من معانى المحسوسات ، لأن المفكرة بعد لم تحكم معانيها ، ولم تميزها تمييزا صحيحا ، فاذا مضت ســـنون التربية ، ويدفع القمر التدبير الى عطارد صاحب المنطق والتمييز ، أطلق لســـان المولود بالعبارة والبيان عن معانى المحسوســـات التى أدت الحـــاسة الى المفكرة » .

وعلى ضوء مما نقلناه عن الأخوان نستطيع أن نلقى الضوء على معنى اكتساب اللغة ، وطرقه ، والفترة الزمنيـــة التى يتحقق فيها ، ومستوياته ، وعوامله ، وأسباب تفاوت الناس فيه ، وأفضلية الانسان على ما سواه بقدرته على اكتساب اللغة وتعلمها .

معنى اكتســـاب اللغـــة :

ان اكتساب لغة من اللغـــات ما هو الا عملية فهم (٧) ملك اللغة ثم القدرة على استخدامها نطقا وكتـــابة ، فهو عمليتـــا فهم وتعبير ، ويرتبط الاكتساب بهما معا ، اذ القدرة على تلفظ اللغة يعتبر مهـــارة

---

(٧) ينظر البعض الى فهم اللغـــة باعتباره العملية النهـــائية التى تبدأ بالادراك وتنتهى بالاستيعاب والفهم ، ويرى البعض أن الادراك عام ، والفهم ينضوى تحته ، ويرى البعض انهما مترادفان . راجع : د. جمعة سيد يوسف : سيكلوجية اللغة والمرض العقلى ص ٦٥ وما بعدها .

أساسية لفهمها ، فالذى يفقد القدرة على التحكيم فى حركة فمه وشفتيه ولسانه نتيجة عطب فى مخه يعانى أيضـــا من اضطراب فى فهم اللغة واصدارها (٨) ، والذى يفقد القدرة على التحكم فى حركة اليدين نتيجة عطب فى المراكز المخيـــة المختصـــة بهما يفقـــد القـــدرة على التعبير بالكتـــابة (٩) .

وعمليتا الفهم والتعبير يتضمنها قـــول الاخوان السابق : « فاذا مضت سنون التربية ... أطلق لسان المولود بالعبارة والبيان عن معانى المحسوسات التى أدت الحاسة الى المفكرة » .

طرق اكتساب اللغة :

ويكتسب الطفل السوى بتفاعـــله مع الأفـــراد المحيطين به فى بيئته ، وتحادثه معهم ، وســـماعه اللغة منهم ، وتقليدهم ، وتشجيعهم له ، بالاضافة الى ما لديه من استعداد لمهارة لغوية فطرية تسمى جهاز اكتساب اللغة ، تمكنه من اكتساب اللغة وتعلمها .

وقد أشار الاخوان الى أثر البيئة فى الفرد واكتسابه المعـــارف عـــامة ، قـــائلين :

« وقل من يكون من الناس مخالفا لســـيرة أبويه وأهله وأقـــاربه وعشيرته فى صناعتهم ومذهبهم ورأيهم وتجاربهم وجميع أحوالهم الا أن يبعد عنهم ويفارقهم ويصير الى غيرهم لأســـباب وعلل تحدث من أمر الزمان وتغاير الأيام » (١٠) .

---

(٨) انظر : المرجع السابق ١٠٢ ــ ١٠٣ .
(٩) انظر : د. مصطفى فهمى : أمراض الكلام ص ٦٨ .
(١٠) انظر : الرسالة الجامعة جـ ٧٠٩/١ ، والرسائل جـ ٣٠٧/١

وكذا نشم الاستعداد الفطرى الغريزى فى قولهم :

« اعلم يا أخى أن نفس العلماء علامة بالفعل ، وأنفس المتعلمين علامة بالقوة ، والتعليم ليس شيئا سوى اخراج ما فى القوة الى الفعل ، والتعلم هو الخروج من القوة اليه ، وان كل شىء بالقوة لا يخرج الى الفعل الا لشىء هو بالفعل يخرجه اليه »(١١) .

وفى قولهم :

«نفوس الصبيان علامة بالقوة ، ونفوس الأستاذين علامة بالفعل ، وكل نفس علامة بالقوة لابد لها من نفس علامـــة بالفعل تخرجها من القوة الى الفعل » (١٢) .

وقد رأوا أن النفس تنال صور المعلومـــات من طرقات ثلاث : أولها الحواس ثم العقل والفكر والروية ، ثم البرهان (١٣) .

ويولى الاخوان اهتماما خاصا بحاستى السمع والبصر فى عملية اكتساب المعارف بعامة واللغة بشـــقيها المنطوق والمكتـــوب بخاصة ، نراهم يقولون :

« اعلم أن الانسان مع اســـتماعه الأصـــوات وتمييزه بالنغمات يفهم معانى اللغات والأقاويل ، كما أنه عند نظره الى الخطوط والكتاب يفهم ما يتضمنها من معانى الكلام والعبارات ما لا يفهم عليها غيره من الحيوانات ، ثم اعلم أن من هاتين الطريقتين أكثر معلومات الانســـان التى ينفرد بها دون سائر الحيوانات » (١٤) .

---

(١١) انظر : رسائل اخوان الصفا جـ ١/٣٩٩ .
(١٢) انظر : المرجع السابق جـ١/٢٧٧ ، جـ٢/٣٩٦ ، جـ٣/٤٢٤
(١٤) انظر : رسائل اخوان الصفا جـ ٣/٤١٢ ـ ٤٢٣ .

ونرى فى تراثنا أيضا ما يؤكد أهمية السماع من البيئة فى اكتساب اللغة ، فها هو ابن فارس يقول :

« تؤخذ اللغة اعتيادا كالصبى العربى يسمع أبويه وغيرهما ، فهو يأخذ اللغة عنهم على مر الأوقات » (١٥) •

ونجد صدى هذه الفكرة يتردد فى عصرنا الحديث ، اذ نرى البعض يعول على المحاكاة والتفاعل بين الطفل وبيئته فى اكتساب اللغة، فيما يعرف بنظرية المحاكاة أو النظرية المعرفية • بينما نجد نظريات حديثة أخرى ترفض هذا ، فبعضها يرجع الاكتساب اللغوى الى وجود تنظيمات موروثة لدى الطفل ، وأنه مزود بجهاز نطرى يساعد الطفل على اكتساب لغته ، فيما يعرف بنظرية تحليل المعلومات أو النظرية المعرفية • وبعض النظريات ترى أن المهارة اللغوية ينمو وجودها عن طريق التقليد لكلمات وجمل معينة ينطق بها الطفل فى سياقات معينة ، ويتم تدعيمها عن طريق المكافأة ، فيما يعرف بنظرية التعليم والتشريط•

وقد بنى أصحاب كل نظرية وجهة نظرهم على انتقادهم لأصحاب النظريات الأخرى • ومن الأفضل أن ننظر الى كل نظرية على أنها مكملة للأخرى ، وأن ننظر الى عملية اكتساب اللغة على أنها نتاج كل النظريات مكتملة (١٦) •

---

(١٥) انظر : الصاحبى : ٤٨ ، والسيوطى : المزهر جـ ١٤٤/١

(١٦) انظر : د• موفق الحمدانى : اللغة وعلم النفس ١٣٣ ــ ١٣٧

د• محمد حسن عبد العزيز : مدخل الى اللغة ٣٨ ــ ٥١ •

د• جمعة سيد يوسف : سيكلوجية اللغة والمرض العقلى ٤٧ ــ ٥١، ١١٦ ــ ١٢٤ •

د• نايف خرما ، د• على حجاج : اللغات الأجنبية : تعليمها وتعلمها ص ٥٥ وما بعدها سلسلة عالم المعرفة : العدد ١٢٦ شوال ١٤٠٨هـ / يونيو ١٩٨٨م •

مراحل الاكتســاب :

ولا يتحقق اكتساب اللغة دفعة واحـــدة ، وانما يأتى بالتدريج وعلى مراحل من حياة الانسان وبخاصة السنوات الخمس المبكرة من عمره التى تنمو فيها قدراته العقلية (١٧) •

وقد أشار الاخوان الى هذا التدريج ، فبالتأمل فيما نقلناه عنهم نرى أن هنـــاك مرحلة ما قبل كلام الطفل ونطقه ، وهى تبدأ بادراكه المحسوسات اللمس ، ثم الطعم ، ثم الرائحة ، ثم يدرك المسموعات ، فيستطيع أن يميز بين أنواع الأصوات ، شديدهـــا وضعيفها ، جهيرها وخفيفها ، كما يستطيع أن يميز بين نغمات أفراد بيئتـــه التى يعيش فيها : أبيه ، أمه ، أخيه أخته •• الخ ، ثم ينمو عقلا تدريجيـــا حتى يستطيع أن يعبر عما يحسه ويدركه من معانى المحسوسات ، ثم بعد ذلك يكتسب اللغة فى شقها المكتوب حين يتعلم الكتابة والقراءة،ويحصل العلوم والمعارف المختلفة فى أرقى صورها العقلية •

وقد فصل المحدثون من علماء اللغة والنفس والاجتماع وغيرهم فى المراحل التى تنمو فيها قدرات الطفل العقلية والتى يســـتطيع من خلالها اكتساب لغة مجتمعه •

فتشير بعض الدراسات الى أن عملية الاكتساب اللغوى تتم فى ثلاث مراحل متتالية من عمر الطفل : المرحلة الاعدادية ، وهى مرحلة وجود الطفل وسط أسرته ، والمرحلة الموجهة ، وهى مرحـــلة وجـــود الطفل وسط معلميه وفى مدرسته ، والمرحلة التى تبدأ ببلوغ الطفل •

وتكون لغة الطفل ــ فى مرحلة الأولى ــ معبرة فى معظمهـــا عن

(١٧) انظر : كندراتوف : الأصوات والاشارات ١٧٥ ــ ١٧٧ •

الوجدان والنزوع ، ثم تتطور تدريجيا الى التعبير عن الادراك وعندئذ تصبح لغته وسيلة للدلالة على الموضوعات والمواقف ، ويصبح الطفل قادرا على ايصال تفكيره الى الآخرين .

ويتمكن الطفل – فى مرحلته الثانية ، حين تنمو قواه الادراكية – من أن يكتسب من لغته طرق التفكير الشائعة فى مجتمعة ، اذ إكتساب اللغة اكتساب بالضرورة لطرق التفكير الشائعة ، والفروض الأساسية التى ينبني عليها التفكير والاجراءات الاستقرائية والقياسية التى يشيعها تطور العلوم . وحين يصل الانسان الى سن البلوغ – وتلك هى المرحلة الثالثة – فان كان فى مجتمع بدائى تظل لغته على حالها نظرا لثبات مدى التجربة وعدم تغيرها ، وان كان فى مجتمع متحضر ، قارىء ، كاتب ، فانه لا يكاد ينتهى اكتسابه اللغة طوال حياته (١٨) .

وقد انتقد هذا التسلسل الزمنى الذى يكتسب الطفل من خلاله لغة مجتمعه ، اذ الطفل فى سن الثالثة من عمره ربما يكون قادرا على التفكير المنطقي ، وبخاصة الطفل الشديد الذكاء ، اذ الأطفال يتفاوتون فى قدراتهم وظروفهم الاجتماعية (١٩) .

ونلمح لهذه النظرة الحديثة شبها فى رسائل اخوان الصفا ، اذ نجدهم يذكرون أن الانسان يمر بثلاث مراحل فى اكتسابه المعارف والمعلومات المحسوسة والمعقولة والمبرهنة بصفة عامة : أول الصبا ، وفيها يدرك الصبى المحسوسات عن طريق حواسه الخمسة وعند البلوغ

---

(١٨) انظر : لويس : اللغة فى المجتمع ص ٢٨ – ٩٥ ترجمة د. تمام حسان ، د. ابراهيم انيس . دار احياء الكتب العربية ١٩٥٩م .
(١٩) انظر : المرجع السابق ٥٢ – ٥٣ .

وفيها يدرك الإنسان المعقولات عن طريق قوة الفكر ونضجه ، وما بعد البلوغ ، ومنها ينفرد قوم من العلماء دون غيرهم بإدراك الأمور المبرهنة عن طريق البرهان . يتضح هذا في قول الاخوان :

« ان علم الانسان بالمعلومات يكون من ثلاثة طرق : أحدها طريق الحواس الخمس الذى هو أول الطرق ، ويكون جمهور علم الانسان ومعرفته بها من أول الصبا ، ويشترك الناس كلهم فيها ، وتشاركهم الحيوانات والثانى طريق العقل الذى يتفضل به الانسان دون سائر الحيوانات ومعرفته به تكون بعد الصبا عند البلوغ . والثالث طريق البرهان الذى يتفرد به قوم من العلماء دون غيرهم من الناس ، وتكون معرفتهم بها بعد النظر فى الرياضيات الهندسية والمنطقية » (٢٠) .

وقد حصرت بعض الدراسات الحديثة الأخرى مراحل اكتساب اللغة فى أربع مراحل متداخلة : مرحلة ما قبل الكلام ، ثم مرحلة ادراك الأصوات واصدارها ، ثم مرحلة الكلمة الواحدة ، ثم مرحلة الكلمتين وما بعدها .

ففى المرحلة الأولى لا تكون الأجهزة الادراكية والصوتية للوليد قادرة على اصدار الكلام ، وان كانت مهيأة لذلك ولديها القدرة على الاكتساب بناء على عملية نضج للجهاز العصبى المركزى والذى يتم على مراحل .

وفى المرحلة الثانية تنمو قدرة الطفل على الكلام تبعا لنمو قدرته على الانتباه الى ملامح الأصوات وأدائها .

وفى المرحلة الثالثة ينطق الطفل كلمته الأولى بين الشهرين العاشر والثالث عشر .

---

(٢٠) انظر : رسائل اخوان الصفا جـ ٢/٣٩٦ - ٣٩٧ .

وفى المرحلة الرابعة يستطيع أن يعبر بجمل مكونة من كلمتين فأكثر فيما بين الشهرين الثامن عشر والعشرين • ثم تستمر عملية الاكتساب والنمو فى التزايد والثراء والخصوبة (٢١) •

ومع تداخل الفترات الزمنية التى يستطيع الطفل فى اثنائها اكتساب اللغة ، ومع تعدد الدراسات حول هذا الموضوع فانها تشير فى جملتها الى أن الطفل فى عامه الأول يستعمل فى تعبيره كلمة فى معنى الجملة ، وفى سن العامين يستعمل كلمتين معا ، وفى عامه الثالث يستطيع أن يعبر عن أفكاره فى جمل قصيرة بسيطة ، وقد تتكون من ثلاث كلمات وفى عامه الرابع والخامس تطول الجمل ويزداد عدد الكلمات ، وكل هذا وفق فكره ونموه ودرجة ذكائه ، والبيئة التى يعيش فيها ومستواه الاجتماعى (٢٢) •

مستويات اكتساب اللغة :

ولعلنا من خلال ما تقدم نرى أن مستويات اللغة المكتسبة تبدأ بالأصوات ثم تتحول الى كلمات ذات معنى ، ثم تصير جملا تحمل دلالات ، وكل تلك المستويات تكتسب وتنمو بشكل متآزر •

واذا كانت الدراسات الحديثة وفقت الى حد كبير فى معرفة الحصيلة اللفظية التى يكتسبها الطفل فى سنواته المبكرة فانها لا تزال عاجزة عن توضيح المستوى الدلالى الذى تنطوى عليه تلك الحصيلة المكتسبة ، فلايزال الارتقاء الدلالى الجانب الأكثر غموضا من جوانب

---

(٢١) انظر : د• محمد حسن عبد العزيز : مدخل الى اللغة ٥١ـ٥٧،
د• موفق الحمدانى : اللغة وعلم النفس ١٤٠ ـ ١٦٨ •
د• جمعة سيد يوسف : سيكلوجية اللغة والمرض العقلى ١١٢ـ١١٥
(٢٢) انظر : د• مصطفى فهمى : أمراض الكلام ٢٧ •

اكتساب اللغة على الرغم من المحاولات العديـــدة التى تعرضت له ، فبعض الباحثين يرى أن عملية تكوين المفاهيم تبدأ منذ الولادة ، ولا يستطيع الطفل أن يكتسب معانى الكلمات الا اذا تكونت لديه المفاهيم التى تربط بها الكلمات أولا • فى حين يرى باحثون آخرون أن الطفل فى سن العام والنصف الى العـــامين يتمتع بفهم العلاقـــة بين الرمز والمعنى ، وقد رفض هذا الرأى ، لأن عقل الطفل فى هـــذا الوقت من العمر قد لا يسمح له بالعمليات المركبة (٢٣) •

عوامل اكتســـاب اللغة :

أما العوامل التى تدفع الطفل الى اكتساب اللغة بمستوياتها فقد حصرها الاخوان فى اثنين : أحدهما يتصل بالأفلاك وتأثيرها فى الانسان « فاذا مضت سنون التربية ودفع القمر التـــدبير الى عطـــارد صاحب المنطق والتمييز أطلق لسان المولـــود بالعبارة والبيـــان عن معـــانى المحسوسات التى أدت الحاسة الى المفكرة » • وثانيهما يتصل بالفكر وقوته ونضجه ورؤيته وتجاربه وما جرت له به العادة ، وما يلزم ذلك من سلامة الحواس من الآفات العـــارضة ، وبخاصة حاستا الســـمع والبصر كمـــا ســـبق •

أما العامل الأول فزعم مرفوض واعتقاد باطل كما رأينا فى الفصل الثالث • وأما الثانى فمقبول ومسلم به •

---

(٢٣) انظر : د• جمعة سيد يوسف : ســيكلوجية اللغة والمرض العقلى ١٠٣ ــ ١١٢ •

تفاوت الناس فى اكتساب اللغة واسبابه :

ويتفاوت الناس فى اكتسابهم اللغة بشقيها المنطوق والمكتوب مثل ما يتفاوتون فى اكتساب المعارف عامة • وقد أشار الى ذلك الاخوان فى أكثر من موضع اذ يقولون :

« اعلم أن لكل أهل ملة وشريعة كتاب بأمر ونهى وحلال وحرام وقضايا وأحكام ، وصناعة من الكلام والكتابة والألحان والنغمات • وفيهم من هو عارف بكلية ذلك ، ومنهم دونه فى المعرفة ، ومنهم من قد عدم صناعة الكتابة الا أنه عارف بالأسماء والمسميات ، وينطق بحروف الأسماء ، ولا يعرف صورها ولا يحسن أن يخطها بيده ولا أن يؤلف بينها بنظره ويأخذ جميع ما يلقى اليه تلقينا ، وربما تجده جيد الخط قليل المعرفة ولا حسن سوى الخط المسطور من غير تصور ، ويكون منفعة ذلك لغيره لا له • ومنهم من يكون جيد المعرفة قليل النسيان ، فغرضه أن يعرف الأشياء التى يحتاج اليها مخافة أن ينساها ويستظهر منها ما تدعو حاجته اليها » (٢٤) •

ويقولون فى تفاوت الناس فى اكتسابهم اللغة نتيجة تفاوتهم فى القوتين السامعة والباصرة •

« واعلم أن بنى الانسان فى هاتين القوتين متفاوتوا الدرجات تفاوتا بعيدا جدا ، وذلك أن من الناس من لا يفهم الا لغة واحدة ، ولا يعرف أيضا من معانى تلك اللغة من الأشياء والألفاظ والأقاويل الا شيئا قليلا ، ومن الناس من يفهم عدة لغات ويحسن أن يقرأ عدة

---

(٢٤) انظر : رسائل اخوان الصفا جـ ٣/١٥٦ •

كلمات ، ويفهم من كل لغة أسماء وألفاظا وأقاويل كثيرة ، ويفهم معانى دقيقة ما لا يفهم غيره من الناس • وهذه أحد أسباب اختلاف الناس فى المعارف ، واختلاف العلماء فى الآراء والمذاهب »(٢٥) •

ومن الملاحظ من خلال هذا النص أن الانسان قد يتكلم بلغات متعددة وهذا أمر ممكن ، اذ نلاحظ أن بعض الأطفال الذين يعيشون فى بيئات تتكلم لغتين يمكنهم بسهولة اكتساب اللغتين ، وكذلك الأمر إذا ولد الطفل لأبوين مختلفى اللغة •

ومن ناحية أخرى فان تعلم اللغة الأجنبية تختلف صعوبته تبعا لسن المتعلم والبيئة التى يعيش فيها أثناء تعلمه للغة ، كما تختلف صعوبته تبعا لطبيعة تلك اللغة من حيث مشابهتها أو مخالفتها نطقا وكتابة للغة المتعلم الأصلية •

وقد تعددت طرائق تدريس وتعليم اللغات الأجنبية ، فمنها « طريقة الترجمة » التى تعتمد على تعليم حروف الهجاء بالطريقة التقليدية ثم تعليم الكتابة والقراءة ثم حفظ كلمات من اللغة الأجنبية من معانيها بلغة المتعلم الأصلية ؛ وهى طريقة عميقة ، ومنها « الطريقة المباشرة التى تركز على تعليم اللغة بالطريقة التى يتعلم بها الطفل لغته الأصلية ، وذلك باختلاق بيئة اللغة وعدم استخدام اللغة الأصلية للمتعلم أو أية لغة وسيطة ، كما تستعين بالحركة والصورة والوسائل المختلفة للربط بين اللفظ ومعناه • وهذه طريقة بطيئة وتتجاهل العادات التى يكونها المتعلم من استعمال لغته الأصلية ، وأيضا لا تعين على فهم المعانى المجردة •

ومنها « الطريقة السمعية الشفوية » وهى تبدأ بتعليم الكلمة

---

(٢٥) انظر : المرجع السابق جـ ٣ / ٤١٣ •

المسموعة قبل الكلمة المرئية ، أو بتعبير آخر تعليم الوحدة والأنماط الصوتية قبل محاولة تعليم القراءة والكتابة ، وتوجب استخدام الوسائل الصوتية والبصرية من أشرطة تسجيل وأفلام تعليمية وغيرها للاستماع والنطق والتدريب على الكلام والمقارنة لتصحيح الأخطاء . ولا تستبعد هذه الطريقة الاستعانة باللغة الأصلية أو الوسيطة اختصارا للوقت وتحديدا للمعنى . وتعد هذه الطريقة أحدث الطرق وأنفعها للبالغين (٢٦) .

وقد وضع الاخوان بذور تلك الطريقة حين قالوا كما سبق « اعلم أن فهم القراءة والكتابة ومعرفتها متأخرة عن فهم الكلام والأقاويل ، كما أن فهم الكلام والأقاويل ومعرفتها انما هى متأخرة عن فهم المحسوسات كما هو بين ظاهر لا يخفى على العقلاء » . وحين أكدوا أهمية السمع والبصر فى اكتساب اللغة والمعارف ، وأن من هاتين الطريقتين أكثر معلومات الانسان التى ينفرد بها دون سائر الحيوانات .

وقد أرجع الاخوان التفاوت فى اكتساب اللغة والمعارف عامة الى عدة أسباب ، بعضها يرجع الى الأفراد ذاته ، كتفاوت آلات قوتهم الداركة فى الجودة والرداءة ، وتفاوت تركيب أدمغتهم ومزاج أبدانهم . وبعضها يرجع الى البيئة التى يعيشون فيها ، كنشوئهم على سنن آبائهم وأستاذيهم ومعلميهم ، ومن يصحبونهم فى الطلب طول أعمارهم .

---

(٢٦) انظر : محمود مرسى راشد فى تقديمه لكتاب الدكتور على الحديدى : مشكلة تعليم اللغة العربية لغير العرب ٣ ـ ٧ . دار الكتاب العربى للطباعة والنشر .

وانظر د. نايف خرما ، على حجاج : اللغات الأجنبية : تعليمها وتعلمها ١٦٥ وما بعدها .

من اخوانهم وأصدقائهم ، مما يترتب على ذلك اختلاف طباعهم وأخلاقهم ولغاتهم وتفاوتهم فى تحصيل العلوم والمعارف(٢٧) .

وقريب من هذا ما ذكره المحدثون ، فقد أرجعوا تفاوت الأطفال فى محصولهم اللغوى فى سنوات حياتهم المبكر الى عدة عوامل ، منها: امكانية الطفل العقلية ، ومدى استجابة حواسه لما يدور حوله من منبهات سمعية وبصرية ولمسية ، والمستوى الثقافى للأسر ، والطريقة التى يعامل بها الطفل (٢٨) .

كما أرجعوا تطور لغة الطفل من التعبير عن الاحساس والرغبة والوجدان والنزوع الى نضج قوى الطفل العقلية وازدياد قدرته على الاتصال بالمجتمع (٢٩) .

كما أرجعوا تأخر الكلام الى عدة أسباب ، منها ما يتصل بنقص فى القدرة العقلية لعوامل وراثية تتصل بالناحية التكوينية المؤثرة فى تكوين الخلايا أو عوامل بيئية تؤثر فى الجنين بعد تكوينه ، سواء كان ذلك فى أثناء الحمل أو الوضع أو بعده .

كما أرجعوا فقد القدرة على التعبير بالكتابة الى وجود عطب فى مركز اليدين فى الفص الأمامى (الجبهى) ، كما أرجعوا بعض اضطرابات الكتابة الى اضطرابات الفص الخلفى (الجدارى) (٣٠) .

---

(٢٧) انظر : رسائل اخوان الصفا ج ٤٠٧/٣ ، ٤١٨ ، ٤٢٦
وانظر أيضا : الرسالة الجامعة ج ٧٠٩/١ .
(٢٨) انظر د. مصطفى فهمى : أمراض الكلام ٤٤ ــ ٤٧ .
(٢٩) انظر : لويس : اللغة فى المجتمع ٤١ .
(٣٠) انظر : د. مصطفى فهمى : أمراض الكلام ٦٨ ، ٩٣ ــ ٩٥ .

اكتســاب اللغة من خصائص البشر :

لقد فضل الانسان على ما سواه بقدرته على اكتساب اللغة . وقد أشار الاخوان الى تلك الأفضلية فيما نقلناه عنهم آنفــا ، وأيضــا في مواضع متفرقة من رسائلهم . فقد حبا الله الانسان بحواس يستطيع بواساطتها أن يدرك أموره وأمور غيره الماضية والحاضرة والمستقبلة ، ويعبر عنها نطقا وكتابة ، « فالانسان اذا سمع صوت الخشب والحديد والماء والريح أمكنه أن يخبر عن صوت كل واحد منها وينسبه الى ما حدث عنه وخرج منه ، والحيوان لا يعرف ذلك ، ولا يمكنــه أن يعبر عنه ويفصل ، كما عبر الانسان بقوة النطق والبيان عما سمع ، وبهذا فضل الله الانسان على غيره من الحيوان » (٣١) .

وقد رد الاخوان على من يزعم أن بعض الحيوانات تدرك معانى الكلام ، ولكنها لا تقدر على التعبير ، مؤكدين أفضــلية الانســان على غيره حين قالوا :

« اعلم أن الله تعالى خلق فى حواس الانسان زيادة قوة وجودة تمييز ما لم يجعل فى حواس ســائر الحيوانــات ، وبخاصة فى القوة اللامسة فضله عليها وكرمه بها ، كما جعل فى قوة يديه من الصــنائع العجيبة ، وفى قوة لسانه من اللغات المختلفة ما لم يجعل فى أيديها ولا فى ألسنتها ، كما هو بين ظاهر جلى لا يخفى على أحــد من العقلاء ، وقد يظن كثير من الناس العقلاء أن بعض الحيوانــات يفهم معــانى الكلام ويمتثل الأمر والنهى ولكن لا يقــدر على الكــلام كمثل الفيل والفرس والجواد ، والجمل ، والغنم ، والبقر ، والكلب ، والسنــور والقردة الببغاء ، وأمثالها من الحيوانات المسخرة للانسان المستأنسة

---

(٣١) انظر : رسائل اخوان الصفا ج ٣٠٥/٣ .

به ، المنقادة لخدمته ، ولعمرى أنها تفهم معانى بعض الكلام كالزجر والأمر والنداء وما شاكلها التى هى بعض أقسام الكلام ، فاما أن تفهم معانى الخبر والسؤال والجواب والاستفهام فلا »(٣٢) •

وقد ذكر الاخوان بعض الخصائص التى تميز لغة الانســـان عن الحيوان ، منا :

١ ـــ الأصوات التى يصدرها الانسان أصوات منطقية يمكن تقطيعها بالحرف بخلاف غيره •• يقول الاخوان : وأصـــوات الحيوانات على ضاربين منطقية وغير منطقية ، فغير المنطقية هى أصوات الحيوانات غير الناطقة وهى نغمات تسمى أصواتا ولا تسمى منطقا ، لأن النطق لا يكون الا فى صوت يخرج من مخرج يمكن تقطيعه بالحروف التى اذا خرجت عن صفة الحروف أمكن اللسان الصحيح نظمها وترتيبها ووزنها ، فتخرج مفهومة باللغة المتعارفة بين أهلهـــا ، فيكون بذلك النطق الأمر والنهى والأخذ والاعطاء والبيع والشراء والتوكيل وما تشاكل ذلك من الأمور المخصوصة بالانســـان دون الحيـــوان ، فهذا فرق مـــا بين الصوت والنطق » (٣٣) •

وعلى الرغم من أن معظم الحيوانات تمتلك جهازا نطقيا يقترب من جهاز نطق الانسان الا أنها لا تســـتطيع تقطيع أصواتهـــا لتصير كلاما ونطقا ، وعن ذلك الجهاز النطقى يقول الاخوان :

« فأما مخارج الأصوات من سائر الحيوان فانها من الرئـــة الى الصدر ثم الى الحلق ، ثم الى الفم ، ثم يخرج من الفم شـــكل على قدر عظم الحيوان وقوة رئته وسعة شدقيه ، وكلما اتســـع الحلقوم

---

(٣٢) انظر : رسائل اخوان الصفا جـ ٣/٤١٢ •

(٣٣) انظر : المرجع السابق جـ ٣/١٠١ •

وانفرج الفكان وعظمت الرئة زاد صوت ذلك الحيوان على قدر قوته وضعفه » (٣٤) .

٢ ــ صوت الانسان يسمى كلاما ولفظا متكلما ، ومنطقا . أما صوت الحيوان فانه يسمى بأسماء مختلفة حسب نوع مصدره ، يقول الاخــــوان :

« فالصوت فى الحيوان يسمى بأسماء مختلفة مثل قول القائل صهيل الفرس ، ونهيق الحمار ، ونباح الكلب ، وخوار الثور ، وزئير الأســد ، ونعيب الغراب ، وغير ذلك ، وأما الصوت المخصــوص به الانسان فانه يقال له كلام ولفظ متكلم ، كقول القــائل : فــلان يتكلم بالعربية والفارسية والرومية وغير ذلك » (٣٥) .

وإذا كان صوت الانسان يقال له كلام ولفظ ومنطق فــان هذا على سبيل الاجمال ، أما عند التفصيل فانما يقال « كــلام الخطيب ، وانشاد الشــعر ، وقــراءة القرآن ، وما شــاكل ذلك ، وينسب ذلك الكلام الى المعنى المقصود اليه به » (٣٦) .

٣ ــ أصوات الانسان لها معان علمية ، وأما أصوات الحيوان فانها ارادات طبيعية ، يوضح الاخوان هذا بقولهم :

« اعلم أن الكلام الدال على المعانى مخصوص به عالم الانسان ، وهو النطق التام بأى حروف كتب . والحيوان لا يشرك الانسان فيه من الجهات المنطقية والعبارات اللفظية ؛ لكن من جهة الحركة الحيوانية

---

(٣٤) انظر : المرجع السابق ج ١٠١/٣ ــ ١٠٢ .
(٣٥) انظر : المرجع السابق ج ١١٤/٣ .
(٣٦) انظر : المرجع السابق ج ١١٦/٣ ــ ١١٧ .

والآلة الجسمانية وحاجة فيها الى ذلك ، لانك تجد كثيرا من الحيوانات تريد بأصواتها دفع المضار وجذب المنافع ، تارة لأنفسها وتارة لأولادها مثل صياح البهـائم اذا احتجت الى الأكل ومنعت منـه ، والى شرب المـاء وزيدت عنه ، ومثل استدعاء أولادها وما غاب عنها ، وما شاكل ذلك من الطيـور التى تحاكى الانسان ، ومحـاكاة القرد للانسان فى جميع أفعاله وأكثر أعماله • فهذه الأشياء لما يريد الحيوان التطريب والتصويت والصياح لها ومن أجلها فانه لا يقال لها معان علمية وانما يقال لها ارادات طبيعية ، فأجساد الحيوانات مجبـولة عليها ، وانما استدعاؤها ايـاها بالتصـويت فى بعض الأوقـات اذا عدمتها وحيل بينها وبين ما تريد ، وقل ما يكون دالا بأصواتها على الأمر الأعم ، ولا معنى لها ، ولا يعرف المراد منها ولا القصد كصـياح الطيـور فى أكثر أوقاتها ، منها ما يصوت بالليل ومنها ما يصوت بالنهار ، وكذلك الحيوانات أكثرها ، ولكن المراد منها كلها اجتماع الجنس وقيام الشكل الى الشكل ، وبحسب ما فى كل شخص من أشخاص من قوة الحرارة الغريزية وحركة النفس الحيوانية ، فان كل شخص أكثر حرارة وأقوى حركة وأحيا نفسا كان أكثر صوتا وأدوم كلاما فى عموم الأوقـات ، وما كان دون ذلك كان بحسب ما فيه وما هو مجبول عليه »(٣٧) •

وعقل الانسان بطبيعة الحال هو الذى يحكم ويميز بين المعـانى العملية التى يحملها صوت الانسان ، والارادة الطبيعية التى يحملها صـوت الحيـوان :

« فماهية صوت الانسـان أنه غرض مفهـوم دال على معنى ، فتحتاج القوة المفكرة الى أن تفكر فيه وتفتش عن معنـاه ، وأصوات

---

(٣٧) انظر : المرجع السابق ج ٣/١١٥ ـ ١١٦ •

الحيوانات غير مفهومة ، لكن القوة المفكرة تقضي عليها أنها ما صوتت الا لحاجة ، وما أرادت به الا سبب أكل وشرب ونكاح » (٣٨) .

٤ ـ لغة الانسان مكتسبة ، أي يتعلمها الأبناء من الآباء ، ولابد للانسان ـ لكي يكون ناطقا ـ ان يعيش في مجتمع ، فاذا لم يتوفر له ذلك فسيظل محروما من اللغة ، ويرجع الاكتساب كما عرفنا الى حواس الانسان وقواه الدراكة التي خلق الله فيها زيادة قوة وجودة تمييز ، كما نقلنا عن الاخوان آنفا . أما لغة الحيوان فهي سلوك غرزي يتوارثه أفراد النوع الواحد كما يتوارثون أنواع السلوك الأخرى كالطعام والحركة وغير ذلك .

أما في الحديث فقد عكف العلماء المتخصصون في علمي النفس اللغوي والعصبي ، وعلم اللغة العصبي ـ منذ ما يزيد على نصف قرن ـ على دراسة لغة الحيوان وسلوكه ، ومقارنة ما ينتهون اليه بلغة الانسان وسلوكه . وتشير نتائج الدراسات على تعددها الى أفضلية الانسان على غيره بقدرته على اكتساب اللغة ، وأنه هو الحيوان الوحيد الذي يستخدم تلك الظاهرة الانسانية (٣٩) .

فمن المتفق عليه أن لغة الانسان تعد من الخصائص التي اختص

---

(٣٨) انظر : المرجع السابق جـ ٣/١٣٠ .

(٣٩) انظر : ميسنت أ . سلسام : لغة الحيوان . ترجمة : د. كامل منصور . دار نهضة مصر للطباعة والنشر ، وتندراتوفا : الاصوات والاشارات ١٣ ـ ١٥ ، ٢٦ ـ ٢٩، ١٩٤ ـ ١٩٦ ، د. محمد حسن عبد العزيز : مدخل الى اللغة ٩، ـ ٣٧ ، د.موفق الحمداني : اللغة وعلم النفس ١٦ ـ ٢٥ ، د. جمعة سيد يوسف : سيكلوجية اللغة والمرض العقلي : ٩ ـ ١٣ ، ١٠١ ١٠٢ ١٢٢ ، ١٥٩ ـ ١٦٤ .

الله بها بنى الانسان ، وينفرد بها عن سائر المخلوقات ، وأنه وحده هو القادر على استخدام اللغة منطوقة ومكتوبة لتحقيق التواصل والاتصال بأبناء جنسه على اختلاف بيئاتهم ، وأنه وحده هو القادر على أن يعبر عن أفكاره ومشاعره وتجاربه وخبراته ومعارفه وأموره الماضية والحاضرة والمستقبلة بألفاظ وعبارات مفهومة لدى أبناء مجتمعه وعشيرته .

وقد أرجعوا هذا التفرد الى ما يمتلكه الانسان حين يولد من قدرة فطرية من استخدام اللغة ، . حيث يولد مزودا بأعضاء صوتية وجهاز عصبى يمكنانه من النطق والادراك . وأكدوا أن ملامح جهازه العصبى فى المخ تجعل تواصله اللغوى ميزة ينفرد بهما ، حيث يتميز بمخ أكبر ، يتمركز فيه عددا كبيرا من مناطق الاحساس والحركة التى تعمل فى توافق وترابط لا نظير له ، حيث تقوم بتحويل الاشارات البصرية والسمعية الى تكوينات لفظية .

واذا كانت معظم الحيوانات تمتلك وسائل للتواصل والتفاهم القدرة على اصدار الأصوات المقطعة تقطيعا كلاميا ، حيث يمتلك مجموعة متعددة من العضلات الوجهية التى تسمح بحركة كبيرة للشفتين والوجنات والفكين : كما يمتلك لسانا مرنا يتحرك فى كل الاتجاهات ، وأسنانا متراصة وبلعوم أطول من غيره من الحيوانات .

واذا كانت معظم الحيوانات تمتلك وسائل للتواصل والتفاهم فيما بينها ، وبخاصة الببغاوات والنمل والقردة والنحل ، والتى تبهر الناس بما تحققه من اتصال ، فانها لا تمتلك المقدرة اللغوية التى حبا الله بها الانسان والتى بوساطتها يكتسب لغته من مجتمعه ويعبر تعبيرا مقصودا عن المحسوسات والمعنويات والتجارب والخبرات وغير ذلك بنظام من رموز مكتوبة وكذا لغوية متنوعة بتنوع البيئات ، بالغة الدقة والتعقيد والتركيب على الرغم من قلتها .

فبعض الحيوانات ـ كالشمبانزى ـ يظهر أنماطا من السلوك تجعلها تحتل مرتبة أعلى من حيث الذكاء ، ولكنها تعانى من نقص القدرة على تحويل الاشارات الصوتية التى تصدرها الى رموز لغوية تمكنها من تأدية الوظائف اللغوية التى يقوم بها الانسان (٤٠) • وهذا يرجع الى فروق تشريحية فى تركيب المخ بين الانسان والحيوان • وقد أثبتت الدراسات أن الطفل البشرى فى السنة الثانية من عمره يتفوق فى قدراته الذهنية على أذكى الحيوانات وعلى رأسها قردة « الشمبانزى » •

واذا كانت معظم الحيوانات على رأسها قردة الشمبانزى ـ تمتلك جهازا صوتيا يقترب كثيرا من جهاز الانسان فان تصويتها لا يعدو أن يكون فطريا غير مكتسب ولا يؤثر فيها التعلم الا فى نطاق محدود ، ولا تعبر الا عما هو موجود فى الوقت الحاضر ، ولا يظهر الا كاستجابة لموقف محدد •

وهكذا تؤكد نتائج الدراسات الحديثة تلك الفكرة التى طرقها اخوان الصفا منذ القدم وهى أفضلية الانسان على غيره بتحصيل اللغة واكتسابها •

---

(٤٠) استطاع بعض العلماء أن يعلموا القردة فى سن خمس سنوات اللغة عن طريق الاشارات اليدوية التى يستعملها الصم والبكم • واستطاعت أن تكتسب ـ كما يزعمون ـ (٢٠٠) كلمة ، ولكن هذا لايشكل لغة حقيقية ، اذ هى لاتستطيع ان تركب الفاظا وجملا ، أو أن تعبر ما يعبر عنه الانسان من مشاعر وأحاسيس ونقل تجارب ••• الخ •

الفصل السابع

اللفـــظ والمعـــنى

لقد سبق أن تحدثنا فى الفصل الأول عن تصـــور الاخوان للغة والفكر ، وصلة كل منهما بالآخر ، وآراء العلماء فى تلك الصلة .

ونتحدث هنا عن تصورهم لمفهوم اللفظ ومعناه ، والعلاقة بينهما .

وموضوع هذا الفصل له ارتباط وثيق بموضوع الفصل الأول ، غير أنا أرجأناه الى هنا حتى يكون القارىء قد وقف على كيفية أدراك المخ البشرى الأصوات اللغوية واكتسابها ، وعلى تصور اخوان الصفا لهذه الكيفية .

والحقيقة أن مسائل اللفظ والمعنى متعددة ، وقد شغلت أذهـــان اللغويين والنقاد والأدباء والفلاسفة وغيرهم فى القديم والحديث .

ولاخوان الصفا تصور لبعض تلك المسائل فى اللغة بمعناها العام، وفى اللغة العربية بشكل خاص . ولكننا سنرجىء المســائل المتعلقة بالعربية الى الفصل القادم تمشيا مع خطتنا .

ومن أهم المسائل المتعلقة باللفظ والمعنى فى اللغة بمعناها العام ، ماهية وأهمية كل منهما .

١ ــ ماهية كل من اللفظ والمعنى :

يقول الاخوان : « الألفــاظ تدل على المعــانى ، والمعــانى هى المسميات والألفاظ هى الأســماء ، وأعم الالفاظ والاســماء قولنــا « الشىء » (١) .

---

(١) انظر : رسائل اخوان الصفا ج١/٤٩ .

ويقولون ـــ كما سبق فى الفصل الأول ـــ :

« الألفاظ هى سمات دالات على المعانى التى فى أفكار النفوس، وضعت بين ليعبر كل انسان عما فى نفسه من المعانى لغيره من الناس عند الخطاب والسؤال » (٢) •

ويرون أيضا أن المعانى هى صور ورسوم فى أفكار النفوس تناولتها بطريق الحواس (٣) •

وقد سبق فى الفصل الأول أن النطق فى تصورهم ينقسم الى قسمين : لفظى وفكرى ، وقد عرفوا النطق الفكرى بأنه تصور النفس معانى الأشياء فى ذاتها ورؤيتها لرسوم المحسوسات فى جوهرها ، وتمييزها لها فى فكرتها » •

أما معانى الأشياء التى تتصورها النفس فهى فى نظر الاخوان جواهر وأغراض ، وصور وأعيان (٤) ، أو محسوسات ومعقولات • ويتوقف ادراك الأمور المعقولة على معرفة الأمور المحسوسة كما سبق نقله عن الاخوان فى أثناء الحديث عن ادراك الصوت اللغوى ، وكما أكدوه فى مواضع متفرقة من رسائلهم ، ومن ذلك قولهم :

« اعلم يا أخى أن البارى جل جلاله جعل الأمور الجسمانية المحسوسة كلها مثالات ودلالات على الروحانية العقلية ، وجعل طرق الحواس درجا ومراقى يرتقى بها الى معرفة الأمور العقلية التى هى الغرض الأقصى فى بلوغ النفس اليها • فاذا أردت ياأخى أن تبلغ الى

---

(٢) أنظر : المرجع السابق ج ٣٩٨/١ •
(٣) انظر : المرجع السابق ج ٣٩٢/١ ، ٣٩٨ ، ٤٠٠ •
(٤) انظر المرجع السابق ج ٤٠١/١ •

أفضل المطلوبات وأشرف الغايات التى هى الأمور العقلية فاجتهد فى معرفة الأمور المحسوسة فانك بذلك تندل الأمور العقلية ، وقد بينا فى رسائلنا الطبيعية طرفا من ذلك • ثم اعلم أن معرفة الأمور الجسمانية المحسوسة هى فقر النفس وشدة الحاجة ، ومعرفة الأمور المعقولة الروحانية هى غناها ونعيمها ؛ وذلك أن النفس فى معرفة الأمور الجسمانية محتاجة الى الجسد وحواسها وآلاتها لتدرك بتوسطها الأمور الجسمانية ، وأما ادراكها الأمور الروحانية فبكفيها ذاتها وجوهرها بعدما تأخذها من الحواس بتوسط الجسد ، واذا حصل لها ذاك فقد استغنت عن الجسد وعن التعليم بالجسد بعد ذلك » (٤) •

ومعانى الأشياء التى تتصورها النفس قد أطلقوا عليها حروفا فكرية — كما سبق — حين جعلوا الحروف أنواعا ثلاثة : فكرية ولفظية وخطية ، وعرفوا الفكرية بأنها « صورة روحانية فى أفكار النفوس مصورة فى جواهرها قبل اخراجها معانيها بالألفاظ » ، وعرفوا الحروف اللفظية بأنها « أصوات محمولة فى الهواء فمدركة بطريق الأذنين بالقوة السامعة » ، وعرفوا الحروف الخطية بأنها « نقوش خطت بالأقلام فى وجوه الألواح وبطون الطوامير ، مدركة بالقوة الباصرة بطريق العينين » (٥) •

وقد عرفنا أيضا أن البحث فى الأفكار أو ما سموه بالنطق الفكرى أو الحروف الفكرية مجاله — فى تصورهم — علم المنطق الفلسفى الذى يعنى بمعرفة كيفية ادراك النفس معانى الموجودات فى ذاتها بطريق الحواس ، وكيفية انقداح المعانى فى فكرها من جهة العقل الذى يسمى الوحى والالهام ، وعبارتها عنها بألفاظ بأى لغة كانت » •

---

(٤) انظر : المرجع السابق ج ٣/٢٤٦ — ٢٤٧
(٥) انظر : المرجع السابق ج ١/٣٩٣ •

أما البحث فى الألفاظ والأسماء أو ما سموه بالمنطق اللفظى فمجاله علم المنطق اللغوى كما سبق •

وقد ذكـروا أن الحكماء حصروا معانى الموجودات كلها فى عشرة ألفاظ وهى : الجوهر ، والكم ، والكيف ، والمضاف ، والأين ، ومتى ، والنصبة « الوضع » ، والملكة ، ويفعل ، وينفعل •

وكل لفظة من هذه الالفاظ اسم الجنس من الأشياء الموجودة ، وكل جنس ينقسم الى عدة أنواع ، وكل نوع الى أنواع أخر ، وهكذا دائما الى أن تنتهى القسمة الى الأشخاص (٦) •

وربما اجتمعت هذه المعانى فى شخص واحد ، والمثال على ذلك — كما يقولون — زيد ، فانه جوهر ، وفيه كمية ، لأنه طويل ، وفيه كيفية ، لأنه أسود ، وفيه مضـاف ، لأنه ابن ، وأين ؛ لأنه فى مكان ، ومتى ؛ لأنه فى زمان ، ونصبة ، لأنه قائم أو قاعد ، وملكة ، لأنه ذو مال ، ويفعل اذا ضرب ، وينفعل اذا ضرب « بضم الضاد » (٧) •

وذكروا أن كلا من الجـوهر والكيف قد يكون جسـمانيا يدرك بالحواس ، وقد يكون روحانيا يدرك بالعقول كالعلم والقدرة والشجاعة والأخلاق بعامة ، والعلوم ، والاعتقادات والآراء والأعمال (٨) •

وقد شبهوا هذه الألفاظ العشرة وما تحمل من معان ببستان ، اذ يقولون : « اعلم يا أخى بأن مثل هذه العشرة الألفاظ وما يتضمنها من المعـانى التى هى عشـرة أجنـاس ، المحتويـة عـلى جميـع معانى الأشـياء ومـا تحت كل واحـد مـن الأنـواع ، ومـا تحت تلك

---

(٦) انظر : المرجع السابق ج ١/٤٠٥ •
(٧) انظر : المرجع السابق ج ١/٤٠٨ •
(٨) انظر : المرجع السابق ج ١/٤٠٩ •

الأنواع من الأشـخاص كمثل بسـتان فيه عشر أشـجار ، على كل شجرة عدة فروع وأغصان ، وعلى كل غصن عدة قضـبان ، وعلى كل قضيب عدة أوراق ، وتحت كل ورقة عدة أنوار (أزهار) وثمار ، وكل ثمرة لها طعم ولون ورائحة لا تشبه الأخرى ، وأن مثل النفس اذا هى عرفت معانى هذه العشرة الأجناس وتصورتها فى ذاتها ، وتأملت فنون تصاريفها وما تحتوى عليه من المعلومات المختلفة الصور المفننة الهيئات الملونة الأصباغ ، كمثل صاحب ذلك البستان اذا فتح بابه ونظـر الى ما فيه من الألوان والأزهار ، واشتم من روائح تلك الأنوار وتناول من تلك الثمار ، وتطعم من تلك الطعوم وتمتع بنتائج ذلك البستان ، فاجتهد يا أخى فى طلب العلوم وفنون الآداب ، فان العلوم بساتين النفوس ، وفنون معانيها وفوائدها ألوان الثمار»(٩) •

والمعنى سبيله اللفظ ، والفكرة حين يعبر عنها باللفظ فانها تسمى فى هذه الحالة معنى •

وحين يقترن اللفظ بالمعنى فأنه يأخذ مصطلحات عديدة ، تلمـح بعضها فى قول الأخوان ، فى فصل عقدوه للألفاظ الدالة على المعانى :

« أولا : ما الاسم ، وما المسمى (بكسر الميم) ، وما التسمية ، وما المسمى (بفتح الميم) ؟ ونقول ، أيضا : من الواصف ، وما الوصف ، وما الموصوف ، وما الصفة ؟ وأيضا : من الناعت ، وما المنعوت ، وما النعت ؟

تفسيرها : الاسم : كل لفظة دالة على معنى من المعانى يلازمان ، والمسمى (بكسر الميم) هو القائل ، والتسمية هى قول القائل ، والمسمى (بفتح الميم) هو المعنى المشار اليه ، والواصف هو القائل ، والوصف

---

(٩) انظر : المرجع السابق جـ ٤١٢/١ ـ ٤١٣ •

هو قول القائل ، والموصوف هو الذات المشار اليه ؛ والصفة هي معنى متعلق بالموصوف ، والناعت هو القائل ، والنعت هو قول القائل ، والمنعوت هو الذات المشار اليه ، وليس له لفظة رابعة ، تدل على معنى متعلق بالمنعوت كما كانت الصفة متعلقة بالموصوف » (١٠) .

وللنحويين والمناطقة مصطلحات تدل على المعانى ، ذكرها الاخوان فى قولهم :

« ان الكلام كله ثلاثة أنواع : فمنها ما هى سمات دالات على الأعيان ، يسميها المنطقيون والنحويون الأسماء ، ومنها ما هى سمات دالات على تأثير الأعيان بعضها فى بعض ويسميها المنطقيون الكلمات ، ومنها ما هى سمات دالات على معان فأنها أدوات للمتكلمين تربط بعضها ببعض،كالأسماء بالأفعال والافعال بالاسماء،يسميها النحويون الحروف، ويسميها المنطقيون الرباطات . فالأسماء كل لفظة دالة على معنى بلازمان كقولك : زيد وعمرو وحجر وخشب وما شاكلها من الألفاظ ، والفعل مثل ضرب يضرب ، وعقل يعقل ، وهو كل لفظة دالة على معنى فى زمان ، والحروف مثل قولك من وفى على وما شاكلها من ألفاظ مذكور شرحها فى كتب النحو ، وبالجملة ينبغى لمن يريد أن ينظر فى المنطق الفلسفى أن يكون قد ارتاض أولا فى علم النحو قبل ذلك واعلم يا أخى أن الكلمات والأسماء اذا اتسعت صارت أقاويل ... » (١١) .

ثم نراهم يذكرون المصطلحات التى أوردها المناطقة مثل الايجاب والسلب والصدق والكذب والحكم والشرط والسور الكلى والسور الجزئى ، والمهمل والمخصوص ... الخ (١٢) .

---

(١٠) انظر : المرجع السابق ج ٣٩٤/١ ــ ٣٩٥ .
(١١) انظر : المرجع السابق ج ٤١٤/١ ــ ٤١٥ .
(١٢) انظر : المرجع السابق ج ٤١٥/١ ــ ٤١٦ .

وهكذا نخلص مما تقدم الى أن الأفكار — في نظر الاخوان — هي صور مختزنة في الأذهان ، مكتسبة بطـريق الحواس ، وتلك الأفكار تسمى معان حين يعبر عنها بالألفاظ ، والأقوال .

وقد أطلقوا على الأفكار نطقا فكريا ، وحروفا فكرية ، ومجـال بحثها علم المنطق الفلسفي . بينما أطلقوا على الألفاظ أو الكلام (سواء كان اسما أو فعلا أو حرفا) نطقا لفظيا ، وحروفا لفظية ، ومجال بحثها علم المنطق اللغوى .

وكثير من الفلاسفة قد نظر نفس نظيرة اخوان الصفا للمعنى(١٣).

هذا ويمكن أن نطلق على الألفاظ « الدال » ، وعلى الأفكار (أو المعانى) « المدلول » ، وعن العلاقـة القائمـة بين الألفاظ والمعـانى « النسبة » (١٤) ، أو « الدلالة » (١٥) .

واطلاق القول على اتساق الكلمات والألفاظ لا يعد خلطـا : كما يقال ، « لا عيب أن نلتقى معانى الألفاظ الثلاثة لاشتمال الأصـوات عليها ، فكل لفظ يمكن أن يطلق عليه قول ، لأن القول هو كل ما يتلفظ به،

---

(١٣) انظر : الجرجانى : التعريفات ١٩٦ ط الحلبى ١٣٥٧ هـ/ ١٩٣٨ م ، د: محمد حسن جبل :. المعنى اللغوى ٤٦ دراسـة نظرية وتطبيقية . الطبعة الاولى ١٤٠١ هـ /١٩٨١ م .

(١٤) انظر : د. عبد الغفار هلال : علم اللغة بين القديم والحديث ٢٠٣ الطبعة الاولى ١٩٧٩ م .

(١٥) انظر : الجرجانى : التعريفات ٩٣ . وقد عرف الدلالة بأنها « كون الشيء بحالة يلزم من العلم به العلم بشيء اخر ، والشيء الاول هو الدال ، والثانى هو المدلول » .

وكل لفظ بهذا المعنى قول ، والكلمة ليست الا لفظا ، فلا مانع من اطلاق اسم القول عليها ، وهذا لا يعد خلطا » (١٦) .

ونرى أحد الباحثين المحدثين يفرق بين اللفظ والكلمة ، ويرى أن « اللفظ يشير بوجه خاص الى الناحية الصوتية من الكلمة ، وأن الكلمة تشير اليها والى المفهوم المعنوى للفظ معا ، وقد لاحظ هذا المعنى نحاتنا القدماء حين عرفوا الكلمة بأنها لفظ مفيد لمعنى ، على أن العرف جرى على استعمالهما فى معنى واحد واعتبارهما مترادفين ، والاغضاء عما بينهما فى الأصل من فرق دقيق » (١٧) .

كما يرى أن اللفظ « يثير فى ذهن السامع صورة الشيء الذهنية ومفهومه لا الشيء نفسه ، ويكون الانتقال الى الأشياء الحسية عن طريق هذه الصور الذهنية أو المفاهيم أو المعانى القائمة فى أذهان الناس والمتكونة فيها بنتيجة تجاربهم » (١٨) .

كما يرى أن الدلالة (وهى اثارة اللفظ للمعنى الذهنى ، أو لمداوله ، ليست مرادفة للمعنى ، ففى الاتصال اللغوى رمز دال هو اللفظ ، ومدلول هو المعنى ، ودلالة هى الارتباط بينهما .

ويرى أن العلم الباحث فى صلات الألفاظ بعضها ببعض هو النحو ، والعلم الباحث فى ما بين المعانى من صلات هو الفلسفة ، والعلم الباحث فى ما بين الألفاظ والمعانى من صلات هو مبحث الدلالة من علم اللغة .

وبعد أن عرفنا تصور الاخوان لمفهوم اللفظ والمعنى ، نتساءل :

---

(١٦) انظر : د. عبد الغفار هلال : علم اللغة بين القديم والحديث ٢٠٤ ــ ٢٠٥ .

(١٧، ١٨) انظر : محمد المبارك : فقه اللغة وخصائص العربية ١٦٧ الطبعة الثالثة ١٩٦٨ بيروت .

هل الألفاظ موضوعة بإزاء المعانى التى هى الأفكار والصور الذهنية ، كما هو المستخلص من نظرة الاخوان ؟ أم هى موضوعة للأشياء الخارجية ؟

لقد ناقش العلماء هذه الفكرة فى القديم والحديث :

فقد خصص السيوطى فى النوع الأول من مزهره مسألة لهذه الفكرة ونقل عن أقوالا عديدة لتوضيحها (١٩) ، فممن ذهبوا الى أن الألفاظ موضوعة بازاء الصور الذهنية الامام فخر الدين الرازى (ت ٦٠٦ هـ) وأتباعه واستدلوا عليه بأن اللفظ يتغير بحسب تغير الصورة فى الذهن ، فان من رأى شبحا من بعيد وظنه حجرا أطلق عليه لفظ الحجر ، فاذا دنا منه وظنه شجرا أطلق عليه لفظ الشجر ، فاذا دنا وظنه فرسا أطلق عليه اسم الفرس ، فاذا تحقق أنه انسان أطلق عليه لفظ الانسان ، فبان بذلك أن اطلاق اللفظ دائر مع المعانى الذهنية دون الخارجية ، فدل على أن الوضع للمعنى الذهنى لا الخارجى .

وممن ذهبوا الى أن الألفاظ موضوعة بازاء الماهيات الخارجية أبو اسحاق الشيرازى ، وذكر السيوطى أنه هو المختار ، وأجيب عن الدليل الذى ساقه الرازى وأتباعه بأنه « انما دار مع المعانى الذهنية لاعتقاد أنها فى الخارج كذلك ، لا لمجرد اختلافها فى الذهن » .

وينقل السيوطى عن الأسنوى فى شرح منهاج الامام البيضاوى رأيا ثالثا وهو أن اللفظ موضوع بازاء المعنى من حيث هو مع قطع النظر عن كونه ذهنيا أو خارجيا ، فان حصول المعنى فى الخارج والذهن من الأوصاف الزائدة على المعنى ، واللفظ انما وضع للمعنى من غير تقييده

---

(١٩) انظر : المزهر جـ ٤٢/١ ـ ٤٦ .

بوصف زائد ، ثم ان الموضوع له قد لا يوجد الا فى الذهن فقط كالعلم ونحـــوه » •

ويفصل الزركشى فى البحر المحيط بين وضع المفردات والتراكيب ـ على ما ذكره السيوطى ، فيرى أن المفردات عقلية ، بلا خلاف ، أمـــا المركبات نحو « قام زيد » ، « وعمر ومنطلق » فقيل عقلية ، وهو ظاهر كلام ابن مالك ، وقيل غير عقلية ، وهو ظاهر كلام ابن الحاجب ، وقيل هو رأى الجمهور •

هذا ويعد ابن سينا من المتقدمين الذين يرون ما رآه اخوان الصفا أن اللفظ وضع للصورة الذهنية • ويعد الامام ســـعد الدين التفتازانى (ت ٧٩٣ هـ) الذى رأوا نفس الرؤية (٢٠) •

ونرى الجدل نفسه فى الحديث ، فنرى بعض النظريات تؤمن بأن الكلمة تعبر عن الشىء الخارجى مباشرة (٢١) • ونرى من نظريات أخرى بأن الكلمة تعبر عن المدلول أو الفكرة (الصورة الذهنية) ، ومن ثم فان الكلمات ترتبط بالأشياء الخارجية بوساطة تلك الصور • وهذه النظـــرية الحديثة هى نفس النظرية التى استخلصناها من نظرة اخوان الصفا •

وأشهر من عنى بها فى العصر عالما النفس «أوجدن،رينتشاردز»(٢٢) وقد أوضحا العلاقة بين اللفظ والمدلول فى شكل مثلث على النحو الآتى :

---

(٢٠) انظر : د• محمد حسن جبل : المعنى اللغوى : دراســـة نظرية وتطبيقية ٦٢ •

(٢١) انظر : د• محمد حسن عبد العزيز : مدخـــل الى اللغـــة ١٤٠ ـ ١٤٢ •

(٢٢) انظر : شيفن أولمان : دور الكلمـــة فى اللغـــة ٦١ ـ ٦٥ ترجمة : د• كمال محمد بشر ط القاهرة ١٩٧٥ •

(الفكرة ، المدلول ، الصورة الذهنية للشيء)



(الواقع ، الشيء الخارجي) (اللفظ ، المنطوق ، الرمز)

فالعلاقة بين الشيء والفكرة علاقة مباشرة ، وكذلك بين اللفظ والفكرة فكلاهما يستدعي الآخر .

وقد اعترف « ستيفن أولمان » بأن هذه الصورة كانت معروفة بالفعل لدى فلاسفة العصور الوسطى » (٢٣) .

ويهتم عالم النفس والفيلسوف بالعلاقة بين الشيء وصورته الذهنية ، بينما اللغوى يركز اهتمامه على العلاقة بين الصورة الذهنية للشيء واللفظ .

وقد اعترض بعض اللغويين المحدثين على هذه النظرية لعدة أسباب منها (٢٤) :

١ ــ أن مصطلحات الفكرة ، والصورة الذهنية والربط الذهنى ... الخ هى مصطلحات أولى بعلم النفس منها بعلم اللغة ، واستعمالها فى مجال الدراسات اللغوية يؤدى الى الخلط فى مراحل البحث اللغوى وفى نتائجه .

---

(٢٣) انظر : المرجع السابق ٦٣ .

(٢٤) انظر ما قاله الدكتور كمال بشر فى التعليقة رقم (٣٥) فى ص ٦٥ من المرجع السابق .

٢ ــ أنه ليس لدى اللغويين المقدرة على معرفة ما يجرى فى الذهن ومحتوياتــه •

وقد وجدت نظرية ثالثة تنسب الى العالم الأمريكى « بلومفيلد »، تفسر المعنى اللغوى على أساس النظرية السلوكية التى تعتمد فى بحوثها على تصرفات الانسان وسلوكه فى المواقف المختلفة مع الاهتمام بعنصرى الاثارة ورد الفعل أو الاستجابة •

وبناء على هذا يعرف المعنى بأنه عبارة عن الموقف الذى ينطق فيه الحدث اللغوى المعين ، والاستجابة أو رد الفعل الذى يستدعيه الحدث فى نفس السامع ، وبعبارة أخرى نقول ان المعنى هو الحوادث السابقة للكلام (أى المثيرات والدوافع التى تدفــع المتكلم الى أن يتكلــم) ، والحوادث التالية (أى الاستجابة التى يبديها السامع) •

وقد حكم على هذه النظرية بأنهــا تفسر المعنى تفســيرا آليــا (ميكانيكيا) وفقا لعلم النفس على الرغــم من محاولة تلك النظريـــة التخلص من آراء العقليين الذين يعتمدون فى دراستهم على الفكر أو الصورة الذهنية للأشياء •

وقد أخذ على تلك النظرية اهمال العوامل الانسانية كالدوافــع والرغبات التى ينبىء عنها المعنى (٢٥) •

وقد وجدت نظرية رابعة تنسب الى العالم الانجليزى « فيرث » لا تهمل تلك العوامل الانسانية فى دراسة المعنى وتعالجها بطريقة لغوية ودون افتراض أو تخمين لما يجرى فى ذهــن المتكلم كما يفعــل علماء

---

(٢٥) انظر التعليقة السابقة فى نفس المرجع السابق ٦٥ ــ ٦٦ ، د• كمال بشر : علم اللغة : الاصوات ١٠ ــ ١٢ •

النفس • وبناء على هذا لا يتأتى المعنى اللغوى العام لكلمة ما الا بدراستها صوتيا وحرفيا ونحويا ومعجميا واجتماعيا (٢٦) •

(ب) أهمية اللفظ والمعنى :

لقد تحدث الاخوان عن أهمية اللفظ للمعنى ، والمعنى للفظ ، وأثرهما فى النفوس أما عن أهمية كل منهما للآخر وللانسان فنراها فى قولهم :

« والغرض من الكلام تأدية المعنى ، وكل كلام لا معنى له فلا فائدة للسامع منه ، والمتكام به • وكل معنى لا يمكن أن يعبر عنه بلفظ ما فى لغة ما فلا سبيل الى معرفته ، وكل حيوان ناطق لا يحسن أن يعبر عما فى نفسه فهو كالعدم الزائل والجماد الصامت » (٢٧) •

والمعنى روح واللفظ جسده ، اذ يقولون :

« الحروف التى هى أصوات مفردة اذا ألفت صارت ألفاظا ، وأن الألفاظ اذا ضمنت المعانى صارت أسماء ، وأن الأسماء اذا ترادفت صارت كلاما ، وأن الكلام اذا ألصق صار أقاويل ، واعلم أن المعانى هى الأرواح ، والألفاظ كالأجساد لها ، وذلك أن كل لفظة لا معنى لها فهى بمنزلة جسد لا روح فيه ، وكل معنى فى فكر النفس لا لفظ له فهو بمنزلة روح لا جسد له » (٢٨) •

ويوضح الاخوان حاجة المعنى الى اللفظ فى فصل عنوانه « حاجة الانسان الى المنطق » نقلنا منه جزءا فى الفصل الأول ، ومنه قولهم .

---

(٢٦) انظر المرجعين السابقين •

(٢٧) انظر : رسائل اخوان الصفا ج ٣/١٠٨ ـ ١٠٩ •

(٢٨) انظر : المرجع السابق ج ١/٤٠٠ ، وراجع ج ٣/١٠٩ ، ١٢٢ •

« اعلم أيها الأخ أنه لو أمكن الناس أن يفهم بعضهم من بعض المعاني التي في أفكار نفوسهم من غير عبارة اللسان لما احتاجوا الى الأقاويل التي هي أصوات مسموعة ، لأن في استماعها واستفهامها كلفة على النفوس من تعليم اللغات ، وتقويم اللسان ، والافصاح والبيان ... الخ » (٢٩) .

وأما عن تأثير الكلام وما يحمل من معنى في نفوس البشر فيوضحه الاخوان في قولهم :

« فأما النطق فان الموضوع فيه جواهر النفس الجزئية الحية ، وتأثيراته فيها روحانية ، مثل الوعد والوعيد والترغيب والترهيب والمديح والهجاء ، والدليل على ذلك ما يتبين لنا من تأثيرات الكلام في النفوس ، مثل ما يرى من تأثيرات الأجسام بعضها في بعض ، وذلك أن تأثيرات الأجسام بعضها في بعض نوعان : مفسد ومصلح ، فالمصلح مثل الطعام والشراب المصلحين لأجساد الحيوانات ، ومثل العقاقير والأودية المصلحة لأجساد المرضى ، والمفسد مثل النار المهلكة لأجساد الحيوانات وأجساد النبات ، ومثل الضرب بالسيف والسكين وما شاكله من الأجساد المفسدة المهلكة لأجسام الحيوانات . فكذا حكم الكلام والأقاويل في النفوس نوعان : مصلح ومفسد ، فالمصلح كالمديح والثناء الجميل الباعثين للنفوس على مكارم الأخلاق ، ومثل المواعظ والمواعيد الزاجرين النفوس عن الأفعال القبيحة وعن مساوىء الأخلاق ، والمفسد من الكلام للنفوس كالشتيمة والتهديد والتقبيح من الأقاويل الجالبية الى النفوس العداوة والبغضاء ، كما يقال : رب كلمة جلبت فتنة وحروبا ، كما قيل في المثل : ان سبب العداوة بين الغربان والبوم كلمة تكلم بها الغراب يوم اجتماع الطير على تمليك البوم ، ورب كلمة أطفأت نيران الحروب ، كما قيل في قصيدة :

---

(٢٩) انظر : المرجع السابق ج ٤٠٢/١ .

لفظ يثبت فى النفوس مهابة ⠀⠀ يكفى كفاية قائــد القــواد
لاتبلغ الأسياف باستهلاكها ⠀⠀ ما تبلغ الأقــلام بالايماد

ومن فضيلة النطق أيضا أنه كاد أن يكون مطابقا للموجودات كلها كمطابقة العدد للمعدودات ، والدليل على ذلك كثرة اللغات ، واختلاف الأقاويل ، وفنون تصاريف الكلام مما لا يبلغ أحد كنه معرفتها الا الله عز وجل » (٣٠) •

ونظرتهم الى كون النطق مطابقا للموجودات كلها نابعة من نظرتهم الى الكواكب والايمان بتأثيرها فى الكائنات التى دون فلك القمر ، وهى نظرة مردودة وباطلة كما سبق فى فصل التطور اللغوى •

---

(٣٠) انظر : رسائل اخوان الصفا جـ ١/٣٩٠ ـ ٣٩١ •

الباب الثانى

اللغــة العربيــة

وقفنا فيما سبق على تصور اخوان الصفا للغة والفكر وعلاقة كل منهما بالآخر ، ونشأة اللغة بشقيها المنطوق والمكتوب ، وتطورت اللغــة وأسبابه واتجاهاته ، والصوت العام وأنواعه ومراحل تكوينه ، والصوت اللغوى ومستويات أدائه والمراحل التى يمر بها فى أثناء عملية التواصل، والاكتساب اللغوى وطرقه وعوامله ثم مفهوم اللفظ اللغوى ومعناه ، وعلاقة كل منهما للآخر ، وأهمية كل منهما •

وقد تعرض الاخوان — فى أثناء تصور ما سبق وفى غيره — للغة العربية • وقد أثرت أن أجمع ما يتعلق بها وحدها وأناقشه من خــلال فصل مستقل •

ومن خلال النصوص التى جمعت شتاتها رأيت أنهم يتحدثون عن عدد من المسائل اللغوية العربية ، يمكن ادراجها — تيسيرا لمناقشتها — فى خمس قضايا رئيسة : (أفضلية اللغة العربية ، أصــلها وتطورها ، أصواتها ، خطها ، عدد من مسائلها الراجعة الى اللفظ والمعنى) :

الفصل الأول

أفضلية العربية

بين اخوان الصفا أن العربية أتم اللغات الانسانية ، وعلة هذه الأفضلية ، وما يتميز به القرآن الكريم من اختصار وايجاز يجعل الأمم عاجزة على نقله الى لغاتها القاصرة .

أما أن لغة العرب أتم اللغات ، فيقولون في هذا الصدد :

« اللغة التامة لغة العرب ، والكلام الفصيح كلام العرب ، وما سوى ذلك ناقص . فاللغة العربية في اللغات مثل صورة الانسان في الحيوان ، ولما كان خروج صورة الانسان آخر صور الحيوانية كذلك كانت اللغة العربية تمام اللغة الانسانية وختام صناعة الكتابة ، ولم يحدث بعدها شيء ينسخها ولا يغيرها ولا يزيد عليها ولا ينقصها »(١) .

أما العلة في أن العربية أفضل اللغات ، والاسلام أفضل الأديان فانها ترجع الى تشريف الله العربية حين أنزل بها القرآن الكريم الذي هو ، أشرف كتاب أحكمه الله ، وعجز الأمم عن ترجمته الى لغاتها على ما هو به من الاختصار والايجاز . يقول الاخوان :

« واظهار دين النبي على جميع الأديان ، ولغته على سائر اللغات من أجل أن القرآن أكرم قرآن أنزله الله تعالى ، وأشرف كتاب أحكمه ، وأنه لا يقدر أحد من الأمم على اختلافهم في لغاتهم أن يحيله عما هو به من اللغة العربية الى لغة غيرها ، لأنه لا يمكن أن ينقل البتة الى لغة على ما هو من الاختصار والايجاز ، وهذا لا خفاء به » (٢) .

---

(١) انظر : رسائل اخوان الصفا ج ١٤٤/٣ .
(٢) انظر : المرجع السابق ج ١٦٤/٣ ـ ١٦٥ .

ولا يرضى الاخوان أن يكون أبناء هذا الدين وتلك اللغة مختلفين، فان اتحدوا ظهر دينهم على جميع الأديان ، ولغتهم على جميع اللغات . اذ يقولون :

« وأما الاختلاف المذموم فهو ما كان منه فى المذاهب والآراء ، فاذا زال الخلاف ظهر دين الاسلام على جميع الأديان ، واللغة العربية على جميع اللغات ، ويكون الدين واحدا ، كما قال الله تعالى : « هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون » (٣) .

أن مسألة كمال العربية وتفضيلها على غيرها من اللغات التى عرفها البشر قول يكاد ينال اجماع الباحثين من علماء العربية :

لقد قال به الامام الشافعى (ت ٢٠٤ هـ) وهو من أكبر اللغويين والفقهاء ، وأكد أن لسان العرب واسع سعة بينة قد تكون خاصة له دون غيره (٤) .

وقال به الجاحظ ، بل ذهب الى أن الشعر والتغنى به أفضل مما هو عند العجم (٥) .

وقال به ابن جنى (ت ٣٩٢ هـ) ، اذ نراه يبين فى حديث طويل عن فضيلة العربية على العجمية قائلا :

« لو أحست العجم بلطف صناعة العرب فى هذه اللغة وما فيها من

---

(٣) انظر : المرجع السابق جـ ١٦٤/٣ .

(٤) انظر : د. عبد الله ربيع محمود : من ملامح المنهج العلمى عند علماء العربية ٣٧ ـ ٣٨ ط ١٤٠٤ هـ .

(٥،٦) انظر : البيان والتبيين جـ ٣٨٤/١ تحقيق : عبد السلام هارون . ط ٤ الخانجى .

الغموض والرقة والدقة لاعتذرت من اعترافها بلغتها فضلا عن التقديم لها والتنويه منها » (٦) ٠

ثم نراه يؤيد كلامه فى فضل العربية باعتراف العالمين بها وبالعجمية قائلا :

« ولم نر أحدا من أشياخنا فيها كأبى حاتم ، وبندار ، وأبى على ، وفلان ، وفلان ، يسوون بينهما ولا يقربون بين حاليهما ٠ وكأن هذا موضع ليس للخلاف فيه مجال ، لوضوحه عند الكافة ٠ وانما أوردنا منه هذا القدر احتياطا به ، واستظهارا على مورد له عسى أن يورده »(٧)

وقال بتفضيل العربية أيضا ابن فارس (ت ٣٩٥ هـ) ، حيث عقد فى كتابه الصاحبى فصلا بعنوان « باب القول فى أن لغة العرب أفضل اللغات وأوسعها » (٨) بين فيه فضل العربية وسعتها ، وأن سائر اللغات قاصرة عن اللسان العربى وواقعة دونه لأن الله جل ثناؤه خص هذا اللسان بالبيان ٠

ثم نراه يطرق تلك الفكرة التى طرقها اخوان الصفا وهى عجز سائر الأمم عن نقل القرآن الكريم الى لغتها على ما هو به من الاختصار والايجاز ، اذ يقول :

« وقد قال بعض علمائنا حين ذكر ما للعرب من الاستعارة والتمثيل والقلب والتقويم والتأخير وغيرها من سنن العرب فى القرآن فقال : ولذلك لا يقدر أحد من التراجم على أن ينقله الى شىء من الألسنة كما نقل الانجيل عن السريانية الى الحبشية والرومية ، وترجمة التوراة والزبور وسائر كتب الله عز وجل بالعربية ، لأن العجم لم تتسع فى المجاز

(٧) انظر : الخصائص جـ ٢٤٢/١ ، ٢٤٣ ٠
(٨) انظر : الصاحبى ١٦ ــ ٢٥ ٠

اتساع العرب . ألا ترى أنك لو أردت أن تنقل قوله جل ثناؤه : « وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء » (٩)، لم تستطع أن تأتى بهذه الألفاظ المؤدية عن المعنى الذى أودعته حتى تبسط مجموعها ، وتصل مقطوعها ، وتظهر مستورها فتقول : ان كان بينك وبين قوم هدنة وعهد فخفت منهم خيانة ونقضا فأعلمهم أنك قد نقضت ما شرطته لهم ، وآذنهم بالحرب لتكون أنت وهم فى العلم بالنقض على استواء . وكذلك قوله جل ثناؤه : « فضربنا على آذانهم فى الكهف سنين عددا » (١٠) .

ثم قال :

« ولو أراد معبر بالأعجمية أن يعبر عن الغنيمة والاخفاق، واليقين والشك ، والظاهر والباطن ، والحق والباطل ، والمبين والمشكل ، والاعتزاز والاستسلام ، « لقربه » . والله جل ثناؤه أعلم حيث يجعل الفضل » .

ثم قال :

« ومما لا يمكن نقله البتة أوصاف السيف والأسد والرمح وغير ذلك من الأسماء المترادفة ، ومعلوم أن العجم لا تعرف للأسد اسما غير واحد ، فأما نحن فنخرج له خمسين ومائة اسم » .

وقد افتتح أبو منصور الثعالبى (ت ٤٣٠ هـ) كتابه « فقه اللغة وسر العربية » قائلا :

« من أحب الله تعالى أحب رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم ، ومن أحب الرسول العربى أحب العرب ، ومن أحب العرب أحب العربية التى بها نزل أفضل الكتب على أفضل العجم والعرب ، ومن أحب العربية عنى بها ، وثابر عليها ، وصرف همته اليها ، ومن هداه الله للاسلام ،

(٩) الآية ٥٨/ الانفال .
(١٠) الآية ١١/ الكهف .

وشرح صدره للايمان ، وآتاه حسن سريرة فيه ، اعتقد أن محمدا ﷺ خير الرسل ، والاسلام خير الملل ، والعرب خير الأمم ، والعربية خير اللغات والألسنة ، والاقبال على تفهمها من الديانة ... » (١١) .

ويؤيد السيوطى (ت ٩١١هـ) هؤلاء وينقل عنهم وعن غيرهم فى مزهره فى النوع الثانى والعشرين معرفة خصائص اللغة (١٢) .

ولو تقصينا ما قاله العلماء القدماء والمحدثون فى تفضيل العربية على غيرها لما حوته أجلاد وأجلاد كما قال ابن فارس .

ولا نكاد نجد انكارا لهذه الفكرة فيما نعرف الا عند الفقيه الأندلسى أبى محمد بن حزم (ت ٤٥٦ هـ) من القدماء ، وتلقفها منه فى عصرنا الحديث الشيخ أمين الخولى : فقد رأى ابن حزم أنه لا معنى للقول بأن العربية أفضل اللغات لأنه بها نزل كلام الله ، وعلل لذلك بقوله : « لأن الله أخبرنا أنه لم يرسل رسولا الا بلسان قومه ، فبكل لغة نزل كلام الله ووحيه » (١٣) .

وقد رضى الشيخ الخولى كلام ابن حزم ، وجنح به القلم حين عدا القول بكمال العربية وتفضيلها خطرا يعطل الاصلاح ويمنع التقدم اللغوى ، ورأى أن هذا التفضيل الذى قال به العلماء نابع من تعصبهم القومى والدينى (١٤) .

وقد رد عليه أستاذنا الدكتور عبد الله ربيع بأن تفضيل العربية لم يقم على أساس قومى أو دينى فقط ، وانما قام أيضا على أساس فكرى

---

(١١) انظر : فقه اللغة وسر العربية ص ٢١ . تحقيق مصطفى السقا وآخرين . الطبعة الاخيرة ١٣٩٢ هـ / ١٩٧٢ م .

(١٢) انظر : المزهر فى علوم اللغة وأنواعها حـ ١/٣٢ ـ ٣٤٥ .

(١٣) انظر : د. عبد الله ربيع : من ملامح المنهج العلمى عند علماء العربية ٣٩ .

(١٤) انظر : المرجع السابق ٤٤ .

ولغوى مثل ما فعل ابن جنى وغيره فى القديم ، وعباس العقاد وغيره فى الحديث ، بل شهد لهذا التفضيل كثير من غير المسلمين ومنهم من هو مشهور عنه بعداء العربية والاسلام .

وقد رد عليه أيضا بأن تفضيل لغة على أخرى على أساس قومى أو دينى مسألة فطرية وقضية طبعية من طبائع نفوس البشر ، وفكرة قديمة ولم تخل منها الحياة العلمية فى عصرنا الحديث :

فقديما فضل اليونانيون لغتهم ، ومثلهم فعل اليهود ، ولا يزالو يتحدثون عن أولية العبرية وآخريتها ، وحديثا نرى الأوربيون يفعلون .

« فهل نطلب من العربى وحده أن يكون بدعا بين جميع أبناء الأمم فلا يرى للغته فضلا ولا يحس نحوها بمزيد من التقدير » ، « وما يضر المنهج العلمى عندما ترتبط العربية بالاسلام ، وخاصة وقد أراد الله أن تكون معجزة هذا الدين الخالدة لغوية محضة » ، « وهل دفع الدين علماء العربية الى ازدراء اللغات الآخرى أو احتقارها » ، « وانما يعد هذا التفضيل عيبا اذا خرج عن المعقول وجاوزه الى الاسراف والطغيان واحتقار الأجناس أو اللغات » (١٥) .

وهكذا تظهر الحقائق صدق ما ذهب اليه علماء العربية ومنهم اخوان الصفاء .

وسوف يتضح لنا فى أثناء الحديث عن الأبجدية العربية أن العربية أغنى اللغات بالأصوات ، وأن أبجديتها أكمل الأبجديات .

أما مسألة عجز الأمم على نقل وترجمة القرآن الى لغاتها المختلفة على ما هو به من الاختصار والايجاز ، والتى أثارها اخوان الصفا وغيرهم من العلماء ، فقد شغلت أذهان المسلمين من فقهاء ومحدثين

(١٥) انظر : المرجع السابق ٤١ ـ ٤٦ .

٢٠١٩.

ومفسرين ولغويين وغيرهم على مر العصور وبخاصة الربع الأول من هذا القرن حيث حدث ضجة بين الكتاب فى حكم ترجمة القرآن باللغات الأجنبية ، وقد تشعبت الأهــواء واختلفت الآراء ما بين موجب لتلك الترجمة ، ومجوز ، ومانع لها .

وبعضهم يراها جائزة شرعا اذا كان القصد من تلك الترجمة تبليغ ألفاظه أو تفسيره بالعربية أو ترجمة تفسيره بلغة أجنبية لمن لا يحسن العربية . أما اذا كان القصد من تلك الترجمة نقل ألفاظه وأساليبه الى لغة أخرى والتعبير عن معنى تلك الألفاظ ومقاصدها بألفاظ غير عربية مع الوفاء بجميع هذه المعانى والمقاصد ، فان ذلك غير ممكن عادة ويحرم محاولتها شرعا ، اذ ترجمته الحرفية بالمثل غير مقدورة ، وبدون المثــل لا تجوز ولا تجدى .

وقد اتجه الأزهر اتجاها قويا الى بحث هذا الموضوع وأنتهى الأمر بعد طول النقاش والحوار الى أن قررت مشيخته ترجمته وتفســيره ، ووضعت دستورا تلتزمه فى هذا العمل .

وموضوع الترجمة القرآنية واللغوية بعامــة يحتاج الى بحث مســتقل ، وللمتعجل أن يرجــع الى بعــض ما كتب حديثــا فى هذا الموضوع (١٦) .

---

(١٦) انظر : الشيخ : محمد حســنين مخلوف العدوى : حكم ترجمة القرآن وكتابته وقراءته بغير اللغة العربية . شوال ١٣٤٣ هـ ، عنوان البيان فى علــوم التبيــان ١٢١ ـ ١٢٢ . الطبعــة الثانية ١٣٨٣ هـ / ١٩٦٤ م .

ابن الخطيب : الفرقان ١٦٩ ـ ٢٣٦ . الطبعة الاولى ١٣٦٧ هـ/ ١٩٤٨ ، وقد حكم بمصادرة هذا الكتاب فى مصر .

د. ابراهيم أنيس : دلالة الالفــاظ ١٦٨ ـ ١٨٦ ، ومحمــد عبد العظيم الزرقانى : مناهل العرفان فى علوم القرآن جـ ١٠٧/٢ ـ ١٧٣ ط دار احياء الكتب العربية ١٩٨٠ .

الفصل الثانى

أصل العربية وتطورها

ويرى اخوان الصفا أن أصل العربية يرجع الى « يعرب بن سام » ثم تطورت واتسعت نتيجة لعوامل فلكية وجغرافية ونفسية وعضوية (فسيولوجية) .

يقول الاخوان :

« اعلم أنه قيل ان أول من نطق باللغة العربية كان يعرب بن سام، ثم لم تزل تتسع مع الزمان وتتزايد على كثرة العرب وانتشارهم فى الأرض بحسب اتفاقات تقع لهم فى مواليدهم ، وبقاعهم ، وامزجتهم وطباعهم ، وأبدانهم ، وأهويتهم ، حتى صارت أنواعا كثيرة ، وصار لكل قبيلة من قبائل العرب لغة يعرفون بها ، وكلام ينسب اليهم ، ويتميزون به عن غيرهم . واختلفوا فى أسماء الأشياء حتى صار الشىء الواحد من الموجودات له فى لغةالعرب أسماء كثيرة يعرف بها ويشار اليه بها كلها ، ولذلك صار علم اللغة العربية من العلوم الكبار وصار الناس من الحاجة اليه بحيث لا يسعهم تركه ، بل يجب عليهم علمه ، ولا ينبغى الجهل بشىء منه ، وذلك من حكمة البارىء تعالى أنه خلق الموجودات وألقى عليها الأسماء والصفات وجعل لها فى كل طائفة وفى كل لغة أسماء تعرف بها ويشار بها اليها خلاف ما فى لغة أخرى . ولو تأملت واعتبرت لغات العرب لرأيتها من العجائب الطريفة والحكمة الشريفة ، فانظر كيف اختلفوا فى كثير من كلامهم وما هم محتاجون اليه من أسماء مأكولهم ومشروبهم ، وقد جمعتهم لغة واحدة ، وشريعة واحدة ، حتى

ان القراء اختلفوا فى قراءاتهم وتباينوا فى رواياتهم • وكذلك تجد فى اللغات غير اللغة العربية أكثر ، والأمر فيها أصعب ، وعلى هذا المثال فى الآراء والديانات أيضا ، حتى ان كثيرا من العرب الذين يسكنون البرارى البعيدة من العمران من يجرى فى لغته أسماء كثيرة لا يعرفها من باقى العرب أكثرهم ، ولا يعرفها العرب الحاضرة الا بعد البيان والايضاح ، ويحتاج فيه الى معرفة اشتقاقاتها حتى تتصور له ، ثم يسمى ذلك الشىء بذلك الاسم ، كل ذلك لعلل وأسباب يطول شرحها » (١) •

وعندما نلقى الضوء على أصل اللسان العربى ، والتسمية بالعربية وما ذكره الاخوان بصدده فاننا نرى أن مؤرخى العرب يختلفون فى هذا كما يختلف فيه غيرهم كما يذكر الأستاذ العقاد ، فهل سموا بذلك لأنهم كانوا يسكنون مواقع الغرب من أمة أخرى يحل فيها حرف (العين) محل حرف (الغين) كما يحدث فى بعض اللهجات ؟

أو هل أطلق عليهم هذا الاسم من (العرابة) بمعنى الجفاف أو الصحراء فى لغة بعض الساميين بشمال الجزيرة ؟ أو هل أطلق عليهم نسبة الى (يعرب بن قحطان) أو نسبة الى (عربة) من أرض تهامة كما يقول ياقوت (٢) •

وينقل السيوطى فى مزهره أقوالا متعددة فى أصل اللسان العربى (٣) ، ومن تلك الأقوال : أن هذا اللسان كان لسان آدم ثم انتقل

---

(١) انظر : رسائل اخوان الصفا جـ ٣/١٥١ ـ ١٥٢ •
(٢) انظر : العقاد : الثقافة العربية أسبق من ثقافة اليونانيين ٧٠ ـ ، ـ د• عبد الله ربيع ، عبد العزيز علام : فى فقه اللغة ٩٢ ـ ٩٣ •
(٣) انظر : السيوطى : المزهر جـ ١/٣٠ ـ ٣٤ •

الى رجل يقال له « جرهم » ، ثم صار عن طريق المصاهرة — الى ولد « أرم من سام » ثم صار الى « بنى قحطان » ، اذ يقول :

« قال عبد الملك بن حبيب : كان اللسان الأول الذى نزل به آدم من الجنة عربيا الى أن بعد العهد وطال حرف وصار سرياتيا ، وهو منسوب الى أرض سورى أو سوريانه ، وهى أرض الجزيرة ، بها كان نوح عليه السلام وقومه قبل الغرق، قال: وكان يشاكل اللسان العربى، الا أنه محرف ، وهو كان لسان جميع من فى سفينة نوح ، الا رجلا واحدا يقال له جرهم ، فكان لسانه لسان العربى الأول ، فلما خرجوا من السفينة تزوج ارم بن سام بعض بناته ، فمنهم صار اللسان العربى فى ولده عوص اج عاد ، وعبيل ، وجاثر ، أج ثمود ، وجديس • وسميت عاد باسم جرهم ، لأنه كان جدهم من الأم ، وبقى اللسان السريانى فى ولد أرفخشد بن سام ، الى أن وصل يشجب بن قحطان من ذريته وكان باليمن ، فنزل هناك بنو اسماعيل فتعلم منهم بنو قحطان اللسان العربى » •

وينقل السيوطى عن ابن دحية أن العرب ثلاثة أقسام : (عاربة وعرباء) ، وهم الخلص ، وهم تسع قبائل من ولد ارم بن سام من نوح، ومنهم تعلم اسماعيل عليه السلام العربية ، (وعرب متعربة) : وهم الذين ليسوا بخلص وهم بنو قحطان ، (وعرب مستعربة) وهم الذين ليس بخلص أيضا ، وهم بنو اسماعيل ، وهم ولد معد بن عدنان بن آد.

وينقل السيوطى عن ابن دريد قوله : « وسمى يعرب بن قحطان : واسمه مهزم ، لأنه أول من انعدل لسانه عن السريانية الى العربية » •

وينقل كذلك عن الحافظ عماد الدين بن كثير فى تاريخه قوله : « قيل : ان جميع العرب ينتسبون الى اسماعيل بن ابراهيم عليه

السلام ، والصحيح المشهور أن العرب العاربة قبل اسماعيل ، وقد قدمنا أن العرب العاربة هم عاد وثمود وطسم وجديس وأميم وجرهم والعماليق وأمم آخرون لا يعلمهم الا الله ، كانوا قبل الخليل عليه السلام وفى زمانه أيضا • فأما العرب المستعربة وهم عرب الحجاز فمن ذرية اسماعيل عليه السلام ، وأما عرب اليمن وحمير فالمشهور أنهم من قحطان ، واسمه مهزم ، قاله ابن ماكولا ، وذكروا أنهم كانوا أربعة اخوة : قحطان وقاحط ومقحط ، وفالغ ، وقحطان بن هود ، وقيل هود ، قيل هود أخوه ، وقيل من ذريته ، وقيل ان قحطان من سلالة اسماعيل، حكاه ابن اسحاق وغيره • والجمهور على أن العرب القحطانية من عرب اليمن ، وغيرهم ليسوا من سلالة اسماعيل » •

ويرجح بعض الباحثين المحدثين نسبة العرب الى (يعرب) جدهم الأعلى بناء على أن البنية الاجتماعية لقدماء العرب وحفظهم المتواتر للأنساب ، وحرصهم الأكيد عليها يعززان هذا الرأى أيما تعزيز (٤) •

أما عن تطور تلك اللغة واتساعها مع الزمان وتزايدها على كثرة العرب وانتشارهم فقد أرجعه الاخوان ـ كما سبق نقله ـ الى عوامل فلكية وجغرافية ونفسية وفسيولوجية •

وقد سبق فى الفصل الثالث عرضنا وجهة نظر الاخوان فى التطور اللغوى بعامة ، وعرفنا بطلان العامل الفلكى وفساد اعتقادهم فى الكواكب وتأثيرها على كل الكائنات التى دون فلك القمر •

كما عرفنا أيضا صحة العوامل الأخرى وتمشيها مع النظرة الحديثة ، ولك أن ترجع الى ذلك مفصلا هناك •

---

(٤) انظر : د• عبد الله ربيع ، عبد العزيز علام : فى فقه اللغة ٩٣ •

الفصل الثالث

أصوات اللغة العربية

تحدث الاخوان عن أصوات اللغة العربيـة من حيث عـددها ، ومخارجها ، وعيوبها الناشئة عن اضطرابات التكلم واخراج المقاطع ، كما تحدثوا عن الألفبائية العربية وعدد الرموز فيها ، وميزتها •

وفيما يلى توضيح لهذه النقاط :

(أ) عـددها :

أرجع اخوان الصفا عدد أصـوات العربيـة الى ثمانية وعشرين صوتا أو حرفا لفظيا (١) •

ومن خصائص تلك الحروف ـ كما ذكروا ـ أن منها ما يدغم فيه لام التعريف ، ومنها ما لا يدغم فيه :

أما الحروف التى تدغم فيها لام التعريف فهى أربعة عشر حرفا : التاء والثاء والدال والذال والراء والزاى والسـين والشين والصـاد والضاد والطاء والظاء واللام والنون •

أما الحروف المتبقية وهى التى لا تدغـم فيها لام التعريف فهى أربعة عشر حرفا أيضا : الالف والباء والجيم والحاء والخاء والعين والغين والفاء والقاف والكاف والميم والهاء والواو والياء (٢) •

---

(١) انظر : رسائل اخوان الصفا ج ٣٩٣/١ •

(٢) انظر : المرجع السابق ج ٣٨١/٣ • وقد ذكـر الشـيخ الاشبيلى (ت ٦٥٤ هـ) هذه الخصوصية فى كتـابه « فى تجـويد القراءة ومخارج الحروف » انظره ص ٥٧ تحقيق د• أبو السعود احمد الفخرانى • الطبعة الاولى ـ مطبعة الامانة (١٤١١ هـ ١٩٩٠) •

والحقيقة أن عدد الأصوات الرئيسة ــ أو ما يسمى بالفونيمات ــ في العربية أربعة وثلاثون صوتا رئيسا أو أصليا (أو فونيما) ، حيث لم يذكر الاخوان الا ما يسمى بالحروف الصامتة ، أما الحركات أو ما يسمى بالحروف الصائتة فلم يذكرها الاخوان ، وهي ست :

الفتحة بنوعيها : القصيرة ، والطويلة ، وهي ألف المد ، والكسرة بنوعيها : القصيرة ، والطويلة وهي ياء المد ، والضمة بنوعيها : القصيرة ، والطويلة وهي واو المد .

ولم يعن الاخوان ــ كغيرهم من قدامى اللغويين العرب ــ بالحركات ، حيث نظروا اليها على أنها تابعة للأصوات الصامتة ، لا تستقل بنفسها في النطق تماما كاستقلال الأصوات الصامتة ، ولذا عدوها أصواتا ثانوية بالنسبة لتلك الأصوات الصامتة (٣) .

ومما تجدر الاشارة اليه أن للعدد « ثمانية وعشرين » فلسفة عند الاخوان حين رأوه من الأعداد التامة ، وحين رأوا مطابقته لعدد منازل القمر ، وعدد أعضاء الجسم الانساني كما سبق في الفصل الثالث من الباب الأول ، فارجع اليه .

وسوف نناقش قريبا في أثناء الحديث عن الرموز الكتابية للأصوات العربية (٤) مدى استيعاب الألفبائية العربية لألفبائيات اللغات الأخرى .

(ب) مخارجها :

لقد ذكر اخوان الصفا مكونات آلة النطق الرئيسة ، وهي التي

---

(٣) انظر : د. رمضان عبد التواب : فصول في فقه اللغة العربية ٣٥٢ وما بعدها ، الطبعة الاولى ١٩٧٣ القاهرة .

(٤) انظر : المرجع السابق ج ٣٨٢/٣ .

تشتمل على الرئة والصدر والحجاب والحلقوم والمنخرين والفم وما يشتمل عليه من لسان وشفتين كما سبق توضيحه في فصل الصوت اللغوى ٠

وقد ذكر الاخوان أن اللسان يتدخل في تقطيع واخراج أربعة عشر حرفا وهى : التاء والثاء والدال والذال والراء والزاى والسين والشين والصاد والضاد والطاء والظاء واللام والنون ٠ وذكروا أن الأربعة عشر المتبقية مخارجها مختلفة ، ليس للسان فيها مدخل (٥) ٠

ان اللسان يحظى بنصيب وافر في اخراج الأصوات ، ولا يقتصر دوره على تلك الأصوات التى ذكرها الاخوان ٠

فاذا نظرنا نظرة قديمة لوصف الأصوات واستبعدنا الحروف الحلقية الستة (الهمزة والهاء والعين والحاء والغين والخاء) ، وحروف الشفة الأربعة (الفاء والباء والميم والواو) يصير للسان ثمانية عشر حرفا صامتا هى المتبقية ، بالاضافة الى الدور الذى يقوم به فى تشكيل الحركات المختلفة ٠

واذا نظرنا نظرة حديثة واستبعدنا صوتى الحنجرة (الهمزة والهاء) وصوتى الحلق (العين والحاء) ، وأصوات الشفة (الفاء والباء والميم) يصير للسان واحد وعشرون صوتا صامتا هى المتبقية ، بالاضافة الى دوره فى الحركات كذلك ٠

فهل القاف والكاف والواو والجيم والياء ليس للسان فيها مدخل ؟ كلا ، وهذا ما نأخذه على الاخوان ٠

على أن الاخوان أنفسهم قد ذكروا فى مواضع أخرى ما يفيد

(٥) انظر : رسائل اخوان الصفا جـ ٣/٣٣٠ ٠

أهمية اللسان ومدخله فى كل الأصوات حين ذكـروا دوره الأساسى فى الكلام الفصيح الذى يرجع الى احكام اللسان تقطيـع الحروف على مستوى الافراد والتركيب ، اذ نراهم يقولون فى بعض المواضع :

« اعلم أن لسان الانسان اذا كان متحركا الى جهة كل حرف من هذه الحروف الثمانية والعشرين ، يخرجه من تلك الجهة ، ولا يعدل به الى غيرها ، ولا يخلط بعضها ببعض ، ولا يحيلها عما هى به فى اللفظ ، فهو لسان صحيح ، وكلام فصيح ، من جهة بيان الحروف ووضعها على ما هى به فى أى كتابة كانت وبأى لغة اتفقت كان الكلام بها » (٦) •

ومعنى كلامهم هذا أن اللسان تكيفات أخرى ـ أو صفات كما يقول علماؤنا غير عملية الاخراج ـ مع كل الأصوات ، حتى الأصوات الحلقية والشفوية ، وأصوات الحركات :

فهو من أبرز الأعضاء التى تتحكم فيما تسميه الدراسة الحديثـة « الصندوق الرنين » الأمامى فى تجويف الفم أو فراغه • فهو بمرونته وقدرته على الحركة المتنوعة يصنع عددا كبـيرا من صـناديق الرنين المختلفة فى أشكالها وأحجامها وأطوالها مع الأصوات المختلفة ، وتختلف النغمات أو المكونات النغمية للأصوات باختلاف تلك الصناديق :

فعندما يستعلى مؤخره توصف بعض الأصـوات باسـتعلاء مثل الصاد والضاد والطاء والظاء والخاء والقاف والغين •

وعندما يستفل توصف بقية الأصوات بالاستفال •

وعندما يستعلى مؤخره ومقدمه حتى يصير مثل الطبق توصـف بعض الأصوات بالاطباق مثل الصاد والضاد والطاء والظاء •

---

(٦) انظر : المرجع السابق جـ ١٤٥/٣ •

وعندما يكون بخلاف ذلك توصف بقية الأصوات بالانفتاح .

وعندما يكون على صورة حروف الاستعلاء مع إنجذابه الى الخلف ، توصف بعض الأصوات بالتفخيم مثل حروف الاستعلاء واللام والراء وبعض الحركات كالفتحة والضمة فى بعض أحوالهما .

وعندما يكون بخلاف ذلك توصف بقية الأصوات بالترقيق (٧) .

وتعد الوظيفة اللغوية للسان وظيفة ثانوية بجانب وظيفته الحيوية الأخرى وهى المساعدة فى مضغ الطعام وبلعه ، قد أشار اليها الاخوان حين قالوا :

« وللسان حركات الى ست جهات لمضغ الطعام وتقليبه تحت أسنانه للقطع والكسر والدق والطحن والقطع بالثنايا ، والكسر بالرباعيات والأنياب والدق والطحن بالأضراس والطواحين » (٨) .

ولعلك تلاحظ معى أن النص يشتمل كذلك على الوظيفة الحيوية للأسنان ، وتلك الأسنان تختلف وظيفتها تبعا لاختلاف أنواعها ، فهى اما ثنايا أو رباعيات أو أنياب أو أضراس أو طواحن ، ومنها ما هو مخصص للقطع ومنها ما هو مخصص للكسر ، ومنها ما هو مخصص للدق والطحن .

---

(٧) راجع : التجويد القرآنى فى ضوء علم الصوتيات الحديث ص ٢٠٩ — ٢٣٢ وهى رسالة دكتوراه للباحث بمكتبة كلية اللغة العربية بالقاهرة .

(٨) انظر : رسائل اخوان الصفا جـ ٣٢٩/٣ .

(ب) العيوب الصوتية :

سبق أن ذكرنا فى الفصل السابق أن الإخوان أدركوا أهميـة مخارج الحروف وأثرها فى صحة النطق حين تحدثوا عما سموه اتساع الحروف وسهولة التصرف فى المخارج ، وخفة اللغة ، وعرفنا تصورهم لعوامل ذلك ، وعرفنا أيضا أن فساد الكلام — فى نظرهم — انما هو من اختلاف مخارج الحروف فى قوتها وفى ضعفها ، وهو فساد فى اللسان بقلب ويعدل الحروف عن مخارجها ، وأن من مظاهر هذا الفساد ماسموه بالخلسة والفأفأة والتمتمة والعقلة والحكلة والرتة واللثغة ، وما أشبه ذلـك •

وقد وعدنا القارىء هناك أن نلقى الضوء عليها هنا من خلال أمثلة من أصوات لغتنا العربية •

ويمكن ارجاع تلك الاضطرابات التى تحدث فى التكلـم واخراج المقاطع وتقطيعها — تبعا لمظهرها الأدائى — الى ما يأتى :

١ — عيوب استبدالية •

٢ — عيوب تشويهية •

٣ — عيوب الخفاء وعدم الوضوح •

٤ — عيوب تتعلق بالتزمين وسرعة الأداء •

أولا : العيوب الاستبدالية :

وتتحقق هذه العيوب بجعل صوت مكان صوت آخر •

ومن تلك العيوب : اللثغة ، واللكنة •

(أ) اللثغة :

لم يذكر الاخوان شيئا عن هذا العيب ، ويرجع ذلك — فى نظرى — الى معرفة الخاصة والعامة بمظهره الصوتى . وقد ألقى ابن منظور الضوء عليه حين قال (٩) :

« اللثغة أن تعدل الحرف الى حرف غيره . والألثغ الذى لا يستطيع أن يتكلم بالراء ، وقيل هو الذى يجعل الراء غينا أولا ما ، أو يجعل الراء فى طرف لسانه ، أو يجعل الصاد فاء ، وقيل : هو الذى يتحول لسانه عن السين الى الثاء ، وقيل : هو الذى لا يتم رفع لسانه فى الكلام وفيه ثقل ، وقيل : هو الذى لا يبين الكلام ، وقيل هو الذى قصر لسانه عن موضع الحرف ولحق موضع أقرب الحروف من الحرف الذى يعثر لسانه عنه ... » .

وللثغة آثار لغوية واجتماعية ، اذ يترتب على حدوث الاضطراب والتداخل فى الألفاظ والمعانى سوء الفهم وصعوبة الافهام الى جانب قبح الأداء وما يترتب عليه من نفور السامع ووحشة المخاطبين (١٠) .

(ب) اللكنة :

يقول اخوان الصفا : « اذا أدخل الرجل بعض حروف العرب فى بعض حروف العجم قيل فى لسانه لكنة » (١١) .

وقد أكد ابن منظور هذا حين قال : «اللكنة عجمة فى اللسان وعى»

---

(٩) انظر : لسان العرب (لثغ)

(١٠) انظر : د. عبد الله ربيع محمود : الملامح الادائية عند الجاحظ فى البيان والتبيين ٢٥٢ .

(١١) انظر : رسائل اخوان الصفا ج ١١٩/٣ .

ونقل عن ابن سيدة أن الألكن الذى لا يقيم العربية من عجمة فى لسانه، ونقل أيضا عن المبرد أن اللكنة هى أن تعترض على كلام المتكلم اللغة الأعجمية ، يقال : فلان يرتضخ لكنة رومية أو حبشية أو سندية ، أو ما كانت من لغات العجم (١٢) • ويرجع السبب فى حدوث هذا العيب الى تأثر المتكلم بنظام لغته التى نشأ عليها عندما يحاول نطق لغة أجنبية عنه عند تعلمها ، أو الى تأثر المتكلم بنظام لغة غير لغته نظرا لنشأته وتأثره ببيئة تلك اللغة الأجنبية •

ويمكن أن تعترى اللكنة كل نظم اللغة ، صوتية كانت أو صوفية أو نحوية أو دلالية •

ومن مظاهرها الصوتية لدى الخاصة نطق السين شينا ، ونطق الطاء تاء ، ونطق الشين سينا ، ونطق الحاء أو الخاء هاء ، ونطق القاف كافا •

ومن مظاهرها لدى العامة نطق الذال دالا ، ونطق القاف كافا ، ونطق السين شينا ، ونطق الجيم (١٣) •

ثانيا : العيوب التشويهية :

وهى التى تحدث بتشويه بعض أصوات الكلام • ومن تلك العيوب التى ذكرها الاخوان : الفأفأة ، والتمتمة :

(أ) الفأفأة :

لم يذكر الاخوان عنها شيئا ، اعتمادا على وضوح مظهرها فيما

---

(١٢) انظر : لسان العرب (لكن) •

(١٣) انظر : د• عبد الله ربيع : الملامح الادائية عند الجاحظ فى البيان والتبيين ٢٦٦ ـ ٢٦٩ •

ألظن ، وقد ذكر ابن منظور أنها حسية فى اللسان وغلبة الفاء على الكلام، ونقل عن المبرد فى معناها أن يتردد فى الفاء اذا تكلم (١٤) •

وترجع الفأفأة الى اضطرابات فى تقطيع حرف الفاء نتيجة لاضطرابات فى الجهاز العصبى فى المخ •

(ب) التمتمة :

وهى رد الكلام الى التاء والميم — كما ذكر ابن منظور — ونقل أقوالا عديدة فيها ، حيث قال : وقيل : أن يعجل بكلامه فلا يكاد يفهمك، وقيل : أن تسبق كلمته الى حنكه الأعلى ، والفأفاة الذى يعسر عليه خروج الكلام • وقال الليث : التمتمة فى الكلام ألا يبين اللسان يخطىء موضع الحرف فيرجع الى لفظ كأنه التاء والميم وان لم يكن بينا ، ونقل عن المبرد أن التمتمة الترديد فى التاء (١٥) •

ثالثا : عيوب الخفاء وعدم الوضوح :

وهى لا تتحقق فيها الابانة ولا يظهر فيها ما ينبغى من الوضوح • ومن تلك العيوب : الحكلة والخلسة •

(أ) الحكلة :

قال اخوان الصفاء : « الحكلة انما هى نقصان آلة المنطق وعجزها عن أداء اللفظ حتى لا يعرف معناه الا القليل ، وهو قريب من كلام البهائم والخرس ونحو ذلك » (١٦) •

---

(١٤) انظر : لسان العرب (فأفا) •
(١٥) انظر : المرجع السابق (تمم) •
(١٦) انظر : رسائل اخوان الصفا جـ ١١٩/٣ •

وهو نفس ما قاله الجاحظ تقريبا ، ونصه : « فاذا قالوا فى لسانه حكلة فانما يذهبون الى نقصان آلة المنطق ، وعجـز أداة اللفظ حتى لا تعرف معانيه الا بالاستدلال » (١٧) •

وقال ابن منظور (١٨) : « الحكلة كالعجمة لا يبين صاحبها الكلام ، والحكلة والحكيلة : اللثغة • ابن الأعرابى : فى لسانه حكلة أى عجمـة لا يبين الكلام • والحكل : العجم من الطيور والبهائم••وكلام الحكل : كلام لا يفهم (حكاه ثعلب) »•

(ب) الخلسة (بضم الخاء) :

قال اخوان الصفاء « اذا كان الكلام يثقل على الرجل قيل فى لسانه خلسة » وقد أرجعوا هذا الثقل الى فساد الحركة وبعدها من النسـبة الفاضلة » (٢٠) •

وقد أطلق الجاحظ على هذا الثقل حبسه لا خلسة ، قال: « يقال فى فى لســانه حبســه اذا كان الكلام يثقل عليه ، ولم يبلغ حـد الفأفاء والتمتام » (٢١) •

ولم نجد هذا العيب فى لسان العرب ، وانما فيه « أخلست الأرض والنبات : خالط بيبيسهما رطبهما ، والخلسة الاســم من ذلك » (٢٢) • بينما نجده يتكلم عن الحبسة ويقول (٢٣) : « والحبسة والاحتباس فى

---

(١٧) انظر : البيان والتبيين ج ١/ ٤٠ •
(١٨) انظر : لسان العرب (حكل) •
(١٩) انظر : رسائل اخوان الصفا ج ١١٩/٣ •
(٢٠) انظر : المرجع السابق ج ١٣٥/٣ •
(٢١) انظر : البيان والتبيين ج ٤٠/١ •
(٢٢) انظر : لسان العرب (خلس) •
(٢٣) انظر : المرجع السابق (حبس) •

الكلام : التوقف • وتحبس فى الكلام : توقف • قال المبرد فى باب علل اللسان : الحبسة تعذر الكلام عند ارادته ، والعقلة التواء اللسان عند ارادة الكلام » •

وهذا يجعلنا نشك فى أن الخلسة تصحيف وتحريف الحبسة •

وقد اهتم بالحبسة المحدثون ، سواء كانوا علماء لغة أو نفس ، أو متخصصين فى أمراض الكلام ، ووضعوا لها مصطلح « أفيزيا » ، وجمعوا تحته أنواعا مختلفة ، ويمكن ايجازها فى أربعة (٢٤) :

١ ـ حبسة حركية أو لفظية : ومن مظاهرها احتباس الكلام ، أو فقدان التعبير الحركى الكلامى • وهى تحدث نتيجة خلل فى منطقة « بروكا » السالف ذكرها فى الفصل الماضى •

وفى الحالات الشديدة من هذه الحبسة يفقد المصاب القدرة على التعبير •

وهذا النوع يتلاقى فى مفهومه مع ما ذكره اخوان الصفا •

٢ ـ حبسة حسيه : وتتعدد مظاهرها ، ومنها : اضطرابات فى القدرة الادراكية السمعية أو فقد القدرة على تمييز الأصوات المسموعة واعطاء دلالاتها اللغوية ، فيلجأ المتكلم الى ابدال حرف بآخر ، وأحيانا ليشمل الابدال معظم الحروف ، فيصبح الكلام غامضا غير مفهوم •

وهى تحدث نتيجة خلل فى منطقة « فرنيك » السابق ذكرها فى الفصل الماضى •

---

(٢٤) انظر ذلك بالتفصيل : د• مصطفى فهمى : أمراض الكلام ٥٦ ـ ٧٤ ، د• جمعة سيد يوسف : سيكلوجية اللغة والمرض العقلى ١٧٨ ـ ١٨٢ •

حبسة كلية : وهى تجمع بين النوعين السابقين نتيجة اصابة بجلطة دموية ، أو اصابة بنزف مخى •

٤ ــ فقد القدرة على التعبير بالكتابة نتيجة تلف فى مركز حركة اليدين فى الفص الجبهى •

رابعاً : عيوب تتعلق بالتزمين وسرعة الأداء :

وهى تتحقق اذا لم يراع المكلم نظام لغته التزمينى ، فيسرع حين يجب الابطاء ، أو يبطىء حيث يلزم الاسراع ، أو بين هذا وذاك فى موقف يقتضى أحد الجانبين (٢٥) •

ومن العيوب التى ساقها الاخوان والمتعلقة بهذا الخلل التزمينى: العقلة ، والرتة •

(أ) العقــلة :

قال اخوان الصفا : « اذا عجز الرجل عن سرعة الكــلام قيل فى لسانه عقله » (٢٦) •

وقد ســبق أن نقل ابن منظور عن المبرد مفرقــا بين الحبســة والعقلة ، أن الحبسة تعذر الكلام عند ارادته ، والعقلة التواء اللسان عند ارادة الكلام •

وترجع العقلة ــ على ما هو واضح ــ الى عدم قيام أعضاء النطق بوظائفها النطقية والتقطيعية على الوجه المطلوب •

---

(٢٥) انظر : د• عبد الله ربيع : الملامح الادائية عند الجاحظ فى البيان والتبيين ٢٧٩ •

(٢٦) انظر : رسائل اخوان الصفا جـ ١١٩/٣ •

(ب) الرتـــة :

لقد ذكر ابن منظور لهذا العيب مظاهر متعددة ، ويمكن أن تكون هذه المظاهر آثارا سيئة ناتجة من العجلة وقلة الأناة .

فقد ذكر أن الرتة عجلة فى الكلام وقلة أناة ، أو قلب اللام ياء ، أو ردة قبيحة فى اللسان من العيب ، أو العجمة فى الكلام والحكلة فيه ، أو هى كالريح تمنع منه أول الكلام ، فاذا جاء منه اتصل به .

وذكر أن الأرت الذى فى لسانه عقدة وحبسة ويعجل فى كلامه فلا يطاوعه لسانه (٢٧) .

لقد ذم الاخوان الكلام المشوه الناتج من العيوب السالفة الذكر، حيث يكون منطق الانسان أقرب الى منطق الحيوان ، ومدحوا الكلام الفصيح المبرأ من تلك العيـوب ، حيث يكون منطق الانســان متصلا بمنطق الملائكة ، اذ يقولون فى أثناء حديثهم عن التغيير والاستحالة والزوال والانتقال من حال الى حـال ، التى أوجبتها الحكمة الإلاهية فى الموجودات الطبيعية والأصوات :

« والانسان أيضا كلامـه ذو طرفين : طرفـه الأدنى متصـل بالحيوان مثل الفأفاء والتمتـام والأخرس والألثغ وما شـاكل ذلك . والطرف الأعلى منه متصل بمنطق الملائكة مثل كلمات الفصحاء والبلغاء وذوى النفحات والألحان المطربة مثل نغمـات داود عليه السـلام ، والقراء والملحنين فى المسـاجد ، وقراءة المزامير مثل أصـوات قراءة التوراة فى الكنائس والبيع ، والقرآن فى المسـاجد ، والخطبـاء على المنابر ، والرهبان فى الصوامع ، وما شاكل ذلك » (٢٨) .

---

(٢٧) انظر : لسان العرب (رتت) .
(٢٨) انظر : رسائل اخوان الصفا جـ ٣/١٣٠ .

وقد وضع الاخوان شرائط معلومة وخصالا حميده لقراء القرآن الكريم وحفظته ، وكان من أول تلك الشرائط « فصاحة الألفاظ ، وتقويم اللسان ، وطيب النغمة ، وجودة العبارة ، وسرعة الحفظ ، وجودة الفهم ، ودوام الدرس والنشاط في القراءة ... » (٢٩) .

(جـ) رموزها الكتابية (الألفبائية العربية) :

فلقد أطلقوا على الرمز الكتابي للصوت حرفا خطيا ، للتفريق بينه وبين الصوت الذي سموه حرفا لفظيا ، وبين المفكر الذي سموه حرفا فكريا .

يفرق الاخوان هذه الأنواع من الحروف ، ويوضحون العلاقة بينها في قولهم :

« ان الحروف ثلاثة أنواع : فكرية ولفظية وخطية : فالفكرية هي صورة روحانية في أفكار النفوس مصورة في جواهرها قبل اخراجها معانيها بالألفاظ،والحروف اللفظية هي أصوات محمولة في الهواء فمدركة بطريق الأذنين بالقوة السامعة كما بينا في رسالة الحاس والمحسوس ، والخطية هي نقوش خطت بالأقلام في وجوه الألواح وبطون الطوامير مدركة بالقوة الباصرة بريق العينين . واعلم أن الحروف الخطية انما وضعت سمات ليستدل بها على الحروف اللفظية ، والحروف اللفظية وضعت سمات ليستدل بها على الحروف الفكرية » (٣٠) .

وقد اصطلح على تسمية الرموز الكتابية للأصوات بالألفبائية أو الأبجدية .

---

(٢٩) انظر : المرجع السابق جـ ٣٢٤/١ .

(٣٠) انظر : رسائل اخوان الصفا جـ ٣٩٢/١ ـ ٣٩٣ .

وللالفبائية العربية ترتيبان ، وقد ذكرهما اخوان الصفا :

الترتيب الأول :

وقد تووريث عن الكتابة السامية ، وهو : أبجـد هوز حطى كلمن سعفص قرشت ثخذ ضظغ (٣١) •

وهذا هو الترتيب المشرقى • وقد دكر الاخـوان القيمة العددية لكل حرف •

أما الترتيب المغربى فهو : ••• صعفض قرست ثخذ ظغش (٣٢)•

الترتيب الثـــانى :

وقد وضعه أبو الأسود الدؤلى وتلميذاه يحيى بن يعمر ، ونصر بن عاصم • وقد اتبع الاخوان فيه الترتيب الشرقى كالســابق وهو ا ب ت ث ج ح خ د ذ ر ز س ش ص ض ط ظ ع غ ف ق ك ل م ن هـ و لا ى (٣٣) •

أما الترتيب المغبى فهو أ ب ••• ز ط ظ ك ل م ن ص ض ع غ ف ق س ش هـ و لا ى (٣٤) •

ومما نأخذه على الاخوان ـــ وعلى معظم علمــاء العربية ـــ أنهم لم يضعوا ضمن الالفبائية رموز الحركات القصـــيرة والتى بدأت أولا

(٣١) انظر : المرجع السابق ج ١/٥١ ـ ٥٢ •
(٣٢) انظر : القلقشندى : صبح الاعشى ج ٣/٣٢ •
وانظر : حفنى ناصف : تاريخ الادب أو حياة اللغة العربية ج ١/ ٣٥ ـ ٣٦ • الكتاب الاول ١٩٠٦ م •
(٣٣) انظر : رسائل اخوان الصفا ج ١/٢١٩ •
(٣٤) انظر : القلقشندى : صبح الاعشى ج ٣/١٨ •

بالنقط المدور الذى وضعه أبو الأسود الدؤلى (ت ١٦٩ هـ) ثم صارت بعد ذلك الى الشكل المستطيل على يد الخليل بن أحمد •

أما رموز الحركات الطويلة فلم يذكروا منها غير الف المد فى « لا » (٣٥) ، الا اذا اعتبرنا أن رمزى الواو والياء يدلان على الصوتين الصامتين والصائتين بطريق المجاز أو الاشتراك •

أما الألف التى فى صدر الألفبائية فيعنى بها الهمزة كما هو معلوم •

عددها وميزاتها :

لقد أكد اخوان الصفا فى أكثر من موضع من رسائلهم أن عدد الحروف الكتابية فى العربية ثمانية وعشرين ، وأنه العدد الذى وقفت عنده اللغات ، اذ يقولون فى معرض حديثهم عن ظهور صناعة الكتابة وتطورها مع الزمان ، كما مر فى الفصل الثالث :

« ولم تزل الحروف تزيد وتنقص ويظهر الشىء بعد الشىء وصناعة الكتابة تتسع وتتفرع الى أن كل عدد الحروف ثمانية وعشرين حرفا ، ثم وقفت على هذا العدد ولم تزد على ذلك » (٣٦) •

---

(٣٥) ذكر ابن جنى أن واضع حروف الهجاء لما لم يمكنه النطق بالالف التى هى مدة ساكنة ، لان الساكن لا يمكن الابتداء به ، دعمها باللام قبلها متحركة ليمكن الابتداء بها ، فقال هـ و لا ى •

انظر : سر صناعة الاعراب ٤٨ ـ ٥٠ •

وذكر احد الدارسيين المحدثين أن الالف كان يطلق على صوت الهمزة فى فترة مبكرة ، ولما وضع للهمزة علامة مستقلة ، استغل الالف اسما ورمزا للدلالة عليه باعتباره مدا ، ثم وصلوا صورة الالف باللام حتى يمكن الابتداء بها • راجع : د• كمال بشر : دراسات فى علم اللغة ١٠٠ ، ١٠١ ط دار المعارف ١٩٧٣ م •

(٣٦،٣٧) انظر : رسائل اخوان الصفا جـ ٣/١٤٣ •

ثم يقولون :

« وكانت صناعة الكتابة فى اللغة العربية خاتمة الكتابات وتمام عدد الحروف ، كما أن شريعة الاسلام آخر الشرائع كلها ، ومحمد ﷺ خاتم النبيين وأصحاب الشرائع ، وعلى شريعته تقدم القيمة » (٣٧) .

وقد سبق أن نقلنا عنهم — فى أثناء الحديث عن مكانة العربية — قولهم :

« فاللغة العربية فى اللغات مثل صورة الانسان فى الحيوان ، ولما كان خروج صورة الانسان آخر صور الحيوانية ، كذلك كانت اللغة العربية تمام اللغة الانسانية وختام صناعة الكتابة ، ولم يحدث بعدها شىء ينسخها ولا يغيرها ولا يزيد عليها ولا ينقصها »

وقد رأى الاخوان أن الألفبائية العربية تستوعب كل ألفبائيات اللغات المختلفة حين قالوا :

« وفى كل أمة وبكل اقليم وجزيرة وموضع أهل خط وحروف وكتابات وعلامات ، يجمعها كلها هذه الثمانية والعشرون حرفا . ولولا خوف الاطالة لأتينا على ذكر كثير من اللغات وكتابات أهلها وأعداد حروفهم ، مثل ما يوجد فى اللغة السريانية والعبرانية واليونانية والرومية ، وما يتفرع عنها فى سائر الأجناس والأمم من بنى آدم » (٣٨) .

كما رأى الاخوان أيضا أن الألفبائية العربية مشتملة على كل الأشياء حين قالوا :

---

(٣٨) انظر : المرجع السابق جـ ١٤٤/٣ .

« اعلم أن الحكيم واضع الخط العربى اقتضى فيما وضعه من ذلك آثار حكمة الله تعالى وكان حكيما فاضلا • وقيل ان الحكمة هي التشبه بالإلاه بحسب طاقة البشر ، ومعنى هذه الحكمة أن يكون الرجل حكيما فى مصنوعاته ، متحققا فى معلوماته ، خبيرا فى أفعاله • فوضع ذلك على موجب الحكمة فى العالم لتكون حروف (أ ب ت ث) وهى حروف الجمل مشتملة على كل الأشياء ، مطابقة للأعداد الموجودات فى الأصل وما تتفرع منه ويحدث عنه مما لا يحصى ذلك الا الله تعالى » (٣٩) •

وعندما ننظر فى تصور الاخوان للألفبائية وعددها نتساءل : هل الألفبائية العربية ثمانية وعشرون حرفا ؟ وهل ألفبائيات اللغات الأخرى لا تزيد على هذا العدد ؟ وهل الألفبائية العربية مستوعبة الألفبائيات الأخرى ؟

لقد سبق أن ذكرنا أن عدد الأصوات الأصول فى العربية أربعة وثلاثين صوتا ، وأن كل صوت من هذه الأصوات يقابله رمز كتابى (مع ملاحظة أن رمزى الواو والياء يدلان على الصامتين والصائتين) ، وأن الألفبائية العربية لم تتضمن رموز الحركات القصيرة التى وضعها الدؤلى ثم الخليل •• ولما كانت تلك الألفبائية متضمنة رمز الألف الطويلة فان جمهور علماء العربية أرجع عدد الرموز الى تسعة وعشرين رمزا أو حرفا هجائيا ، أولها الألف (الهمزة) وآخرها ألف المد ثم الياء •

ولكن اخوان الصفا أرجعوا عدد الأصوات ورموزها الى ثمان وعشرين على الرغم من أنهم ذكروا ألف المد « لا » فى الترتيب السالف

---

(٣٩) انظر : المرجع السابق جـ ٣/١٤٣ •

الذكر ، وبهذا الرمز يصير عدد الرموز تسعة وعشرين رمــزا كما ذكر علمـــاء العربية .

والذى أوقع الاخوان فيما وقعوا فيه محاولتهم التوفيق المتكلف بين العدد « ثمان وعشرين » وبين منازل القمر وأعضاء جسم الانسان وما شاكل ذلك من فلسفة أصبغوا بها هذا العدد كما ســبق مفصلا فى الفصل الثالث .

وأما كون الألفبائيات الأخرى لا تزيد على هذا العدد ففيه نظر، فبينما نرى الاخوان يؤكدون هذا كما سبق ، نراهم أيضا يقولون عن حروف اللغـــات الأخرى « وانما فى سائر اللغـــات فربمـــا تزيـــد وتنقص » (٤٠) . وهذا لا ينقص من شأن الألفبائية العربية ، ولا من تمثيلها أصـــواتها أمثل تصاديق ، ولا يطعن فى اعتبـــارها أتم وأكمل الألفبائيات . ويمكن حمل تلك الزيـــادة على الأصـــوات الفرعيـــة لا الأصـــلية .

ولذلك نرى ابن قتيبة ــ الذى يرى أيضـــا أن عدد الألفبـــائية العربية ثمان وعشرون (٤١) ــ يقول .

---

(٤٠) انظر : المرجع السابق ج ٣٩٣/١ .

(٤١) أرجع علماء اخرون أيضا عدد حروف العربية الى ثمـــانية وعشرين حرفا مثل الرازى (ت ٦٣١ هـ) .

انظر الحروف : ٦٤ ، ومن قبله أيضا المبرد ، حيث جعل الباء أول الحروف ، وترك الالف (الهمزة) ، لانها همزة ولا تثبت على صورة واحدة ، وليست لها صورة مستقرة فلم يعتـــدها مع الحـــروف التى اشكالها محفوظة معروفة . انظـــر : المقتضـــب ج ٣٢٨/١ تحقيق : عبد الخالق عضيمة . المجلس الاعلى للشـــئون الاسلامية ١٣٩٩ هـ . وابن جنى : سر صناعة الاعراب ٤٦ .

« وألفاظ جميع الأمم قاصرة عن ثمانية وعشرين ، ولست واجدا في كلامهم حرفا ليس في حروفنا معدولا عن مخرجه شيئا » (٤٢) .

وقد رأى الاخوان — كما سبق — اشتمال الألفبائية العربية على ألفبائيات السريانية ، والعبرانية واليونانية والرومية ، ولكنهم لم يفصلوا القول فيها وفي غيرها من اللغات الأخرى خوف الاطالة .

وعند مقارنة العربية باللغات الأخرى يتبين صدق علماء العربية فيما قالوا ، سواء أكانوا اخوان الصفا أم ابن قتيبة أم غيرها .

بين الألفبائية العربية وغيرها :

وقد قورنت الألفبائية العربية بألفبائيات كثير من اللغات ، وقد أكدت النتائج — بعيدا عن المفاخر القومية والنخوة العصبية — كمال تلك الألفبائية واستيعابها كثيرا من الألفبائيات الاخرى .

ومن تلك المقارنات ما قام به كل من الأستاذ العقاد — رحمه الله — والدكتور / محمد حسن جبل ، حفظه الله . واليك ملخصا لأهم ما استخلصناه :

يرى العقاد أن الأبجدية الروسية أنقص حروفا من الأبجدية العربية ، على خلاف ما كان يعرف ، وان زادت علامات الأحرف بها عن علامات الأحرف عندنا ، وقد أرجع النقص الى عدة أمور ، منها (٤٣) :

---

(٤٢) انظر : تأويل مشكل القرآن ١٤ .

(٤٣) انظر : الابجدية العربية أكمل الابجديات ٣٩٢ — ٣٩٣ . مقال بمجلة الازهر (جـ ٤) السنة الرابعة والثلاثون . جمادى الاخرة ١٣٨٢ هـ / نوفمبر ١٩٦٢ م .

١ ــ عدم اشتمال الأبجدية الروسية على حروف تمثل أصوات الحاء والذال والصاد والضاد والطاء والظاء • ويعوضونها اذا كتبوا الأسماء العربية بوضع نقط تحت الحرف التى تؤدى عندهم أصوات الخاء والزاى والسين والدال والتاء •

٢ ــ كتابة حرفين متلاصقين لأداء المخارج الصوتية الملتبسة مع بعض •

٣ ــ تكرار علامات حروف المد لتؤدى حركات الألف والواو والياء عندنا ، وهى مصوتة أو صامتة يتغير نطقها بتغير حركات الضم والفتح والكسر أو السكون عليها •

٤ ــ تمثيل بعض الحروف أصواتا ملتبسة بين مخرجين ، ولا تمثل حرفا خالصا من مخرج واحد • وهذه الحروف ــ كما قال رحمه الله ــ ليست بالناقصة فى اللغة العربية ، ولكنها موجودة فى لهجات القبائل وعابها زيادة من قبيلها ، وهى جميعا تدل على طور من أطوار النطق تخطاه العرب فى سبيل سلامة النطق التى انتهت اليها قبائلهم الفصحى ، وخلص فيها النطق السليم من لبس المخارج ولبس الحروف ، فلا يسيغون حرفا واحدا يختلط فيه مخرجان ، ولا يستسيغون مخرجا واحداً فيتعثر فيه اللسان بين حرفين ، ولا يقعون فى اهمال المخارج الصوتية المهمة التى يستقيم بها نطق الانسان ، وأهمها مخرج الحروف الحلقية التى تلتبس الحروف عند الامم غير العربية لاهماله فى تقسيم حروف الكلمات •

وقد أحال ــ رحمه الله ــ القارىء الى كتب النحو والصرف والقراءات ليقف على الحروف الكثيرة التى تبلغ بها الأبجدية العربية فوق الأربعين لو أضيفت اليها •

ثم يذكر القارىء ببعض تلك الحروف الفرعيـة كحرف الياء القريبة من الجيم فى بعض لهجات قضاعة ، والكاف القريبة من الشين فى بعض لهجات ربيعة ، والباء القريبة من الميم فى بعض لهجات مازن، والكاف القريبة من الجيم القاهـرية فى بعض لهجـات اليمن ، وحرف بين الصاد والسين ، وحرف بين الطاء والتـاء ، وحرف بين الظـاء والثاء ، وحرف بين الباء والفاء ، وحرف بين الشين والجيم فى بعض لهجات قيس وبنى أسد ، وبعض لهجات المتحدثين ممن تتحرف ألسنتهم عن النطق السوى المتفق عليه بين قبائلهم التى اصطلحت على النطق الفصـيح .

وقد انتهى رحمه الله الى نتيجة مهمة تتضح فى قوله :

« وقوام النطق الانسانى الفصيح أن فيه جميع مخارج الأصوات، وأن تتخلص فيه مواقـع الحروف بغير لبس ولا اختـلاط ، وهذه هى مزية الأبجدية العربية التى يحق لنـا من أجلها أن نحسـبها أكمل الأبجديـات » .

وقد استشهد لذلك بالشواهد العضـوية الحيوية أو الشـواهد البيولوجية الفزيولوجيـة ــ على حـد تعبيره ــ لأن جهـاز النطق الانسانى وتوزيع مخارج النطق عليه حقيقة من حقائق العلم والحياة لا تزيد عليها ولا تنقص منها مفاخر الأجناس والأنساب ولا دعـاوى اللغات واللغويين .

وقد أرجع استيفاء النطق بمخارج الحروف الحلقية الى مزيـة جوية فى الجزيرة ، تاريخية فى أهلها ، لأن مناخ الجزيرة لا يحول دون استخدام الحلق فى الكلام ، واشـتغال أهلهـا برعى الابل والشـاة

يعودهم سماع الأصوات التى تقارب حروف القاف والعين والخاء (٤٤) .

ثم نراه يعتد برسم الكتابة العربية ويجعله أساس كل تنقيح او توسيع نحتاج اليه ، ويقول :

« ان هذا الرسم نمط رفيع بين الأبجديات فى لغات الأمم التى لم تسلم بعد من العجمة أو اللكنة ، ولم تخلص فى تجربة المخارج الصوتية من الاهمال والاختلاط الى فصاحة النطق السليم » (٤٥) .

« ونراه يؤكد — فى أبحاثه المختلفة (٤٦) — كمال الأبجدية العربية على النحو السالف الذكر ، وأنها أوفر عددا فى أصوات المخارج ولا تتكرر بمجرد الضغط على المخرج الواحد كما يحدث فى الباء الخفيفة والباء الثقيلة ، أو كما يحدث فى الفاء ذات النقطة الواحدة والفاء ذات النقط الثلاث ، أو كما يحدث فى الجيم المعطشة وغيرها . كما يؤكد أن العربية تمتاز بحروف لا توجد فى اللغات الأخرى كالضاد والظاء والعين والقاف والحاء والطاء ، أو توجد فى غيرها ولكنها ملتبسة مترددة لا تضبط بعلامة واحدة .

كما يؤكد أيضا أن الزيادة فى حروف بعض الأبجديات الأخرى فى اللغات الهندية الجرمانية ، أو الطورانية ، أو السامية ، لا تبلغ مبلغ العربية فى الوفاء بالمخارج الصوتية على تقسيماتها الموسيقية ، لأن كثيرا من

(٤٤، ٤٥) انظر : المرجع السابق ٣٩٤ .

(٤٦) انظر : اللغة الشاعرة : ١٢ — ١٥ . مكتبة غريب . ط. ١٩٧٧ م ، أشتات مجتمعات فى اللغة والادب ٥ — ١٣ ٢١ — ٢٨ ، ١٢ — ١١٨ — المطبعة الخامسة . دار المعارف ١٩٨٢ م : اللغة العربية بين لغات الحضارة العصرية ١٠٥٦ — ١٠٥٩ . مقال بمجلة الازهر ج ١٠ المجلد (٣٢) شوال ١٣٨٠ هـ / مارس ١٩٦١ م .

هذه الحروف الزائدة انما هو حركـات مختلفة لحرف واحـد ، او هو حرف واحد من مخرج صوتى واحد تتغير قوة الضغط عليه كما تتغير قوة الضغط فى الآلات دون أن يسترعى ذلك افتنانا فى تخريج الصوت الناطق من الأجهزة الصوتية فى الانسان •

كما يؤكد أنه لم يحدث لأبجدية أخرى غير الأبجدية العربية انها جربت زمنا طويلا فى كتابة اللغات من كل أسرة لسانية ، فلم تقصر فى هذه التجربة عن شأو الأبجديـات الأخرى ، اذ كتبت بها العربية والفارسية والتركية والأردية والاسبانية ، وهى تنتمى الى الأصـول السامية والطورانية والهندية الجرمـانية ، وقد وجد فيها الكاتبون ما ينوب عن الحروف الملتبسة ، ولم يوجد فى الأبجديات المختلفة ما ينوب عن حروف العربية الصريحة فى مخارجها بما استوفته من جهاز النطق الانسانى فى كل آلة من آلاتـه •

* * *

أما الدراسة الأخرى التى قام بها أستاذنا الدكتور محمد حسن جبل فتؤكد ما انتهى اليه استاذنا العقـاد •

فللعبرية ثلاثة وعشرون صوتا ؛ منها ستة أحرف لها بدائل تعوض نقصها ، فقد تنطق البـاء فاء ب، والجيم غينا ، والدال ذالا ، والكاف خاء ، والباء فاء ، والتاء ثاء • وفيها أيضـا ثمـانى حركات بعضها صـور أدائية ، فى العربية أمثالها وللفارسـية الحديثة — بعد التأمل — ثلاثة وعشرون صوتا صامتا • واذا كان لها عشر حركات فان كثيرا منها صـور أدائيـة بشروط خاصـة بها ، فى العربية نظـائر تفوقهـا عـددا •

ولكل من اليونانية واللاتينية أربعة وعشرون صوتا •

ولكل من الانجليزية والفرنسية تسعة وعشرون صوتا •

وقد ذكر أن القيمة الأساسية فى كثرة أصوات الأبجدية وتغطيتها لكل المدارج الصوتية فى الجهاز الصوتى الانســانى هى زيــادة بناء الكلمات الجديدة فى تلك اللغة ، كما أن غزارة الثروة اللفظية المستعملة للغة هى مؤشر أكيد على غزارة فكر الأمة وتنــاوله لكل المجالات التى يطرقها الفكر (٤٧) .

وهذا يتضح من خلال ما ذكره اخوان الصفا ، وأكدته الدراسات المقارنة الحديثة أن العربية أثرى اللغات بالأصــوات ، وأن أبجديتها أكمل الأبجديات .

---

(٤٧) راجع : د. محمد حسن جبل : اصوات اللغــة العربية : دراسة نظرية وتطبيقية ٦٠ ـ ٦٩ .
(طباعة أوفست بطنطا) .

الفصل الرابع

الخـط العربى

لقد سبق أن عرفنا — فى فصل نشأة اللغة — تصور اخوان الصفا لظهور الكتابة ، والوقت الذى ظهرت فيه ، وعوامل ظهورها ، وهل هى توفيق من الله ، أم صناعة مدنيّة يفرضها اجتماع الناس وتمدنهم ، كما عرفنا أصل صورة الخطوط الكتابية بأجمعها ، ومعيار جودة الخط فى أى لغة كانت ، وأهمية الخط والكتابة فى حياة اللغة ونهضتها ، وفى حياة الناطقين بها .

ونتحدث هنا عن الخط العربى ونبين ما ذكره الاخوان بصدده .

والحق أن الخط العربى صار علما ، ويشتمل على موضوعات متعددة ، منها اشتقاقه ومصدره ، وأصل صورته ، وأنواعه ، والمواد المستخدمة فيه ، وانتشاره وتطوره ، ومعايير جودته ، ومراكز تجويده ، وأشهر المدارس المجودة ، ومناهجها ، الى غير ذلك مما يثار فى هذا العلم .

ونجد اخوان الصفا يتحدثون عن اشتقاقه ومصدره ، وأصل صورته واستيعابها صور الكتابة بعامة ، ومعايير جودته ، وأسباب الخروج عن تلك المعايير ، ودوافع تجويده .

ونلقى — فيما يلى — الضوء على هذه النقاط :

(أ) مصادر الخط العربى :

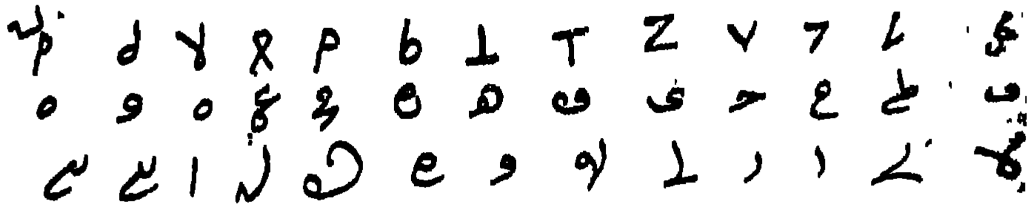
لقد صنع الاخوان لأنفسهم وتابعيهم لغة فيما بينهم لا يشاركهم فيها سواهم ، ووضعوا بصدد ذاك علامات ورموز كتابية ، تستر ما

يريدون توضيحه ، وينغلق معناها على غيرهم ، هى ما يعرف الآن بلغة « الشفرة » ، حيث استبدلوا الحروف العربية باشارات غريبة لا يعرف ما يعادلها الا الذين وقفوا على صحيفة تلك الرموز ، وقد استخدموا لغة « الشفرة » هذه فى بعض مقاطع رسالتهم الجامعة (١)، كما أوردوا مفتاح هذه اللغة فى الرسالة نفسها (٢) .

وفى هذا السياق تحدثوا عن مصدر الخط العربى واشتقاقه . ورأوا أنه مأخوذ من الخط الحميرى ، وأن الذى نقل شكله الى ما هو عليه الآن — كما يقولون — على بن أبى طالب (عليه السلام) ، اذ يقولون :

« وكان الناس قبل مجىء النبى ﷺ وعلى آله وصحبه وسلم يكتبون كتبهم ومراسلاتهم بالخط الحميرى ، فنقل شكل الحروف الى ما هى عليه الآن على بن أبى طالب عليه السلام ، وشكلها بهذا الشكل لاعلم الذى دفنه تحته ، عرفه وقد كتبوا شكل الخط الحميرى — بازاء شكل الخط العربى المعروف — معللين لذلك بقولهم «لتعرف كيفيته، ولا تكون جاهلا به ، وليقع أيضا تحت حسك البصرى » (٣) .

وهذه صورة الخط الحميرى كما كتبوها (٤) :



(١) انظر : الرسالة الجامعة : ج ١/٥٢٣ ، ٥٢٤ ، ٥٢٨ ، ٥٢٩ ، ٥٣١ ، ٥٣٢ .
(٢) انظر : المرجع السابق ج ١/٥٢٣ .
(٣، ٤) انظر : المرجع السابق ج ١/٥٢٤ .

ثم قالوا : « ولهذه الصورة المركبة على هذا المثال من الحروف أسماء أخر تظهر بلغة أخرى اذا تشكل الفلك فى وقت القرآن الموجب لتغير الأشياء عما هى به الى النوع الذى يوجبه تكون مثل هذا فاعرفه ان شاء الله » (٥) •

هذا هو تصور اخوان الصفا لمصدر الخط العربى •

والحق أنه لم يتفق المؤرخون لمصدر الخط العربى على كلمة واحدة ، ومن ثم تعددت النظريات واختلفت :

فكثير من أصحاب المصادر العربية القديمة يرون أن الخط العربى توفيق من الله ، علمه آدم عليه السلام — كما سبق فى أثناء الحديث عن نشأة اللغة — ثم صار من نصيب اسماعيل عليه السلام بعد الغرق•

وقد انتقد هذا الرأى ، لعدم قيامه على أساس من العلم أو سند من التاريخ الصحيح ، وقيل انه جاء تأييدا للنظرية التى تذهب الى أن اسماعيل أول من تكلم بالعربية (٦) •

وينقل القلقشندى عن السهيلى أن اسماعيل عليه السلام أول من كتب بالعربية (٧) •

كما يرى المؤرخين أن الأصل فى الخط العربى الحجازى الذى نكتب به انما هو خط « التبابعة » فى اليمن ، المشهور بالسند الحميرى وانتقل منها الى الحيرة ومنها لقنه أهل الطائف وقريش بوساطة

---

(٥) انظر : المرجع السابق ج ١/٥٢٤ — ٥٢٥ •

(٦) انظر : ابراهيم جمعه : قصة الكتابة العربية ٧ الطبعة الرابعة • دار المعارف :

(٧) انظر : صبح الاعشى ج ١٤/٣ •

سفيان بن أمية ، أو حرب بن أميــة ، ويرى أن مصر تعلمت الكتابة العربية من حمير (٨) •

وقد انتقد أيضا هذا الرأى حيث « نفت المقارنة التى عقدت بين النقوش الحميرية المكتشفة فى اليمن والنقوش العربية الأولى وجـود علاقة بين الاثنين » (٩) •

ومن اللغويين الذين أيدوا اشـتقاق الخط العربى من المسـند الحميرى اليمنى العلامة ابن جنى (١٠) •

وكثير من العلماء يسـلم بأن جميع الخـطوط السـامية ومنها العربية ـ أخذت من الخط الكنعـانى (الفينيقى) ، بيـد أن العربية أخذت بوساطة الأقلام النبطية ، وقد اشـتق خط المسـند اليمنى ـ الذى يعد أقدم الخطوط العربية ـ من الكنعانى عن طريق النبط (١١) •

وقريب من هذا الرأى ما ذكره بعض المحدثين اعتمادا على ما اكتشف من نقوش حديثة من ان عرب النبط (١٢) ـ بعد ان اغـاروا

---

(٨) انظر : ابن خلدون : المقدمة ٤١٨ •

(٩) انظر : ابراهيم جمعة : قصة الكتابة العربية ١٠ •

(١٠) انظر : سر صناعة الاعراب ج ١/٤٥ •

(١١) انظر : د• عبد الغفار حامد هلال : أصوات اللغة العربية ٦٧ ـ ٦٨ • ط ١٣٩٩ هـ •

(١٢) قيل انهم قبائل يمتون الى عرب الجنوب بصـلة وثيقـة ، وعرفوا نوعا من التحضر والاستقرار فى المنطقة الممتدة من شـمال الحجاز وخليج العقبة واقليم شرق الاردن حتى منطقة دمشق ، وقـد عظم شأنهم وكونوا وحدات عربية سياسية أهمها الاباجرة فى « اذاسا » ، والارزاس فى « البتراء » و « تدمر » ، وعرفت مملكة هؤلاء الارزاس باسم مملكة النبط ، وبقيت عاصمتهم « البتراء » مزدهرة زهاء خمسة قرون حتى سقطت فى عام (١٠٦) بعد الميلاد •

راجع ابراهيم جمعة : قصة الكتابة العربية ١٥ ـ ١٦ •

أول أمرهم على أقاليم آرامية – ابتدعوا لأنفسهم خطا اشتقوه من الخط الآرامى الذى كان يميل الى التربيع ، ثم تخلص من صورته الآرامية الى صورة نبطية خالصة بميله الى الاستدارة ، وهى تلك الصورة التى اشتق منها العرب الشماليون خطوهم ، ولازال الخط العربى متأثرا بتلك الصورة النبطية حتى استعاره العرب الحجازيون وحولوه من صورته النبطية الى صورته العربية المعروفة لنا الآن ، وذلك فيما بين القرن الثالث الميلادى ونهاية القرن السادس (١٣) .

وقد ضمن ابن النديم (ت ٣٨٠ هـ) « الفهرست » صورة الخط الحميرى (١٤) ، وقد قابلتها بالصورة السابقة التى زعم اخوان الصفا أنها صورة الخط الحميرى فلم أجد شبها بينهما الا فى نطاق محدود .

كما قابلت الصورة التى ذكرها أخوان الصفا بصورة الخط الحميرى الذى نقشه أحد المحدثين (١٥) فرأيت الشبه نطاقه محدود جدا .

كما قابلتها بصورة الحروف الفينيقية ، واليونانية القديمة التى نقشها هذا الباحث نفسه (١٦) ، فرأيت تلاقيا بينهما فى ثلث الحروف تقريبا .

أما ادعاء اخوان الصفا بأن على بن أبى طالب كرم الله وجهه هو الذى نقل شكل الحروف الى ما هى عليه الآن ، وشكلها بهذا الشكل

---

(١٣) انظر : المرجع السابق ١٦ – ٢٠ باختصار .
(١٤) انظر : الفهرست : ص ٩ تحقيق رضا تجدد ط طهران .
(١٥) انظر : جرجس زيدان : الفلسفة اللغوية والالفاظ العربية ١٧٢ .
(١٦) انظر : المرجع السابق ١٦٨ .

للعلم الذى دفنه ، فهذا ادعـاء مردود ، وليس له سند من العـلم ، ويتناقض مع المتعارف عليه فى تاريخ الخط العربى وتطوره قبل وبعد ظهـور الاسـلام •

ولم أعثر على ما يؤيد زعمهم الا ما قاله القلقشندى : أول من وضع النقط الدؤلى من تلقين أمير المؤمنين على » (١٧) •

ومن المعروف ان الأبجديـة العربية احتفظت بترتيبها السـامى القديم وهو « أبجد هوز ••• الخ » حتى عهد عبد الملك بن مروان حيث أمر الحجاج بن يوسف الثقفى ــ والى العراق حينئذ ــ نصر بن علم الليثى (ت ٩٠ هـ) ، ويحيى بن يعمـر العـدوانى (ت قبل ٩٠ هـ) تلميذى أبى الأسود الدؤلى (ت ٦٩ هـ) باصلاح الخط وتمييز الحروف والحركات ورتبا الحروف حسب صورها المعروفة لنـا الان (١٨) ، الى أن جاء الخليل بن أحمد (ت ١٧٠ هـ) فاستبدل النقط المدور الذى وضعه أبو الأسود الدؤلى بعلامات توضع فوق الحرف أو تحته فيما يعرف بالشكل المستطيل الذى نستعمله اليوم ، وكذا وضـع رمـوز الهمز والتشديد والردم والأشمام (١٩) •

أما ارجاعهم أسماء الحروف وصدرهـا الى العامل الفلكى فهو زعم باطل كما سبق فى فصل تطور اللغة •

---

(١٧) انظر : صبح الاعشى ج ١٥٥/٣ •

(١٨) انظر : د• عبد الغفار هلال : أصوات اللغة العربية ٦٩ .
د• عبد الحميد محمد أبو سكين : دراسات فى التجويد والاصـوات اللغـوية ١٢ •

(١٩) انظر : أبو بكر عبد الله بن أبى داود السـجستانى (ت ٣١٦ هـ) : كتاب المصـاحف ١٤٤ ط دار الكتب المصرية ، والدانى (ت ٤٢٤ هـ) : كتاب النقط (فى ذيل كتابه المقنع فى رسم مصاحف الامصار ص ١٢٩ تحقيق محمد الصادق قمحاوى ••• ١٩٧٨ •

(ب) صورة الخط العربى :

يرى اخوان الصفا أن لكل لغة حروف وكتـــابة وصناعة تجتمع عليها حروفها ، ولكن اصل تلك الحروف كلها — عربية أو غيرها — هو الخط المستقيم الذى هو قطر الدائـــرة ، والخـــط المقوس الذى هو محيطها ، وسائر الحروف مركبة منهما • اذ يقولون :

« والسريانية لغة ولها حروف وكتابة وصناعة ونسبة تجتمع عليها الحروف أولها اسماء تختص بها موافقة للغتهم وهكذا أيضا للرومية لغة وكتابة أخرى بشكل موافق لكلامهم ولسانهم ، وهكذا لليونانيين ولأهل فارس وغيرهم من الأمم أجناس من اللغات وفنون من العبـــارات • ولكن أصل الحروف كلها فى أى لغة كانت وبأى نقش صورت وان كثرت وتنوعت هو الخط المستقيم الذى هو قطر الدائـــرة ، والخط المقوس الذى هو محيط الدائرة كما ذكرنا قبلا • وأما ســـائر الحروف فمركبة منهما ، ولو تأملته عند انفكاك الحروف العربية وجدت بعضها خطـــا مستقيما كالألف ، وبعضـــها مدورا كالقاف والميم ، وبعضـــها مقوسا كالحاء والخاء ، وعلى هذا المثال توجد كتـــابات ســـائر الأمم الذين ذكرناهم وغيرهم ممن لم نذكرهم ، وقد استغنينا بذكر الأصل والمشهور المعروف عند الجمهور عن ذكر من سواهم لطول الشرح » (٢٠) •

ونراهم يؤكدون هذا فى أكثر من موضع ، فمثلا نراهم يذكرون أصل حروف الكتابات كلها فى أى لغة وضعت على النحو السابق ، ثم يمثلون لما يذكرون من حروف الكتابة العربية ، فيرسمون صور حروف الألفبائية ثم يقولون :

« فانظر الآن واعتبر وتأمل يأخى ، أيدك الله وايانا بروح منه ،

---

(٢٠) انظر : رسائل اخوان الصفا ج ١٤٩/٣ وراجع ج ١٤٤/٣ •

فانك تجد هذه الحروف بعضها خطا مستقيما مثل هذا : أ ب ت ث ، وبعضها مقوسا مثل هذا : د ذ ر ز ، وبعضها مركبا منهما مثل سائر الحروف ، وعلى هذا المثال والقياس توجد حروف كتابات سائر الامم مثل الهندية فانها هكذا ١ ٢ ٣ ٤ ٥ ٦ ٧ ٨ ٩ ، وكذلك السريانية ، والعبرانية ، واليونانية والرومية ، فان لكل منها اصطلاحا فى أشكال الحروف وصورها لا يخرج عما قلنا » (٢١) .

وقد سبق أن قلنا ــ فى فصل نشأة اللغة ــ ان الاخوان عقدوا فصلا لأنواع الخط ، وصورة كل نوع ، ورسموا صورة الخط المستقيم هكذا : ــ ، وصورة المقوس هكذا : (، وصورة المنحنى المركب من المستقيم والمقوس هكذا : ــ ∩ ــ .

وقد سبق أن قلنا فى نفس الفصل أن الاخوان يربطون بين أصول الخطوط وصورها وبين عالم الكواكب . فاذا كان أصل الخطوط كلها الخط المستقيم الذى هو قطر الدائرة ، والخط المقوس الذى هو محيطها فان هذا موافق لما فى العالم العلوى من العقل والنفس ، ومن بينهما كان حدوث الأشياء كلها فى العالم السفلى مثل آدم وحواء اللذين من بينهما كان العالم . كما رأوا أن الحيوانات كلها وأشكال النبات لا تخرج عن هذا الحد والشكل ، وصورة الانسان تشبه الخط المستقيم وهى موافقة لصور العالم العلوى . وصورة الحيوانات وصور العالم السفلى بعامة تشبه الخط المقوس المعوج .

وهذا التصور نابع ــ كما مر فى فصل التطور اللغوى من الباب الأول ــ من اعتقاد الاخوان فى الأفلاك ، وايمانهم بتأثيرها ، فى كل الكائنات فيما دون القمر . وقد عرفنا هناك بطلان هذا الاعتقاد .

---

(٢١) انظر : المرجع السابق ج ٢١٩/١ ، ٢٢٠ .

(ج) معايير جودة الخط :

لقد رأى اخوان الصفا أن أجود الخطوط وأصح الكتابات ، وأحسن المؤلفات ما كان مقادير حروفها بعضها من بعض على النسبة الأفضل ، وبما توجبه قوانين الهندسة • وقد نقلوا عن أهل صناعة الكتابة القواعد والأصول التى ينبغى أن تراعى فى الخطوط ، اذ يقولون :

« قال المحرر الحاذق المهندس : ينبغى لمن يريد أن يكون خطه جيدا وكتابته صحيحة أن يجعل لها أصلا ويبنى عليه حروفه ، وقانونا يقيس عليه خطوطه ، والمثال فى ذلك فى كتابة العربية هو : .

أن يخط الألف أولا بأى قدر شاء ، ويجعل غلظه مناسبا لطوله ، وهو الثمن ، وأسفله أدق من أعلاه •

ثم يجعل الألف قطر الدائرة ، ثم يبنى سائر الحروف مناسبة لطول الألف لمحيط الدائرة التى الألف مساو لقطرها •

وهو أن يجعل الباء والتاء والثاء كل واحد منها طوله مساو لطول الألف ، وتكون رؤوسها الى فوق الثمن مثل هذا : ا ب ت ث •

ثم يجعل الجيم والحاء والخاء كل واحد منها مدته من فوقه نصف الألف وتقويسه الى أسفل نصف محيط الدائرة التى الألف مساو لقطرها مثل هذا : ج ح خ •

ثم يجعل الدال والذال كل واحد منهما مثل طول الألف اذا قوس مثل هذا : د ذ •

ثم يجعل الراء والزاى كل واحد منهما كمثل ربع محيط الدائرة التى الألف قطرها •

ثم يجعل السـين والشـين كل واحد منهما رؤوسهما الى فوق ثمن الألف ، ومدتها الى أسفل نصف محيط الدائرة مثل هذا : س ش .

ثم يجعل الصاد والضاد مدة طول كل واحد منهما الى قدام مثل طول الألف ، وفتحتها مثل ثمن الألف ، ومدتها الى أسـفل مثل نصف الدائرة المقدم ذكرها مثل هذا : ص ض .

ويجعل الطاء والظاء كل واحـد منهما طوله مثل طـول الألف ، وفتحتها مثل ثمن الألف ورؤوسها الى فوق بطول الألف مثل : ط ظ .

ثم يجعل العين والغين كل واحد منهما تقويسـه من فوق ربع محيط تلك الدائرة وتقويسه من أسفل نصف محيطها ، مثل هذا : ع غ .

ثم يجعل مدة الفاء الى قدام مثل طـول الألف ، وفتحتـه ثمن الألف ، وحلقته وحلقة القاف والواو والميم والهاء كلها متسـاوية مثل ثلث الألف اذا دور مثل هذا : ف ق و م هـ .

ويجعل مدة القاف الى أسفل مثل نصف محيط الدائرة مثل هذا: ق

ثم يجعل مدة الكاف الى قدام مثل طول الألف وفتحته مثل ثمن الألف وكسرته الى فوق ربع الألف مثل هذا : ك .

ثم يجعل طول اللام مثل الألف ، ومدته الى قدام نصف الألف مثـل هـذا : ل .

ثم يجعل مدة الميم والواو كل واحـد منهما الى أسـفل مثل تقويس الراء والزاى مثل هذا : م و .

ثم يجعل تقويس النون مثل نصف محيط تلك الدائرة التى الألف مساو لقطرها ا مثل هذا : ن .

ثم يجعل الياء مثل الدال ، ومدته الى خلف مثــل طول الألف أو تقويسه الى أسفل مثل نصف محيط الدائرة مثل هذا : ى (٢٢) •

ويحدثنا الذين أرخوا للخط العربى وتطوره أن تلك المرحلة التى حدثنا عنها اخوان الصفا ظهرت فى أواخــر القرن الثالث الهجرى فى العصر العباسى على يد الوزيــر : « أبو على محمد بن مقــلة (٢٣) ، ٢٧٢ ــ ٣٢٨ هـ / ٨٨٥ ــ ٩٠٨ م » حيث ينسب اليه هندسة الحروف وضبطها على النسبة الفاضلة ، ان زادت عنها قبحت ؛ وان قصر دونها سمج ، وكان ذلك فى العراق على رأس الثلاثمائة (٢٤) •

ولابن مقلة رسالة فى علم الخط والقلم بخــط يــده حبيسه دار الكتب المصرية (٢٥) ، وتحتــوى على القوانين والقواعــد فى رسم الحروف العربية ، معتمدا على منهج قطر الدائرة التى تبنى عليها جميع أقواس الحروف الأبجدية المفردة ، واعتبر الألف (قطر الدائرة) هو الأساس الهندسى لضبط الحروف ، على النحو الذى سجله الاخــوان كما سبق •

---

(٢٢) انظــر : رســـائل اخــوان الصــفا ج ١/٢٢٠ ـ ٢٢١ ، ج ٣/١٤٦ ـ ١٤٧ •

(٢٣) استوزره الخليفة العباس ؛ أبو الفضل جعفر المقتدر بالله (٢٧٩ هـ) ثم استوزره الخليفة أبو منصور محمد القاهر بالله (٣٢٠ هـ) ، وقطع يده الخليفة أبو العبـاس أحمد الراضى بالله (٣٢٢هـ) وحبسه بداره بعد أن وشى به الواشون ، ثم مات فى حبسه مقتولا •

انظر : محمود حلمى . الخط العربى بين الفن والتاريخ ١٨٠ ـ ١٨١ مجلة عالم الفكر المجلد (١٣) ، العدد (٤) ، ١٩٨٣ م •

(٢٤) انظر : القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣/١١ •

(٢٥) انظرها : برقم ١٤/ صناعة فى (٢٣) ورقة ، وبرقم ١٨/ تعلم تيمور فى (٧) صفحات •

وقد اعتمد كثيرا عليه وعلى اخوان الصفا المؤرخ المصرى أبى العباس أحمد بن على القلقشندى (٨٢١ هـ / ١٤١٨ هـ) فى كتابة مادته عن الخط العربى فى موسوعته العلمية التاريخية « صبح الأعشى » (٢٦) •

واذا كان ابن مقلة هو أول من كتب الخط البديع الذى تطور بعد ذلك الى خط النسخ فله أيضا ستة أقلام هى : الجليل ، وخط الثلث ، والثلث الخفيف ، وقلم التوقيعات ، وقلم الرقاع ، وقلم الغبار •

وكانت مكانته بين معاصريه أستاذا ومقننا فنون الخطوط العربية وموضع تقدير ، وقد سؤل عن خطه أبو حيان التوحيدى فقال : « ذلك نبى فيه أفرغ الخط فى يده ، كما أوحى الى النحل فى تدسيس بيوته » (٢٧) •

ومما يذكر أن لابن مقلة أخا أجاد نوعا من الخط المجود عرفه « بالنسخ » (٢٨) •

وتذكر المصادر المؤرخة للخط العربى أن جودة الخط التى انتهت الى الوزير ابن مقلة كانت قد بدأت قبل ذلك فى مراكز متعددة: فى الحجاز فى عصر النبوة ، ثم فى الكوفة عندما اتخذت مقرا للخلافة أيام سيدنا على بن أبى طالب ، واليها فينسب خط معروف جاف ذو زوايا كتبت به المصاحف الأولى ، بجانب خط آخر لين ، دونت به

---

(٢٦) انظره : جـ٣/٢٧ ـ ٥٠ •

(٢٧) انظر : محمود حلمى : الخط العربى بين الفن والتاريخ ١٨١ •

(٢٨) انظر : ابراهيم جمعة : قصة الكتابة العربية ٥٩ ـ ٦٠ الطبعة الرابعة • دار المعارف ١٩٨٤ م •

الدواوين وكتبت به المراسلات ، وكانت تنافس به الكوفة خط البصرة في تلك الفترة الزمنية التى احتدم فيها الجدل بين الكوفيين والبصريين.

وبانتقال الخلافة من الكوفة الى دمشق وقيام الدولـــة الأمويـــة (٤١ ـــ ١٣٢ هـ / ٦٦١ ـــ ٧٥٠ م) عنى الأمويين بالخط ، واشتهر من مجوديهم « قطبة المحرر » ، الذى يعد أول من كتب فى أيام بنى أمية كما يقول ابن النديم (٢٩) • وينسب الى قطبة أربعة أقــلام جديدة تبعد عن صورة الكوفى •

ثم ما ان أتى بنو العباس بخلافتهم العباسية حتى بدأت باكورة مرحــلة هندسة الحروف العربية وتجويدها بظهور خطــاطين شاميين أصلهما من دمشق الأموية : أولهما : الضحاك فى عهد « أبى العباس عبد الله السفاح » ، وثانيهما : اسـحاق بن حمــاد فى عهـد « أبى جعفر المنصور » و « أبى عبد الله محمد المهدى » • ومن بعدهما ظهر ابراهيم السجزى (ت ٢١٠ هـ) ، تلميذ اسحاق ، وأخــذ عنه قلمه الجليــل ، واستنبط منه خطين جديدين متجانسين وهما : الثلث والثلثان • وكان للسجزى أخ يدعى يوسف الذى أبدع خطا جديدا عرف بخط التوقيع وسمى بالقلم الرياسى ، وقد أعطانا القلقشندى نماذج من حروفه فى كتــــابه •

وهكذا نرى أن جودة الخط وهندسته التى انتهت الى ابن مقلة كان لها جذور راسخة وممتدة فى ديار الاسلام عبر القرون الأولى •

وقد أخذ هندسة الخط عن ابن مقلة خطاطان يدعى أولهما محمد بن السمسمانى (٤١٥ هـ) وثانيهما محمد بن أســد البزاز البغدادى (ت ٤١٦ هـ) ، ومن بعدهما ظهر مجود عظيم عرف « بابن البواب »

---

(٢٩) انظر : الفهرست ص ١٠٠ •

وهو أبو الحسن علاء الدين على بن هلال (ت ٤١٣ هـ / ١٠٢٢) الذى أكمل قواعد الخط وتممها وأسبغ عليه كثيرا من مظـاهر الجمـال دون اخلال بأصوله الهندسية والرياضـية ، واخترع غالب الأقـلام التى أسسها ابن مقلة (٣٠) • ثم تنوقل خط ابن البـواب الى ورثـه ثالث الثلاثـة الكبـار فى العصر العبـاسى : ياقـوت بن عبد الله الموصـع المعروف بالمسـتعصى والـروحى (ت ٦٩٩ هـ ـ ١٢٩٩ م) ، والملقب بقبـلة الكتـاب •

وبعد سـقوط بغداد فى يد المغول (٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م) تحولت مسيرة تجويد فنون الخط الى مصر المملوكية ، حين هب الخطاطـون المصريون للحفاظ على هذا الفن الذى يعتبر أقدس الفنون الذى كتب به كلم الله المقدس ، والذى يعد أحـد المظـاهر الحقيقية للحضـارة الاسلامية • ولذلك يقول ابن خلدون ـ الذى يربـط بين جودة الخط وبين اجتماع الناس وكثرة العمران :

« لما انحل نظام الدولة الاسلامية وتناقصت تنـاقص ذلك أجمع ودرست معـالم بغداد بدروس الخـلافة ، فانتقل شـأنها من الخط والكتابة ، بل والعلم ، الى مصر والقـاهرة ، فلم تزل أسـواقه بها نافقة لهذا العهد ، وله بها معلمون يرسـمون لتعليم الحروف بقوانين فى وضعها وأشكالها متعارفة بينهم ، فلا يلبث المتعلم أن يحكم أشكال تلك الحروف على تلك الأوضاع ؛ وقد لقنها حسنا وحذق فيها دربـة وكتابا ، وأخذها قوانين علمية فتجىء أحسن ما يكون » (٣١) •

وكانت لمدرسة الخطوط المجودة المصرية مكانتها قبل ذلك أيـام

---

(٣٠) انظر : القلقشندى : صبح الاعشى جـ ١٧/٣ ـ ١٨ •

(٣١) انظر : المقدمة ٤٢٠ •

الطولونيين والأخشيديين فى العصر العبــاسى ، ابان الدولة الفاطمية (٢٩٧ ـ ٥٦٧هـ / ٩١٠ ـ ١١٧١م) ، والدولة الأيوبية (٥٦٩ ـ ٦٥٠هـ/ ١١٧٤ ـ ١٢٥٢م) .

واستمرت تلك المدرسة تؤدى دورها بجانب ما أبدعته واستحدثته المدارس السلجوقية الأتابكية ، والتركية العثمانية ، والفارسية (٣٢) .

(د) أسباب الخروج عن معايير الخط :

لقد رأى الاخوان أن الناس قد يخرجون عن القوانين الهندسية للخط ، ونسبة الفاضلة الســالفة الذكر ، ويســتحدثون خطــوطا ، ويتعارفون عليها ويستحسنونها ، وهــذا يرجع الى الذوق والعــادة والدربة والموضوع الذى يكتب فيه . يقول الاخوان :

« وهذا الذى ذكرنــاه من نسب هذه الحروف وكمية مقــاديرها طولا وعرضا بعضها عند بعض ، فهو شىء توجبــه قوانين الهندســة والنسب الفاضلة . وأما ما يتعارفه الناس ويستحســنه الكتاب فعلى غير ما ذكرنــا من المقادير والنســب ، وذلك بحسب موضــوعاتهم ومرضياتهم واختياراتهم دون غيرها ، وبحسب طــول الدربة وجريان العــادة فيها » (٣٣) .

لقد سمى الخط الذى يجرى على النسبة الفاضلة محققا واستخدم الخطاطون المسلمون فى الأمور الجسيمة التى يقصد بها التخليد والبقاء

---

(٣٢) انظر ذلك بالتفصيل عند : ابراهيم جمعة : قصة الكتابة العربية ٧١ ـ ٨٦ ، محمود حلمى :
الخط العربى بين الفن والتاريخ ١٨٤ ـ ٢٠١

(٣٣) انظر : رسائل اخوان الصفا ج ٢٢٦/١ .

على الأعقاب ، وكانت تكتب به أيضا مراسلات الملوك ، كما كانت تخط به المصاحف .

أما الخط الذى لا يلتزم هذه النسبة فقد سمى دارجا أو مطلقا وهو الذى تؤدى به الاغراض اليومية العاجلة .

ولكن الناظر فى تاريخ الخطوط العربية ومدارسها يرى أن بعض تلك المدارس قد جعلت من الحروف العربية وقواعدها للخطية ليس مجرد نقل للشكل يقتضى مراعاة الفروق الدقيقة لنسب الحروف ووزنها الشكلى ، بل أصبحت الغاية القصوى لديها مراعاة الفروق الدقيقة لنسب الحروف مع ما تسره من مضمون روحى . ولذلك أخذ الخطاط المجود العبقرى يلتمس أنماطا جديدة غير معروفة طرح من حروفها الموزونة تعبيرا روحيا جعل من الخطاط صوفيا متمرسا من أرباب الأحوال والمقامات ، يفيض قلبه ولسانه ويده بحب الله ، فأكثر من كتابه لفظ الجلالة فى خط مميز جميل ليتقرب رتبة الى الله .

وهذا ما ابتدعته المدرسة الفارسية — وتأثرت بها المدرسةالتركية فيما بعد — حين جعلت للحروف مذاقا فنيا له صورة بصرية موضوعية، وله صورة سمعية تتردد خفقاتها داخل الحروف وفى ذات المجود المبدع ، ومن ثمة داخل نفس المتذوق (٣٤) .

ثم هيأ لتلك المدرسة المصرية من ينهض بها ، وينبت مكانتها ، ويعلو من شأنها فى العصر الحديث ؛ الى أن صارت فى هذه الآونة قبلة القصاد لتعلم هذه الصناعة الفنية الرائعة .

وقد رؤى أن انبناء الحروف العربية على أصل هندسى ثابت ، وقاعدة رياضية معروفة يعد من محاسن تلك الحروف ، « وقد دل عدم

---

(٣٤) انظر : محمود حلمى : الخط العربى بين الفن والتاريخ ١٨٩ وما بعدها .

التزام هذه النسبة فى الكتابة على كثير من المفاسد ، فقد وجدت الألف التى طولها بالنسبة لعرضها ١٢ : ١ هزيلة مفرطة فى الطول ، كما وجدت الألف التى طولها بالنسبة الى عرضها ٤ : ١ قميئة قبيحة » (٣٥)٠

بل رؤى أن خطوط اللغات الأخرى لم تبلغ مبلغ الخط العربى الذى قام على هذا الأساس الهندسى « ومهما قيل فى شأن حروف الأمم الاخرى من أنها تجرى بدورها على أساس هندسى أو جمال معين ، فليست كلها ببالغة ما بلغته الكتابة العربية فى هذا المضمار ٠ ولا نظن أمة من الأمم قد أولت الكتابة هذه العناية فجعلت منها فنا دقيقا مفصل القواعد ، ثابت الأسس ، مفرد الضوابط مثل امة العرب ، ولا نخال حظا أفاض نقاد الفنون فى وصفه وتقرير هيئته وتشريح أجزائه ، وابراز معاييره الجمالية واثبات خصائصه وما ينبغى أن يكون عليه مثل الخط العربى » (٣٦) ٠

وقد نقل ابن النديم عن الكندى قوله : « لا أعلم كتابة تحتمل من تجليل حروفها وتدقيقها ما تحتمل الكتابة العربية ، ويمكن فيها من السرعة ما لا يمكن فى غيرها من الكتابات » (٣٧) ٠

(هـ) دوافع تجويد الخط العربى :

لقد أوضح الاخوان أن الهدف من تجويد الخط العربى صون القرآن الكريم عن التصحيف والخطأ واللحن ، والحفاظ على اللغة العربية آلة نزل بها القرآن الكريم ، والتى بألفاظها يقرأ ، وبحروفها يكتب ٠ يقول الاخوان :

« ولما كانت اللغة العربية والكتابة بحروفها التامة يحتاج اليها

(٣٥، ٣٦) انظر : ابراهيم جمعة : قصة الكتابة العربية ٩٠ ٠

(٣٧) انظر : الفهرست ١٣ ٠

فى قراءة كتاب الله تعالى الذى ختم بنزوله كتب الأنبياء عليهم السلام، وذكر فيه ما كان وما يكون الى يوم الوقت المعلوم ، فانه لا يجب أن يكتب الا بأحسن الخطوط وأقومها وأتمها وأكملها ، ولا يجب أن يكتب بالخطوط الناقصة التى ليست بموزونة ولا معتدلة ، لئلا يتصحف على قارئه ويكثر الخطأ واللحن والزلل فيه عند القراءة » (٣٨) •

لقد عنى المسلمون بالقرآن الكريم ولغته منذ أن نزل على رسولنا الكريم أول آيات الذكر الحكيم : « اقرأ باسم ربك الذى خلق • خلق الانسان من علق • اقرأ وربك الأكرم • الذى علم بالقلم• علم الانسان ما لم يعلم » (٣٩) •

ومنذ ذلك الوقت التزم المسلمون بالوحى المنزل حفظا وكتابة • وعنوا بالتركيب الحرفى للفظ المكتوب ليصلوا به الى المستوى الرفيع الذى كان عليه التركيب اللفظى المنطوق ، ولذلك لم يروا بأسا من كتابة القرآن بالذهب ، وتحسين كتابته وتبيينه وايضاحه وتحقيق خطه حذرا من نقص فى الحروف واشتباه فى بعض الكلمات • ولذا لا نعجب حين ينقل السيوطى عن الزجاجى فى شرح أدب الكاتب قوله : روى عن ابن عباس فى قوله تعالى : « أو اثارة من علم » ، قال الخط الحسن • وقوله عن بعض المفسرين فى قوله تعالى : « يزيد فى الخلق ما يشاء » : هو الخط الحسن • كما ينقل عن بعضهم فى قوله تعالى « علم البيان » أى الخط (٤٠) •

وما لبث أن تقاسم خط اللغة العربية لفظها ، ونرى القلقشندى يوازن بينهما قائلا: «أما الموازنة بين الخط واللفظ فالأصل فى ذلك أن الخط

---

(٣٨) انظر : رسائل اخوان الصفا جـ ١٤٦/٣ •

(٣٩) الآيات ١ ـ ٥/ سورة العلق •

(٤٠) انظر : المزهر جـ ٣٥٠/٢ ـ ٣٥٢ •

واللفظ يتقاسمان فضيلة البيان ويشتركان فيها : من حيث أن الخط دال على اللفظ ، والألفاظ دالة على الأفكار . ولاشتراك الخط واللفظ في هذه الميزة وقع التناسب بينهما في كثير من أحوالهما ، وذلك لأنهما يعبران عن المعاني ، الا أن اللفظ معنى متحرك والخط معنى ساكن ، وهو وان كان ساكنا فانه يفعل فعل المتحرك بايصاله كل ما تضمنه الى الافهام وهو مستقر في حيزه ، قائم في مكانه ، كما أن اللفظ فيه العذب الرقيق السائغ في الأسماع ، كذلك الخط فيه الرائق المستحسن الأشكال والصور » (٤١) .

وثمة أمر آخر شجع المسلمين على الاعتناء بالخط العربي وتجويده ، حيث يقول أحد من أرخ له :

« ان الكتابة العربية كانت على طول القرون العشرة الهجرية الأولى محل عناية نفر من المنقطعين للتجويد ووضع الأصول واحكام المعايير ، والفضل في ذلك للعقيدة الاسلامية التي تلقى شيئا غير قليل من الشك على اتخاذ التصوير في الفنون الاسلامية ، وأغلب الظن أن عبقرية رجل الفن المسلم قد وجدت في الكتابة خير بديل عن مزاولة التصوير وتحمل أوزاره ، لما في التصوير من تقليد لصنعة الخالق» (٤٢) .

وثمة أمر ثالث شجع المسلمين على تجويد الخط وهو ما يناله الخطاط المجود من علو في المكانة ، وسمو في المنزلة ، اذ ينقل السيوطي عن صاحب كتاب زاد المسافر قوله : « الخط المجيد لسان، وللخلد ترجمان، فرداءته زمانة الأدب ، وجودته تبلغ بصاحبه شرائف الرتب ، وفيه المرافق العظام التي من الله بها على عباده فقال جل ثناؤه « وربك الأكرم الذي علم بالقلم » (٤٣) .

---

(٤١) انظر : القلقشندي : صبح الاعشى .

(٤٢) انظر : ابراهيم جمعة : قصة الكتابة العربية ٦٨ ــ ٦٩ .

(٤٣) انظر : المزهر جـ ٢/٣٥١ .

الفصل الخامس

من قضايا اللفظ والمعنى

لقد ألقى اخوان الصفا الضوء على عدة مسائل لغوية تتصل باللفظ ومعناه ، مثل الاشتراك اللفظى ، والترادف ، والتبـاين ، والتواطؤ ، والاشتقاق ، والقلب والتبديل ، وبلاغة الكلام . وقد أرجع السيوطى مثل هذه المسائل الى اللغة من حيث معناها (١) .

ونلقى الضوء فيما يلى على تصور الاخوان لتلك المسـائل بعـد تصنيفها الى ثلاثة أصناف :

- الاشتراك اللفظى والترادف والتباين والتواطؤ والاشتقاق .
- القلب والتبديل .
- بلاغة الكلام .

(أ) الاشتراك اللفظى والترادف ... الخ :

لم يتحدث اخوان الصـفا عن هذه المسـائل بطريقـة اللغويين والأصوليين وغيرهما الذين يوضحون سبب وجودها ، وآراء العلمـاء فيها ، وتفسيرها ، الى غير ذلك مما هو معلوم للدارس اللغوى ، وإنمـا تحدثوا عنها من واقع نظرتهم العقلية للمعنى كما سبق .

وبناءا على هذا أرجعوا الأقاويل المختلفة من جهة اللفظ أو من جهة المعنى الى خمسة أنواع ، وفرقوا بينها ، ومثلـوا لكل نوع ، ثم

---

(١) انظر : المزهر جـ ٣/١ .

أوضحوا حاجة المفسرين والقراء الى تلك النوع ، مؤكدين أن اختلاف هؤلاء المفسرين والقراء والفقهاء انما يرجع الى عدم المامهم بتلك الأنواع :

يقول الاخوان موضحين الأقاويل المختلفة من جهة اللفظ أو المعنى :-

« ان الأقاويل تختلف تارة من جهة اللفظ ، وتارة من جهة المعنى ، وتارة منهما جميعا ، وهى خمسة أنواع ، فمنها المشتركة فى اللفظ ، المختلفة فى المعنى كقولك : عين الانسان ، وعين الماء • ومقابلتها هى المترادفة التى هى المختلفة فى اللفظ المتفقة فى المعنى ، كقولك : البر الحنطة ، ومنها المتباينة فى اللفظ والمعنى جميعا ، كقولك : حجر وشجر ، ومقابلتها المتواطئة ، وهى المتفقة فى اللفظ والمعنى جميعا ، كقولك : هذا انسان اسمه زيد ، وهذا اسمه عمرو • ومنها المشتق أسماؤها وهى كقولك « الضارب والمضرب وما شاكلها من الاسماء المشتقة من الأفعال » (٢) •

كما يوضح الاخوان حاجة المفسرين لألفاظ التنزيل الى معرفة تلك الألفاظ المشتركة وغيرها ، والالمام بها قائلين :

« وأما التى يحتاج اليها من هذه الخصال والاخلاق والشرائط المفسرون لألفاظ التنزيل ، فأولها معرفة غرض صاحب الناموس فى ايراده التنزيل ، واستعماله الالفاظ المشتركة المعانى ، ثم أن يكون له اتساع فى معرفة تصاريف الكلام والأقاويل ، وما يحتمله من المعانى مما يؤكد غرض واضع الناموس ، ويكون له جودة بحث وبعد غور فى استخراج المعانى ولطف العبارة عنها بحسب ما تحتمل عقول المستمعين ، ويقرب من فهم المتعلمين ، ويكون له من يقظة القلب ما لا

(٢) انظر : رسائل اخوان الصفا جـ ١/٤٠٠ ـ ٤٠١ •

يناقض فى أقاويلة وعباراته ولا فى المعانى التى يشير اليها فى تفسيره لالفاظ تنزيل واضع الناموس وأقاويله وكلامه وبيانه • واعلم يا أخى بأنه متى لم يكن المفسر عارفا بغرض واضع الناموس فى ايراده الالفاظ المشتركة المعانى فى تنزيله وأقاويله وعبارته وبيانة ، تخيل له من تلك الالفاظ من المعانى غير ما أشار اليه واضع الناموس ، وتوهم سوى ما أراد فيها ، فأفهم المستمعين من تفسيره ما تخيل هو ، وعلم المتعلمين ما علم به ، فصار له ذلك دينا ومذهبا غير دين واضع الناموس وطريقته، وكان مخالفا له فى اعتقاده فى الشريعة وهو لا يشعر ، ويكون بذلك مفسدا فى أحكام الناموس وهو يظن أنه من المصلحين ، ولا يدرى • فاحذر يا أخى من هذا الباب ، فان فساد ديانات واضعى الناموس وأحكام شرائعهم أكثرها من هذا الباب يكون » (٣) •

كما يذكرون أن علة اختلاف القراء ترجع الى تلك الالفاظ المشتركة وغيرها ، اذ يقولون :

« فعلة اختلاف القراء هى من أجل الالفاظ المشتركة المعانى والمترادفة والمتباينة والمتواطئة والمشتقة — كما بينا معانى هذه الخمسة أنواع فى رسالة المنطق — وانما يستعمل صاحب الناموس هذه الالفاظ فى تنزيله وخطبه ، لأن كلامه على العموم للناس : الخاص والعام ، وفى المخاطبين : نساء وصبيان وعلماء وجهال ، وعقلاء وأغبياء ا ما بين ذلك الا لكى يعقل ويكمل كل انسان منهم معانى ألفاظه بحسب فهمه وذكائه وصفاء جوهره ، فلا يخلو أحد منهم من فائدة اذا سمعوا قراءة التنزيل، وهذا هو من أجل المعجزات فى كتب الأنبياء ، وخاصة القرآن منها ، ومن

---

(٣) انظر : المرجع السابق جـ ١/٣٢٥ — ٣٢٦ •

أجل هذا قال النبى صلى الله عليه وسلم « نزل القرآن على سبعة أحرف كلها شاف كاف » ، « لكل آية لها ظاهر وباطن » (٤) .

كما أرجعوا اختلاف المفسرين فى معانى ألفاظ التنزيل الى سببين أحدهما يرجع الى احتمال الالفاظ لتلك المعانى ، اذ يقولون :

« أما سبب اختلاف المفسرين المقرئين فى معانى ألفاظ التنزيل فهو من جهتين : احداهما احتمال الألفاظ لتلك المعانى ، والأخرى من جهة مراتبهم فى المعارف وصفاء جوهر نفوسهم ، وذكاء أفهامهم ، فيسنح لكل واحد شىء خلاف ما يسنح للآخر ، اذا نظر فى معانى كتب الأنبياء عليهم السلام بحسب اجتهاده وفهمه ودقة نظره ومبلغ علمه ، كما قال تعالى « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » وقال : « وفوق كل ذى علم عليم » (٥) .

---

(٤) انظر : المرجع السابق ج ٣/٤٨٧ ــ ٤٨٨ وراجع ج ٣/ ١٥٢٠ وقد روى الحديث الاول بروايات متعددة . انظر مسند الامام احمد ج ٥/٤١ ط بيروت ١٩٦٩ م صحيح الامام مسلم ج ١/٥٦٢ تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقى ط الرياضة ١٤٠ هـ سنن أبى داود ج ٢/٧٦ تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد . دار احياء السنه النبوية بالقاهرة ، سنن النسائى (بشرح السيوطى) ج ٢/١٥٤ ط بيروت ١٣٩٨ هـ .

أما الحديث الثانى فقد نقله السيوطى عن الفريابى عن سفيان عن يونس بن عبيد عن الحسن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال : « لكل آية ظهر وبطن ، ولكل حرف حد ، ولكل حد مطلع » .

انظر الاتقان ج ٤/١٩٦ . تحقيق : محمد أبو الفضل ابراهيم . الطبعة الاولى ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧ م .

(٥) انظر : المرجع السابق ج ٣/٤٨٨ ــ ٤٨٩ .

وكذلك أرجعوا اختلاف العلماء والفقهاء الذين أصلوا الآراء والمذاهب فى فقه الدين والأحكام والحدود ، الى عدة أسباب منها تلك الألفاظ المحتملة لتلك المعانى (٦) •

وقد ترددت الألفاظ المشتركة والمترادفة والمتواطئة والمتباينة فى كتب الفلاسفة بنفس مفهومها الذى سجله الاخوان فى رسائلهم(٧) •

أما اللغويون فى القديم والحديث فقد سالوا وجالوا فى توضيح تلك الألفاظ وبخاصة الألفاظ المشتركة والمترادفة بالاضافة الى المتضادة المعنى التى لم يتحدث عنها اخوان الصفا • ولم يهتم اللغويون بالألفاظ التى اختلفت صورتها ومعناها وهى ما سماها اخوان الصفا وغيرهم من الفلاسفة بالمتباينة وما سماها اللغويون بالمختصة ، لأنها الأصل الذى وضعت من أجله اللغة • كذلك لم يهتموا بما سماه اخوان الصفاء وغيرهم بالألفاظ المتواطئة المتفقة فى اللفظ والمعنى •

أما المشترك فقد رأى أكثر اللغويين أنه واقع لنقل أهل اللغة ذلك فى كثير من الألفاظ ، ومنهم من أوجب وقوعه ، لأن المعانى غير متناهية والألفاظ متناهية ، فاذا وزع لزم الاشتراك •

ولك أن ترجع الى ما نقله السيوطى عن العلماء فى تعريف المشترك وتوضيح معناه ، والأمثلة التى ساقها فى هذا الباب ، ومن هؤلاء العلماء: ابن دريد ، وابن خالويه ، والجوهرى ، وابن درستويه ، والأصمعى ،

---

(٦) انظر : المرجع السابق ج ٣/ ٤٨٩ •

(٧) انظر – على سبيل المثال : الامام الغزالى : مقدمة تهافت الفلاسفة المسماه : مقاصد الفلاسفة ص ٤٢ ، ٤٣ تحقيق د• سليمان دنيا ط ٢ دار المعارف •

وأبو عبد الله الأزدى ، والفاربى والتبريزى ، وابن فارس وأبو الطيب اللغوى ، وأبو على القالى ، وأبو عبيد ، وأبو زيد (٨) •

والمحدثون يشترطون لتحقيق معنى الاشتراك أن تكون دلالة اللفظة الواحد على المعنيين فأكثر على سبيل الحقيقة لا على سبيل المجاز كما ذكروا عدة أسباب لوقوع المشترك ، من أهمها الانتقال من الحقيقة الى المجاز (٩) •

أما الترادف فقد اختلف العلماء قديما وحديثا فى تحديد معناه ، وقد نقل السيوطى آراء كثير منهم فى وقوعه وسببه سواء أكان ذلك من واضعين وهو الأكثر أم من واضع واحد وهو الأقل (١٠) •

ويرجع المحدثون الترادف الى عدة أسباب منها أن كثيرا من الألفاظ التى تدل على معان متقاربة ازدادت قربا ، واختلط بعضها ببعض ، ولتوسيت الفروق بينها مما أدى الى وجود تلك الألفاظ التى سميت بالمترادفة (١١) •

أما حاجة مفسر القرآن الى الالمام بعلوم اللغة ومعرفة أبنية الكلمات وهيئاتها ومدلولات الألفاظ على اختلاف أنواعها والاحاطة بمعانى التراكيب ، فهى أمر قرره علماء التفسير على اختلاف العصور ،

---

(٨) انظر : المزهر ج ٣٦٩/١ — ٣٨٦ ، د• أمين فاخر • دراسات لغوية فى الصاحب — الخصائص — المزهر ١٤٧ — ١٥٤ •
(٩) انظر : د• أمين فاخر : دراسات لغوية ١٥٧ •
(١٠) انظر : المزهر ج ٤٠٢/١ — ٤١٣ ، د• أمين فاخر : دراسات لغوية ١٧٥ — ١٨٠ •
(١١) انظر : د• أمين فاخر : دراسات لغوية ١٨١ — ١٨٢ •

وذلك أن ترجع الى النوع الثامن والسبعين من كتاب الاتقان للسيوطى لنرى ما نقله عن العلماء فى معرفة شروط المفسر وآدابه (١٢) .

فشرط المفسر ــ كما نقل السيوطى عن الطبرى ــ أن يكون ممتلئا من عدة الاعراب ، لا يلتبس عليه اختلاف وجوه الكلام ، فانه اذا خرج بالبيان عن وضع اللسان اما حقيقة أو مجازا ، فتأويله تعطيله . كما يشترط فى المفسر ، علاوة على هذا ، صحة الاعتقاد ، ولزوم سنة الدين، معتمدا ــ على النقل ــ عن النبى صلى الله عليه السلام ، وعن أصحابه، ومن عاصرهم ، كما يشترط فيه صحة المقصد فيما يقول ليلقى التسديد، فقد قال الله تعالى « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا » ، وانما يخلص له القصد ، اذا زهد فى الدنيا (١٣) .

كما نقل ابن تيمية أن الخلاف بين السلف فى التفسير قليل ، وغالب ما يصح عنهم من الخلاف يرجع تارة الى تنوع الأسماء والصفات (١٤)، وتارة الى ذكر بعض أنواع المسمى (١٥) .

كما نقل عنه أن من التنازع الموجود عن المفسرين ما يكون اللفظ

---

(١٢) انظر الاتقان ج ٤/١٧٤ ــ ٢٠١ .

(١٣) انظر : السيوطى : الاتقان ج ٤/١٧٤ ــ ١٧٥ باختصار .

(١٤) مثل تفسيرهم « الصراط المستقيم » بالقرآن ، وبالاسلام، فالقولان متفقان ، ولكن كل منهما فيه على وصف غير الوصف الاخر ، كما أن لفظ « الصراط » يشير بوصف ثالث . الاتقان ج ٤/١٧٦ .

(١٥) حيث يذكر بعض المفسرين من الاسم العام بعض أنواعه على سبيل التمثيل وتنبيه المستمع على النوع ، لا على سبيل الحد المطابق للمحدود فى عمومه وخصوصه ، مثل تفسيرهم « المقتصد » فى قوله تعالى « ومنهم مقتصد » ٣٢/ فاطر الذى يفعل الواجبات ويترك المحرمات ، أو الذى يصلى فى أثناء الوقت ، أو الذى يؤدى الزكاة المفروضة . الاتقان ج ٤/١٧٧ .

فيه محتملا لأمرين ، اما لكونه مشتركا فى اللغــة (١٦) ، واما لكونــه متواطئا فى الأصل ، لكن المراد به أحد النوعين أو أحد الشخصين (١٧).

كما نقل عنه أن من الأقوال الموجودة عن المفسرين ويجعلها بعض الناس اختلافا أن يعبروا عن المعانى بألفاظ متقاربة (١٨) .

كما نقل عنه أن الاختلاف فى التفسير على نوعين : منه ما مستنده النقل فقط ومنه ما يعلم بالاستدلال وهذا هو أكثر ما فيه الخطـأ من جهتين حدثتا بعد تفسير الصحابة والتابعين وتابعهم باحسان : أحدهما: أن قوما اعتقدوا أن المعانى أسبق وأرادوا حمل ألفاظ القرآن عليها ، وهؤلاء تارة يسلبون لفظ القرآن ما دل عليه وأريد به ، وتارة يحملونه على ما لم يدل عليه ولم يرد به ، وفى كلا الأمرين قد يكون ما قصــدوا نفيه أو اثباته من المعنى باطلا ، فيكون خطؤهم فى الدليل والمدلول،مثل تفاسير أهل البدع الذين اعتقدوا مذاهب باطلة ، وعمدوا الى القرآن فتأولوه على رأيهم وليس لهم سلف من الصحابة والتابعين .

وقد يكون ما قصدوا نفيه أو اثباته من المعنى حقا ، فيكون خطؤهم فى الدليل لا فى المدلول ، مثل تفاسير كثير من الصوفية والوعاظ والفقهاء الذين يفسرون القرآن بمعان صحيحة فى نفسها لكن القــرآن لا يــدل عليهـــا .

وثانيهما : أن قوما اعتقدوا أن اللفظ أسبق ، فراعوه مجردا ، وما

---

(١٦) مثل « قسورة » يراد به الرامى ، والاسد . المرجع السابق .

(١٧) مثل لفظ الفجر ، والشفع ، والوتر ، فقد يجوز أن يراد كل المعانى التى قالها السلف ، وقد لا يجوز المرجع السابق .

(١٨) كما اذا فسر بعضهم « تبسل » بـ « تحبس » وبعضهم بـ « ترتهن » ، لان كلا منهما قريب من الاخر . المرجع الســـابق جـ ١٧٨/٤ .

يجوز أن يريد به العربى من غير نظر الى التكلم بالقرآن والمنزل عليه والمخاطب به وسياق الكلام (١٩) ٠

كما نقل السيوطى عن بعض العلماء خمسة عشر علما يحتاج المفسر اليها وهى :

اللغة ، والنحو ، والتصريف ، والاشتقاق ، والمعانى ، والبيان ، والبديع ، والقراءات ، وأصول الدين ، وأصول الفقه ، وأسباب النزول ، والقصص والناسخ والمنسوخ ، والفقه ، والأحاديث المبينة لتفسير المجمل والمبهم ، وعلم الموهبة الذى يورثه الله لمن عمل بلا علم (٢٠) ٠

ولا يخفى على اللغوى أهمية هذه العلوم فى توضيح الألفاظ ودلالاتها ٠

وينبغى للمفسر أن يراعى ــ كما نقل السيوطى عن الزركشى فى البرهان ــ مجازى الاستعمالات فى الألفاظ التى يظن بها الترادف ، والقطع بعدم الترادف ما أمكن ، فان للتركيب معنى غير معنى الافراد ، ولهذا منع كثير من الأصوليين وقوع أحد المترادفين موقع الاخر فى التركيب ، وان اتفقوا على جوازه فى الافراد (٢١) ٠

ويجب أن يعلم أن النبى صلى الله عليه وسلم بين لأصحابه معانى القرآن ، كما بين لهم ألفاظه ، فقوله تعالى « لتبين للناس ما نزل اليهم » (٢٢) يتناول هذو هذا ، كما قال ابن تيمية ، ونقله عنه

---

(١٩) انظر : المرجع السابق ج ١٧٨/٤ ــ ١٨٠ باختصار ٠
(٢٠) انظر : المرجع السابق ج ١٨٥/٤ ــ ١٨٨ باختصار ٠
(٢١) انظر : المرجع السابق ج ٢٠٠/٤ ٠
(٢٢) الآية ٤٤/ النحل ٠

السيوطى (٢٣) ، وقد لفت اخوان الصفا النظر الى مثل هذا حين قالوا :

« وكان النبى صلى الله عليه وسلم يجيب السائل من أمته بلغته ويكلفه ويكلمه بلسانه ، فأما غيرهم فانه يكلمهم صلى الله عليه وسلم بكلامهم ، وانما بعث اليهم وأقام فيهم وعلمهم وأرشدهم وسهل عليهم الألفاظ وضرب لهم المعانى ، وأخذهم بالملاطفة حتى فهموا الدين، وتعلموا القرآن بلسان فصيح لا يخطىء فيه ولا يغيره ولا يبدله ، اذا كان صحيح الحفظ ، متقن التلقين » (٢٤) .

أما حاجة الناس الى تفسير القرآن ، والفائدة التى تعود عليهم من ذلك بحسب فهمهم وذكائهم وصفاء جوهرهم كما سبق نقله عن اخوان الصفا فقد قررها علماء التفسير ، وقد نقل السيوطى عن بعضهم وجه الحاجة الى التفسير وكان مما نقله : « ان القرآن انما نزل بلسان عربى فى زمن أفصح العرب ، وكانوا يعلمون ظواهره وأحكامه ، أما دقائق باطنة ، فانما كان يظهر لهم بعد البحث والنظر مع سؤالهم النبى صلى الله عليه وسلم فى الأكثر ، كسؤالهم لما نزل قوله : « لم يلبسوا ايمانهم بظلم » (٢٥) فقالوا : وأينا لم يظلم نفسه ! ففسره النبى صلى الله عليه وسلم ، واستدل عليه بقوله : « ان الشرك لظلم عظيم » (٢٦)، وكسؤال عائشة عن الحساب اليسير ، فقال : « ذلك العرض » ، وكقصة عدى بن حاتم فى الخيط الأبيض والأسود وغير ذلك مما سألوا عن آحاد منه ، ونحن محتاجون الى ما كانوا يحتاجون اليه وزيادة على ذلك مما لم يحتاجوا اليه من أحكام الظواهر ، لقصورنا عن مدارك أحكام

---

(٢٣) انظر : الاتقان ج ١٧٥/٤ .
(٢٤) انظر : رسائل اخوان الصفا ج ١٦٧/٣ .
(٢٥) الآية ٨٢/ الانعام .
(٢٦) الآية ١٣/ لقمان .

اللغة بغير تعلم ، فنحن أشد الناس احتياجا الى التفسير ، ومعلوم أن تفسيره بعضه يكون من قبل بسط الألفاظ الوجيزة ، وكشف معانيهـا ، وبعضه من قبل ترجيح بعض الاحتمالات على بعض » (٢٧) .

وما ذكر فى هذا النص بشأن ظاهر القرآن وباطنـه يجرنا الى الحديث الذى ذكره اخوان الصفا ــ كما نقلناه آنفا ــ وهو « لكل آية ظاهر وباطن » والى الحديث الذى أخرجه الديلمى عبد عبد الله بن عوف مرفوعا : « القرآن تحت العرش له ظهر وبطن يحاج العباد » (٢٨) .

وقد ذكر السيوطى خمسة أوجه فى معنى الظهر والبطن :

أحدها : أنك اذا بحثت عن باطنها وقسته على ظاهرها وقفت على معناها .

ثانيها : أن ما من آية الا عمل بها قوم ، ولها قوم سيعملون بهـا كما قال ابن مسعود فيما أخرجه عن ابن أبى حاتم .

ثالثها : أن ظاهرها لفظها ، وباطنها تأويلها .

رابعها : قال أبو عبيد ــ وهو أشبهها بالصواب : ان القصص التى قصها الله تعالى عن الأمم الماضية وما عاقبهم به ، ظاهرها الاخبار بهلاك الأولين ، انما حديث حدث به قوم ، وباطنها وعظ الآخرين وتحذيرهم أن يفعلوا كفعلهم ، فيحل بهم مثل ما حل بهم .

خامسها : كما حكاه ابن النقيب : ان ظهرها ما ظهر من معانيها لأهل العلم بالظاهر ، وبطنها ما تضمنته من الأسرار التى أطلـع الله عليهـا أرباب الحقائق (٢٩) .

---

(٢٧) انظر : السيوطى : الاتقان ج ١٧٠/٤ ــ ١٧١ .
(٢٨) انظر : المرجع السابق ج ١٩٦/٤ .
(٢٩) انظر : المرجع السابق ج ١٩٦/٤ .

كما نقل السيوطى عن بعض العلماء أن الظاهر التلاوة ، والباطن الفهم ، ثم قال : ويؤيد هذا ما أخرجه ابن أبى حاتم من طريق الضحاك عن ابن عباس قال : ان القرآن ذو شجون وفنون : وظهور وبطون ، لا تنقضى عجائبه ، ولا تبلغ غايته ، فمن أوغل فيه برفق نجا ، ومن أوغل فيه بعنف هوى ، أخبار وأمثال وحلال وحرام ، وناسخ ومنسوخ ، ومحكم ومتشابه ، وظهر وباطن ، فظهره التلاوة وبطنه التأويل ، فجالسوا العلماء ، وجانبوا به السفهاء (٣٠) .

وقد تعرض الرافعى لهذا الحديث ، وذكر أن أفصح العرب صلى الله عليه وسلم أشار به الى حقيقة اعجاز القرآن ، ورأى « أن ظاهر القرآن على أى لغة قرىء بها من لغات العرب انما هو ظاهر تلك اللغة بعينها ، ولكن باطنه صورة السماء فى الماء ؛ ومسميات الاهية لا تنال وان نيلت الأسماء » (٣١) . وقال : « ولو أن هذا الحديث قد جاء تأويله نص عن النبى صلى الله عليه وسلم يعين المراد منه لما اختلفت أقوال العلماء فيه ، وما داموا قد اختلفوا فدعنا نختلف معهم ، ونأخذ بالأشبه والأمثل مما يوافق القرآن نفسه ، وقد أنزله الله الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا ايمانا مع ايمانهم : فان ذهبت مذهبنا ، والا فخذ مما أحببت أو دع » (٣٢) .

وهنا نتساءل : هل يقصد الاخوان هذه الوجوه أو بعضها فى فهمهم معنى الباطن ؟ أو نتهمهم بالالحاد ليغيهم الفتنة وعيهم الناس بليهم وخداعهم ، وادعائهم أن النصوص ليست على ظاهرها بل لها معان باطنية لا يعرفها الى المعلم ، وقصدهم بذلك نفى الشريعة بالكلية

---

(٣٠) انظر : المرجع السابق ج ١٩٧/٤ .
(٣١) انظر : اعجاز القرآن والبلاغة النبوية ٦٩ ط بيروت .
(٣٢) انظر : المرجع السابق ٧٠ .

كدأب الملاحدة الباطنية ؟ أو نحسن الظن بهـم ، ونجعلهـم من هؤلاء المحققين الذين يذهبون الى أن النصوص على ظواهرها ، ومع ذلك فيها اشارات خفية الى دقائق تنكشف على أرباب السلوك يمكن التطبيـق بينها وبين الظواهر المرادة ، فهو من كمال الايمان ومحض العرفان ، كما ذكر السيوطى نقلا عن التفتازانى (٣٣) ؟

وفى رأيى أن قصدهم لا يتبين الا من خلال معرفة تصورهم لدلالة ألفاظ القرآن والأحاديث واللغة العربية بشكل عام ، التى سجلوها فى رسائلهم • والوقوف على هذا التصور ومعرفة التأويل العقلى عندهم بشكل عام ليس من هدفنا فى هذا الكتاب ، فذلك يحتاج الى بحث آخر ، آمل فى المستقبل أن يوفقه الله اليه •

(ب) القلب والابدال :

لقد أشار اليهما الاخوان اشارة موجزة جدا فى أثناء تدليلهم على أنه لا حيوان الا من نكاح ، ولا صوت عرض من جوهر •

ومن خلال المثال القرآنى الذى ساقوه نرى أنهم لا يعنون بالقلب ذلك القلب اللغوى أو الاشتقاقى المسمى بالاشـتقاق الكبـير المعروف بتقلبات المادة ، كما لا يعنون بالابدال ذلك الابدال اللغوى او المسـمى بالاشتقاق الأكبر الذى هو جعل حرف مكان آخر مطلقا ، وانما يعنون بالقلب القلب المكانى الذى هو تقديم بعض حـروف على بعض مـع الاتحاد فى الحروف وفى المعنى ، كما يعنون بالإبدال الابدال الصرفى الذى هو جعل حرف من حروف « هدأت موطيا »أو« طال يوم أنجدته » مكان آخر •

---

(٣٣) انظر : الاتقان جـ ١٩٥/٤

وقد اجتمعا بهذا المفهوم في « لواقح » من قوله تعالى « وأرسلنا الرياح لواقح » (٣٤) ، حيث يقول الاخوان :

« الرياح ههنا فاعلة ، والأصل في هذه الكلمة موضوعها في اللغة العربية على ما أجمع عليه النحويون « ملاقح » فيصير ههنا على انقلب، والتبديل . والعرب تقلب الشيء الى الشيء ، وتبدل وتقدم اذا كان المعنى مفهوما ، وكان المخاطب به يفهم من المخاطب (بكسر الطاء) . والدليل على أنها « ملاقح » قولهم في اللغة لقحت الأرض والنخلة فهي لاقحة ، والجمع لواقح ، فجعل لفظة الفاعل هاهنا لفظة المفعول على القلب ، كما قال تعالى : « ماء دافق » وانما هو مدفوق ، لأن الرباعي الذي اسم الفاعل منه مفعل (بضم الميم وكسر العين) ، والثلاثي الذي اسم المفعول منه فعيل ، وقد يكون الفعيل مرة للفاعل ومرة للمفعول ، والمعنى يدل عليه ، كقولك : قتيل وجريح وصريم ، اذا أردت المفعول ، وكريم ورحيم وعليم ، اذا أردت الفاعل . وكذلك تجدها في حكم الطبيعة أن الرياح هي الملقحة للشجر وغيرها » (٣٥) .

وقد تعرض ابن منظور لهذه الآية ونقل أقوال عدد من العلماء في « لواقح » (٣٦) ، فقد قال ابن سيدة نقلا عن ابن جني : « قياسه ملاقح ، لأن الريح تلقح السحاب ، وقد يجوز أن يكون على لقحت فهي لاقح ، فاذا لقحت فزكت ألقحت السحاب ، فيكون هذا مما اكتفى فيه بالسبب من المسبب » .

---

(٣٤) الآية الحجر ، واللواقح من الرياح : التي تحمل الندى ثم تمجه في السحاب ، فاذا اجتمع في السحاب صار مطرا . انظر : ابن منظور : لسان العرب (لقح) .

(٣٥) انظر : رسائل اخوان الصفا جـ ٣/١٠٠ – ١٠١ .

(٣٦) انظر : لسان العرب (لقح) .

وقال الأزهري « يقال : انما الريح ملقحة (بضم الميم وكسر القاف) تلقح الشجر ، فقيل : كيف لواقح ؟ ففى ذلك معنيان : أحدهما أن تجعل الريح هى التى تلقح (بفتح التاء والقاف) بمرورها على التراب والماء فيكون فيها اللقاح ، فيقال : ريح لاقح كما يقال ناقة لاقح، ويشهد على ذلك أنه وصف ريح العذاب بالعقيم فجعلها عقيما اذا لم تلقح (بضم التاء وكسر القاف) . والوجه الآخر . وصفها باللقح وان كانت تلقح (بضم التاء وكسر القاف) ، كما قيل ليل نائم ، والنوم فيه، وسر كاتم ، وكما قيل المبروز والمختوم فجعله مبروزا ولم يقل مبرزا ، فجاز مفعول لمفعل ، كما جاز فاعل لمفعل ، اذا لم يرد البناء على الفعل، كما قال ماء دافق » .

كما يذكر الأزهري فى معنى « لواقح » أنها بمعنى ، حوامل ، « جعل الريح لاقحا لأنها تحمل الماء والسحاب وتقلبه وتصرفه ثم تستدره ، فالرياح لواقح أى حوامل على هذا المعنى » ، وقال « ومما يحقق ذلك قوله تعالى : « هو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته حتى اذا أقلت سحابا ثقالا » أى حملت ، فعلى هذا المعنى لا يحتاج أن يكون لاقح بمعنى ذى لقح ولكنها تحمل السحاب فى الماء » .

ويقول الجوهرى : « رياح لواقح ولا يقال ملاقح وهو من النوادر » وهذا نرى أنه لم يتفق على أن لواقح أصلها « ملاقح » .

(ج) بلاغة الكلام :

لقد ألقى اخوان الصفا الضوء على البلاغة فى اللغة وفى عرفهم. وعرف البعض فى تلك الفترة المبكرة قبل أن تستقر علوم البلاغة وتأخذ دلالتها التى أرسى قواعدها علماء البلاغة المتأخرون والمعروفة لنا الآن، كما أوضحوا أهمية الصياغة اللفظية والمعنى الشريف لبلاغة الكلام ، وأثرهما فى النفوس .

أما البلاغة فى اللغة فهى — كما يقولون — : « والبلاغة فى اللغة من بلغت فى كذا وكذا ، وهى مشتقة من المبالغة . يقال : بلغته أبلغ بلوغا ، فالمصدر منه بلاغة ، فأنا بالغ . وتقول : أبلغت الكلام وبلغته الى فلان أى أديته اليه » (٣٧) .

وقال ابن منظور « بالغ فلان فى أمرى اذا لم يقصر فيه » (٣٨) .

وأما فى عرفهم فيرون أنها « هى التوصل الى افهام المعنى بأوجز مقال ، وأبلغ كلام ، ليعرف به المراد بأسهل المسالك وأقرب الطرق بواضح البيان وصادق المقال . والايجاز فى ذلك ما بلغت غاياته بيسير اللفظ ، والإطناب ما بلغت غاياته بالتطويل ، فصارت البلاغة حينئذ التوسط بين الحالتين ، والتوصل الى ادراك الغاية من أقرب الطرق » (٣٩) .

ونظرتهم الى البلاغة على أنها توسط بين ايجاز واطناب منبثقة من نظرتهم الى العدل الذى هو توسط بين هذين : أحدهما يتطرق دونه الى بخس ونقصان ، والآخر يتطرق فوقه الى افراط وعدوان . ومن ثم نظروا من بين ما نظروا الى العدل فى البلاغة قائلين : « والعدل فى البلاغة ما لم يقصر عن درك البغية ، واصابة المعنى وقصد الغرض ، ألا ترى أن الهذر فى المنطق بعد بلوغ الغاية لا يحتاج اليه ، ولو كانت البلاغة هى البلوغ الى غايات المعانى لكان العالم كلهم بلغاء ، خاصهم وعامهم ، لأنه ما من أحد الا وهو اذا عبر عما فى نفسه بلغ غرضه فى افهام السامع عنه ما يريده منه على حسب استطاعته وما تساعده عليه آلته » (٤٠) .

---

(٣٧) انظر : رسائل اخوان الصفا ج ١٢١/٣ .
(٣٨) انظر : لسان العرب (بلغ) .
(٣٩) انظر : رسائل اخوان الصفا ج ١٢١/٣ .
(٤٠) انظر : المرجع السابق .

والبلاغة فى عرف بعض النـــاس كما ذكر اخوان الصفا « معرفة مواضع المفاصل المطلوبة بألفاظ مفهومـــة ، والبليغ هو الذى لا يؤتى سامعه من سوء افهامه ، والفهيم الذى لا يأتى بسوء من يريد افهامه بتقصير عن البلاغة فى خطابه أو كتابة ، فيخرق بفهم وصفاء ذهنه تلك الحجب الحائلة بينه وبين المعنى الذى يقدر على الفهم ، لأنه يجرده من تلك الشوائب المعوقة له عن البيان والايضاح » (٤١) •

وسواء أكانت البلاغة هى الايجـــاز أم التوســـط بين الايجـــاز والاطناب أم توصيل المعنى الى السامع فى صورة واضحة بينه وبألفاظ مفهومة ، فأنها لم تأخذ دلالتها الاصطلاحية الدقيقة المشهورة ، وهى مطابقة الكلام لمقتضى الحال ، الا على يد البـــلاغيين المتـــأخرين مثل السكاكى (ت ٦٢٦ هـ) ، والخطيب القزوينى (ت ٧٣٩ هـ) وغيرهما •

ونجد تلك الدلالة الواسعة للبلاغة التى أشار اليها اخوان الصفا مسجلة فى كتب المتقدمين أيضا مثل البيان والتبيين للجاحظ (ت ٢٥٥ هـ)، وعيون الأخبار لابن قتيبة الدينورى (٢٧٦ هـ) ، وغيرهما •

فقد نقل الجاحظ عن كلثوم بن عمرو العتابى (ت ٢٢٠ هـ) قـــوله عن البليغ : « كل من أفهمك حاجته من غير اعادة ولا حبسة ولا استعانة فهو بليغ » (٤٢) •

كما نقل الجاحظ عن الأصمعى (ت ٢١٦ هـ) قوله عن البليغ « من طبق المفصل وأغناك عن المفسر » (٤٣) •

---

(٤١) انظر : المرجع السابق •

(٤٢) انظر : البيان والتبيين ج ١٠٦/١ تحقيق : عبد السـلام هارون • القاهرة ١٣٦٧ هـ /١٩٤٨ م

(٤٣) انظر : المرجع السابق

وقد سأل معاوية بن أبى سفيان صحارا بن عياشى — كما ذكر الجاحظ — : « ما تعدون البلاغة فيكم ؟ » قال : « الايجاز » ، قال له معاوية « وما الايجاز ؟ » قال : « أن تجيب فلا تبطىء ، وتقول فلا تخطىء » (٤٤) •

وقد فسر عمرو بن عبيد (ت ١٤٤ هـ) البلاغة حين سأله سائل عنها — كما ذكر الجاحظ — بقوله : « فكأنك انما تريد تخير اللفظ فى حسن الافهام » ثم قال السائلة : « انك قد أوتيت تقرير حجة الله فى عقول المكلفين وتخفيف المؤونة على المستمعين وتزيين تلك المعانى فى قلوب المريدين بالألفاظ المستحسنة فى الآذان ، المقبولة عند الأذهان رغبة فى سرعة استجابتهم ، ونفى الشواغل عن قلوبهم بالموعظة الحسنة على الكتاب والسنة ، كنت قد أوتيت فصل الخطاب واستحققت على الله جزيل الثواب » (٤٥) •

وقد رأى اخوان الصفا أهمية المعانى والألفاظ فى بلاغة الكلام ؛ فمن المحال أن يكون اللفظ وحده مؤديا الهدف ، أو المعنى وحده محققا الغاية •

أما أهمية الصياغة اللفظية فى التعبير البليغ فتظهر فى قولهم :

« اعلم أن المعانى تنطق بها أفواه السوقة والعوام فى الأسواق والطرق ، ولكن قل من يحسن العبارة عنها ، وربما أراد المعنى فعبر عن غيره وهو يظن أنه قد عبر عنه » (٤٦) •

---

(٤٤) انظر : المرجع السابق ج ٩٦/١ •

(٤٥) انظر : المرجع السابق ج ١١٤/١ ، وابن قتيبة . عيون الاخبار ج ١٧٠/٢ ط دار الكتب المصرية •

(٤٦) انظر : رسائل اخوان الصفا ج ١٢١/٣ — ١٢٢ •

كما تظهر أيضـــا فى قولهم

« الألفاظ ان قبلت التأدية عن المعانى ببلاغة فهمت المعانى ولاحت دلائلها بغير تطويل ولا اسهاب ، وان عجزت الألفاظ عن تلك التأديـــة احتاجت الى التطويل ، والتطويل ذهاب البلاغة ، والتقصير هو ضعف الدلالة والحجة ، وفى الناس من يحول فى قلبه المعنى الصحيح فيعبر عنه باللفظ الركيك ، فيحيله عن معناه وان لم يرد الاحالة ولكنه عجز فى اللفظ ، فيصير اللفظ غير مــؤد عن المعنى ، لا لعجــز المعنى ولكن لعجز اللفظ » (٤٧) .

وقد أشار الجاحظ الى أهمية الصياغة اللفظية حين قال « والمعانى مطروحة فى الطريق يعرفها العجمى والعربى والبدوى والقروى والمدنى ، وانما الشأن فى اقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج وكثرة الماء وفى صحة الطبع وجودة السبك ، فانما الشعر صناعة ضرب من النسج وجنس من التصوير » (٤٨) .

ولذلك رأى اخوان الصفا أن أحكم الكـــلام الانســـانى وأبينه وأبلغه وأتقنه وأفصحه ما كان موزونا مقفى متفق التأليف غير منزحف ، اذ يقولون فى فصل عنوانه « احكام الكلام صنعة من الصنائع » :

« ومن المصنوعات المحكمة المتقنة أيضا صنعة الكلام والأقاويل ، وذلك أن أحكم الكلام ما كان أبين وأبـــلغ ، وأتقن البلاغـــات ما كان أفصح ، وأحسن الفصاحة ما كان موزونا مقفى ، وألذ الموزونات من الأشـــعار ما كان غير منزحف ، والذى غير منزحف من الأشـــعار هو

---

(٤٧) انظر : المرجع السابق جـ ٣/١٢٢ .

(٤٨) انظر : الجاحظ : الحيـــوان جـ ٣/١٣١ ــ ١٣٢ تحقيـــق عبد السلام هارون ط القاهرة ١٣٥٦ هـ / ١٩٣٨ م .

الذى حروفه الساكنة وأزمانها مناسبة لحروف متحركاتها وأزمانها ، والمثال فى ذلك : الطويل والمديد والبسيط فان كل واحد منها مركب من ثمانية مقاطع ، وهى هذه : فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن (٤٩) • وهذه الثمانية مركبة من اثنى عشر سببا وثمانية أوتاد ، جملتها ثمانية وأربعون حرفا ، عشرون منها سواكن، وثمانية وعشرون حرفا متحركات ؛ والمصراع منه أربعة وعشرون حرفا، عشرة سواكن ، وأربعة عشر متحركات ، ونصف المصراع الذى هو ربع البيت اثنا عشر حرفا ، خمسة منها سواكن ، وسبعة متحركات • ونسبة سواكن حروف ربعه الى متحركات كنسبة سواكن حروف نصفه الى متحركاته ، وكنسبة سواكن حروفه كلها الى متحركاته كلها • وهكذا تجد حكم الوافر والكامل ، فان كل واحد منهما مركب من ستة مقاطع، وهى هذه : مفاعلتن مفاعلتن مفاعلتن مفاعلتن مفاعلتن مفاعلتن ست مرات (٥٠) • ونسبة سواكن حروف ثلث البيت الى حروف متحركات كنسبة حروف سواكن نصفه الى متحركاته ، وكنسبة سواكن كله الى متحركات كله • وعلى هذا المثال والحكم يوجد كل بيت من الأشعار اذا سلم من الزحاف منصفا أو مربعا أو مسدسا • وكذلك حكم الزمان التى بينهما ، وهذه صورتها : فعولن مفاعلين « ه٥/ه/ه٥/ه/ه » الهاءات علامة المتحركات ، والألفات علامة السواكن • فقد تبين بهذا

---

(٤٩) تفعيلات البحر الطويل : أما التفعيلات الثمانى للمديد فهى « فاعلاتن فاعلن » أربع مرات • وأما التفعيلات الثمانى للبسيط فهى « مستفعلن فاعلن » أربع مرات •

(٥٠) هذه تفعيلات البحر الوافر ، لكنه لم يرد صحيحا أبدا ، بل لابد من قطف عروضه فتصير مفاعلتن مفاعل ، وتحول الى فعولن • أما التفعيلات الثمانى للكامل فهى « متفاعلن » ست مرات •

المثال أيضا أن أحكم المصنوعات وأتقن المركبات ما كان تأليف أجزائه وأساس بنيته على النسبة الأفضل » (٥١) .

ومع أن الاخوان قد ساقوا هذا النص للتدليل على بلاغة الكلام الموزون المقفى المتفق التأليف فان لى عليهم بعض الملاحظات ، منها :

١ ـ أنهم سموا التفاعيل العروضية مقاطع مع أن الأمر بخلاف هذا فمما هو معلوم أن أجزاء الميزان الشعرى أو التفاعيل هى التى تتكون من مقاطع ، وقد يتكون المقطع من حرفين (متحرك وساكن) يسمى سببا خفيفا ، أو « متحركين » ويسمى سببا ثقيلا . وقد يتكون المقطع من ثلاثة أحرف ، ويسمى وتدا مجموعا ان كان الساكن بعد المتحركين ، ويسمى وتدا مفروقا ان كان الساكن بين المتحركين . ويسمى اجتماع السببين : الثقيل فالخفيف فاصلة صغرى ، واجتماع السبب الثقيل فالوتد المجموع فاصلة كبرى .

وعلى هذا لا تحمل تسمية المقطع تفعيلة الا على المجاز من باب اطلاق الجزء والمراد الكل .

٢ ـ أنهم عرفوا المنزحف من الأشعار بأنه « الذى حروفه السواكن متحركة ، والمتحركة ساكنة » (٥٢) ، بينهما المتعارف عليه فى علم العروض أن الزحاف « كل تغيير يتناول ثوانى الأسباب ، ويكون

---

(٥١) انظر : رسائل اخوان الصفا جـ ٢١٨/١ ـ ٢١٩ وأيضا جـ ١٤٧/٣ ـ ١٤٨ . ولهم حديث أيضا عن النسب الثانية التى تجرى عليها الحروف السواكن والمتحركات للبحر الطويل على مستوى البيت ونصفه وربعه . أنظر جـ٢٥٢/١ .

(٥٢) انظر : المرجع السابق جـ ١٤٧/٣ .

بتسكين المتحرك أو حذفه أو حذف الساكن » (٥٣) . أما تحريك الساكن فلم يتعارف عليه .

٣ ـ أنهم لم يضمنوا النص فى الموضعين ـ تفعيلات بحرى المديد والبسيط ، وقد أوضحتها فى الهامش حتى ينكشف السياق ، ولا تلتبس بالتفعيلات المذكورة للبحر الطويل . وكذلك أوضحت تفعيلات البحر الكامل حتى لا تلتبس بالتفعيلات المذكورة للبحر الوافر .

٤ ـ أنهم ضمنوا النص خمسة أبحر (الطويل والمديد والبسيط والوافر والكامل) ، ويعد (الطويل والبسيط والكامل) ثلاثة أبحر كثر ورودها فى أشعار العرب القدماء (٥٤) . ويعد الطويل فى المرتبة الأولى ، يليه الكامل والبسيط فى المرتبة الثانية (٥٥) ، وقد عد الوافر فى المرتبة الثانية أيضا ، والمديد فى الثالثة ، ومجزوء الكامل ومجزوء الوافر ، ومجزوء البسيط ومخلعه فى المرتبة الرابعة (٥٦) .

وقد شبه الاخوان بناء الغناء الألحان ببناء الأشعار والاقاويل بصفة عامة ، « وذلك أن الغناء مركب من الألحان ، واللحن مركب من النغمات ، والنغمات مركبة من النقرات والايقاعات ، وأصلها كلها حركات وسكون ، كما أن الأشعر مركبة من المصاريع ، والمصاريع مركبة من المفاعيل ، والمفاعيل مركبة من الأسباب والأوتاد والفواصل ، وأصلها كلها حروف متحركات وسواكن ، كما بينا ذلك فى كتاب العروض

---

(٥٣) انظر : محمود مصطفى : أهدى سبيل الى علمى الخليل : العروض والقافية ص ٢٠ ط ١٢/١٣٩٣ هـ / ١٩٧٣ م .

(٥٤) انظر : المرجع السابق ٣٧ ، ٤٤ ، ٥٢ .

(٥٥،٥٦) انظر : د. ابراهيم أنيس : موسيقى الشعر ٥٩ ـ ١٢٩ الطبعة الخامسة ١٩٨١ م .

وكذلك الأقاويل كلها مركبة من الكلمات ، والكلمات من الأسماء والافعال والأدوات وكلها مركبة من الحروف المتحركات والسواكن » (٥٧) .

وقد شهد أيضا قوانين وأصول العروض بقوانين وأصول الغناء والألحان ، أرجعوا أصول كل من العروض والألحان الى ثلاثة : السبب والوتد والفاصلة ، يتضح هذا فى قولهم :

« ان العروض هو ميزان الشعر يعرف به المستوى والمنزحف ، وهى ثمانية مقاطع فى الأشعار العربية وهى هذه : فعولن ، مفاعيلن ، متفاعلن ، ستفعلن ، فاع لاتن ، فاعلن ، مفعولات ، مفاعلتن . وهذه الثمانية مركبة من ثلاثة أصول وهى : السبب ، والوتد ، والفاصله ، فالسبب حرفان : واحد متحرك وآخر ساكن أو متحرك ، مثل قولك : هل ، لم ، وما شاكلها . والوتد ثلاثة أحرف ، اثنان متحركان ، وواحد ساكن ، مثل قولك : نعم ، وبلى ، وأجل ، وما شاكلها . والفاصلة أربعة أحرف : ثلاثة متحركة ، وواحد ساكن ، مثل قولك : غلبته ، فعلت ، وما شاكلها . وأصل هذه الثلاثة حرف، ساكن وحرف متحرك . فهذه قوانين العروض وأصوله . وأما قوانين الغناء والألحان فهى أيضا ثلاثة أصول ، والسبب والوتد والفاصلة ، فأما السبب منغزة متحركة يتلوها سكون مثل قولك تن تن تن تن ، ويكرر دائما ، والوتد نقرتان متحركتان يتلوهما سكون ، مثل قولك : تنن تنن تنن تنن، يكرر دائما.والفاصلة ثلاث نقرات متحركة يتلوها سكون مثل قولك تننن تننن تننن تننن.فهذه الثلاثة هى الأصل والقانون فى جميع مايركب منها من النغمات ، وما يركب من النغمات فى جميع اللغات من الألحان ، وما يتركب منها من الغناء فى جميع اللغات » (٥٨) .

---

(٥٧) انظر : رسائل اخوان الصفا ج ١٩٦/١ ــ ١٩٧ .

(٥٨) انظر : المرجع السابق ج ١٩٧/١ ــ ١٩٨ . ويرجع فى التفصيل قوانين الالحان العربية أيضا الى ج ١٩٨/١ ــ ١٩٩ ، ٢٢٧ ــ ٢٢٨ .

وعلى هذا النص أيضا بعض الملاحظات ، منها :

١ ـــ ذكـــر فى النص أن التفعيـــلات ـــ أو (المقـــاطع) أو (المفاعيل) على حد تعبير اخوان الصفا ـــ ثمان • والحق أنها عشرا عند الكثرة من علمـــاء العروض ، فلم يتضـــمن النص « فاعلاتن » ، « مســـــتفع لن » •

وبعض العروضيين أنكروا التفعيلتين : « مستفع لن » و « فـــاع لاتن » وقصروا تفاعيل العروض على ثمان هى :

« فعولن ، فاعلن ، مستفعلن ، فاعلاتن ، مفـــاعيلن ، مفاعلتن ، متفاعلن ، مفعولات » • وأيـــدهم فى هذا أحـــد المحـــدثين ، واعتبر التفعيلتين السابقتين مصنوعتين (٥٩) •

٢ ـــ تضـــمن النص تعريف السبب ، دون اشـــارة الى نوعية الخفيف : ان كان الثانى من حرفى المقطع ســـاكنا ، والثقيل : ان كان الثانى متحركا) ، كما لم يتضمن النص تمثيلا للسبب الثقيل ، وهو مثل (مت) فى متفاعلن •

٣ ـــ تضـــمن النص تعريف الوتـــد ، دون اشـــارة الى نوعية (المجموع : ان سكن ثالث المقطع الثلاثى بعد المتحركين ، والفروق : ان سكن ثانى المقطع الثلاثى بين المتحركين) • كما لم يتضمن النص تمثيلا للوتد المفروق ، وهو مثل (لات) فى مفعولات ، و (فاع) من فاع لن •

٤ ـــ لا ينطبق تعريف الفاصـــلة فى النص الا على أحد نوعيها وهو الفاصلة الصـــغرى ، وهى تتكون باجتمـــاع الســـببين : الثقيل

---

(٥٩) انظر : د• ابراهيم انيس : موسيقى الشعر ٥٣ •

فالخفيف . ولم يشر فى النص الى النوع الآخر وهو الفاصلة الكبرى ، وهى تتكون باجتماع السبب الثقيل فالوتد المجموع ، مثل أن تصير « مستفعلن » بعد حذف سينها وفائها الى « متعلن » .

وقد جمع بعض العروضين أمثلة (السبب الخفيف ، والثقيل ، والوتدين : المجموع والمفروق ، والفاصلتين : الصغرى والكبرى) فى قوله : لم أر على ظهر جبل سمكة (٦٠) .

ونجد صدى هذه الفكرة — التى تربط بين بناء الألحان وبين بناء الأشعار والأقاويل — عند فلاسفة آخرين ، غير اخوان الصفا ، مثل أبى نصر الفارابى (ت ٣٣٩ هـ) (٦١) .

وقد أوضح اخوان الصفا أثر الصياغة الشعرية الموزونة البليغة فى النفوس « فمن تلك النغمات والأصوات ما يحرك النفوس نحو الأعمال الشاقة ، والصنائع المتعبة ، وينشطها ويقوى عزماتها على الأعمال الصعبة المتعبة للأبدان التى تبذل فيها مهج النفوس وذخائر الأموال ، وهى الألحان المشجعة التى تستعمل فى الحروب ، وعند القتال فى الهيجاء ، ولاسيما اذا غنى معها بأبيات موزونة فى وصف الحروب ومديح الشجعان ، مثل قول القائل :

لو كنت من مازن لم تستبح ابلى
بنو اللقيطة من ذهل بن شيبانا

---

(٦٠) انظر : محمود مصطفى : أهدى سبيل الى علمى الخليل ١٨ .

(٦١) انظر : الموسيقى الكبير ٨٥ ، ١٢٠ ، ١٠٧٥ — ١٠٨٦ تحقيق وشرح : غطاس عبد الملك خشبة ، ومراجعة : د. محمود احمد الحفنى . دار الكتاب العربى للطباعة والنشر بالقاهرة .

ومثل قول البسوس بنت منقذ :

لعمرى لو أصبحت فى دار منقذ
لما ضيم سعد وهو جار لأبياتى

ولكننى أصبحت فى دار غربة
متى يعد فيها الذئب يعد على شاتى

فياسعد لا تغرر بنفسك وارتحل
فانك فى قوم عن الجار أموات

فان هذه الأبيات وأخواتها يقال انها كانت سببا لاثارة أقوام الى الحرب والقتال بين قبائل العرب سنين متواترة .

ومن الأبيات الموزونة أيضا ما يثير أيضا الأحقاد الكامنة ، ويحرك النفوس الساكنة ويلهب نيران الغضب مثل قول القائل :

واذكروا مصرع الحسين وزيد وقتيلا بجانب المهراس

فان هذه الأبيات وأخواتها أيضا أثارت أحقادا بين أقوام ، وحركت نفوسهم ، والتهبت فيها نيران الغضب ، وحثتهم على قتل أبناء الأعمام والأقرباء والعشائر ، حتى قتلوهم بذنوب آبائهم ووزر أجدادهم ، ولم يرحموا منهم أحدا » (٦٢) .

أما حاجة الكلام البليغ الى المعنى المفيد المرشد الى منفعة والذى يصير الكلام بفقده تصويتا وهذيانا فقد أوضحها الاخوان فى فصل عقدوه لذلك قائلين :

---

(٦٢) انظر : رسائل اخوان الصفا جـ١/١٨٤ .

« فأما افهام المعانى فانها تفهم من الكل من اللكن والفصحاء ، وانما يتفاضل الناس فى البلاغة ، وهو عند الحشوية والعام والنساء والصبيان حسن الصوت وحلاوة المنطق وصفاء الكلام . وليس كل من حسن صوته وصفا كلامه كان بليغا فى ابانة المعنى واقامة الدليل والحجة فى ازالة الشبهة عن النفس الساهية، وانتباه الجاهل عن رقدته، واصحاء السكران من سكرته بالتذكرة والموعظة ؛ فان صاحب النغمة الطيبة والكلام الصافى ربما استعمل ذلك فى الأغانى والملاهى. وسبب كل ذلك محبة اللذات الدنية والشهوات الحسية ، وما يتضمن الكلام من السخف والمجون وأمثاله ، فان معانيها لا حقيقة لها ، والكلام بها انما هو تصويت وهذيان لاحق بأصوات الحيوان والمجانين والسكارى والصبيان والنسوان ومن لا عقل لهم . وأصل المعانى فى أنها المقالات المدلول بصحتها فى الاخبار بها عن معرفة حقائقها ومقاصد طرائقها . وحد المعنى أنه هو كلمة دلت على حقيقة وأرشدت الى منفعة ويكون وجودها فى الاخبار بها صدقا ، والقول عليها حقا . والاخبار على أربعة أقسام خبر واستخبار وأمر ونهى ، وقد جعلها قوم ستة ، وآخرون عشرة ، وأصلها هذه الأربعة ، فثلاثة منها ما لا يدخله الصدق والكذب ، وواحد منها يدخله الصدق والكذب وهو الخبر ، ويوجد فى ذلك السالبة والموجبة والممكن والممتنع » (٦٣) .

وقد تطرق الاخوان ــ كما يظهر من النص ــ الى موضوع الخبر والانشاء ، وحصر الأول فى الصادق والكاذب ، وهو يعد أحد الموضوعات التى أدخلها المتأخرون فى علم المعانى الذى ينطوى تحت علوم البلاغة التى استقرت وأخذت دلالتها الاصطلاحية الدقيقة فى عهد السكاكى ومن جاء بعده من الشراح والملخصين .

---

(٦٣) انظر : رسائل اخوان الصفا جـ ١١٩/٣ ــ ١٢٠ .

ومن المعلوم أن الجاحظ يعتبر أيضا من الأوائل الذين بحثوا موضوع الخبر وانحصاره فى الصادق والكاذب (٦٤) .

وقد أنكر القزوينى وشراح تلخيصه انحصار الخبر فى قسمين ، وحصروه فى ثلاثة : صادق ، وكاذب ، وغير صادق ولا كاذب :

فالحكم يكون صادقا اذا كان مطابقا للواقع مع اعتقاد المخبر له، ويكون كاذبا اذا كان غير مطابق مع الاعتقاد ، ولا يكون صادقا ولا كاذبا اذا كان مطابقا للواقع مع عدم الاعتقاد ، أو كان غير مطابق مع عدم الاعتقاد .

وقد احتجوا بقوله تعالى: « افترى على الله كذبا أم به جنة »(٦٥)، فان المشركين حصروا دعوى النبى ﷺ الرسالة فى الافتراء والاخبار حال الجنون بمعنى امتناع الخلو ، وليس اخباره حال الجنون كذبا ، لجعلهم الافتراء فى مقابلته ، ولا صدقا ، لأنهم لم يعتقدوا صدقه ، فثبت أن من الخبر ما ليس بصادق ولا كاذب (٦٦) .

وهكذا نرى أن اخوان الصفا والجاحظ وغيرهما من المتكلمين كانوا من الأوائل الذين اعتمد عليهم البلاغيون المتأخرون فى تقسيم

---

(٦٤) انظر : د. احمد مطلوب : البلاغة عند الجاحظ ٧٥ ط العراق ١٩٨٣ م .

(٦٥) الآية ٢/ سبأ .

(٦٦) انظر : الخطيب القزوينى : الايضاح ص ١٤ . تحقيق لجنة من أساتذة كلية اللغة العربية ط القاهرة . والتلخيص : ص ٣٩ تحقيق : عبد الرحمن البرقوقى . الطبعة الثانية فى القاهرة ١٣٥٦ هـ ـ ١٩٣٨ ، وشروح التلخيص جـ ١٨١/١ ط القاهرة ١٩٣٧ م . والتفتازانى : الشرح المطول ص ٤٠ ط تركيا ١٣٣٠ هـ .

الكلام الى خبر وانشاء وما يتفرع منهما على النحو المعروف فى علم المعانى .

كما نرى أن اخوان الصفا — وهم فلاسفة وينظرون الى المنطق على أنه أداة الفيلسوف — ينوعون الخبر الى ايجاب وسلب وممكن وممتنع على النحو المعروف فى علم المنطق (٦٧) ، وذلك فى ضوء نظرتهم العقلية الى المعنى كما سبق .

ونعود لنكمل حديث الاخوان عن المعنى المفيد المتطلب للكلام البليغ ، فنراهم يمدحون الصياغة البليغة المتضمنة وصف نعيم عالم الأرواح ولذات أهله وسرورهم ، ومن الأمثلة التى ساقوها فى هذا السياق قولهم :

« كما يقرأ غزاة المسلمين عند النفير آيات من القرآن أنزلت فى هذا المعنى لترقق القلوب ، وتشوق النفوس الى عالم الأرواح ونعيم الجنان ، مثل قوله تعالى : « ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا فى التوراة والانجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به » . وأخوات هذه الآيات من القرآن .

« وكما ينشد غزاة المسلمين عند اللقاء أيضا أو الحملة على الهيجاء ما قيل من أبيات الشعر فى وصف الحور العين ونعيم الجنان مما يشوق النفوس الى هناك ، أو يشجع على الاقدام ، بالعربية والفارسية ، نحو قول الشاعر :

---

(٦٧) انظر تفصيل ذلك فى رسائل اخوان الصفا جـ ١/٤١٤ ـ ٤١٩ .

أبت لى عفتى وأبى بـلائى ... وأخذى الحمـد بالثمن الربيح
.واقدامى على المكروه نفسى ... وضربى هـامة البطل المشيح(٦٨)
وقولى كلما جشأت وجاشت: ... مكانك تحمدى أو تسـتريحى
لأدفع عن مآثر صالحـات ... وأحمى بعد عن عرض صحيح »

ويذكرون أيضا بيتين لشاعر فارسى (٦٩) .

كما يذكرون معانى الأشعار التى كان الحكماء الإلاهيون — على حد تعبيرهم — يلحنونها عند استعمالهم الموسيقى فى الهياكل وبيوت العبادات لترقيق القلوب القاسية وتشويقها الى عالمها الروحانى قائلين:

« يا أيتها النفوس الغائصة فى بحر الأجسـام المظلمة ، ويا أيتها الأرواح الغريقة فى ظلمات الأجرام ذوات الثلاثة الابعـاد ، الساهية عن ذكر المعاد ، المنحرفة عن سبيل الرشاد ، اذكروا عهد الميثاق ، اذ قال لكم الحق « ألست بربكم ؟ قلتم : بلى شـهدنا ، أن تقولوا يوم القيمة انا كنا عن هـذا غافلين » أو تقولـوا : انما أشرك آبـاؤنا الجسمانيون من قبل وكنا ذرية من بعدهم جرمانيين فى دار الغرور ، وضنك القبور . اذكروا عالمكم الروحـانى وداركم الحيوانية ومحلكم النورانى وتشـوقوا الى آبائكم وأمهاتكم واخوانكم الروحانيين الذين هم فى أعلى عليين ، الذين هم من أوسـاخ الأجـرام مبرؤون ، وعن ملابسة الأجسام الطبيعية منزهون ، بادروا وارحلوا من دار الفنـاء

---

(٦٨) المشيح : المقبل عليك والمانع لما وراء ظهره .
(٦٩) انظر : المرجع السابق جـ ٢٠٩/١ .

الى دار البقاء قبل أن يبادر بكم الى هناك مكرهين مجبورين ، غير مستعدين ، نادمين ، خاسرين » (٧٠) .

كما نرى اخوان الصفا يذمون الموسيقى والصياغة الشعرية التى تحث على اللهو واللعب ، والترغيب فى شهوات لذات الدنيا ، والغرور بأمانيها ، قائلين :

« وأما علة تحريم الموسيقى فى بعض شرائع الأنبياء عليهم السلام فهو من أجل استعمال الناس لها على غير السبيل التى استعملها الحكماء ، بل على سبيل اللهو واللعب ، والترغيب فى شهوات لذات الدنيا والغرور بأمانيها ، والأبيات التى تنشد مشاكلة لها مثل قول القائل :

خذوا بنصيب من نعيم ولذة فكل وان طال المدى ينصرم

وقول القائل :

ما جاءنا أحد يخبر أنه فى جنة مذ مات أو فى نار

واعلم بأن مثل هذه الأبيات اذا سمعها أكثر الناس ظنوا وتوهموا أنه ليست لذة ولا نعيم ولا فرح ولا سرور غير هذه المحسوسات التى يشاهدونها ، وأن الذى أخبرت به الأنبياء عليهم السلام من نعيم الجنات والذات أهلها باطل ، والذى أخبرت به الحكماء من سرور عالم الأرواح وفضله وشرفه كذب وزور ليست له حقيقة فيقعون فى شكوك وحيرة . واعلم يا أخى أيدك الله وايانا بروح منه أنك ان لم تؤمن

---

(٧٠) انظر : المرجع السابق جـ ٢١٠/١ .

للانبياء عليهم السلام بما أخبروك عنه من نعيم الجنان ولذات أهلها ، ولم تصدق الحكماء بما عرفوك من سرور عـالم الأرواح ورضيت بما تخيل لك الأوهام الكاذبة والظنون الفاسدة بقيت متحيرا شاكا ضالا مضـلا » (٧١) .

---

(٧١) إنظر : المرجع السابق ج ١/ ٢١٠ ـ ٢١١ .

وهذا النص وأمثاله يؤيد القول بأن اخوان الصفا يهـدفون الى التوفيق بين الدين والفلسفة ، ولذلك ساقوا اقوال الاشياء والحكماء على انها مؤيدة لاحكام متشابهة ، ونظروا الى الانبياء نظرهم الى الحكماء في محاولة منهم ـ كما قيل ـ في اعادة الوحدة الى الاسلام والجمع بين المسلم والنصراني والمجوسي واليهودي والافلاطوني والمشائي والفيثاغوري وتوجيه الجميع الى غاية واحدة هي الحقيقة المطلقة .

انظر : د. جبور عبد النور : اخوان الصفا ١٧ ، ورسائل اخوان الصفا ج ٤٢/٤ وأبو حيان التوحيدي : الامتاع والمؤانسة ٦ ـ ٢٣ .

خاتمـــــة

وبعـــــد :

فهل نستطيع بعد هذه الجولة مع اخوان الصفا أن نقول اننا قد وقفنا على الفكر اللغوى ، ووفينا بما قد وعدنا باظهاره والكشف عنه فى المقدمة ؟ وأننا قد طرحنا بعض التساؤلات أجبنا على بعضها ، وينتظر بعضها الآخر من يتولى الاجابة عنها ؟

اننا نترك الاجـــابة عن هذا للقـــارىء الواعى والمطلع المدقق ، مكتفيين هنا بذكـــر أهم ما كشف عنه هذا العمل المتواضـــع فى فكر أصحاب رسائل اخوان الصفا :

١ ــ اللغة تعبير ومعبر عنه ، ويرتبط كل منهما بالآخر ارتباطا وثيقا وهذا التصور لا يختلف عن تصـــور عدد من اللغويين المحدثين الغربيين .

٢ ــ اللغة المنطوقة تلقين والهام من الله ، ألهمها الله آدم عليه السلام ولقنه اياها . وهذا التصور لم يسلم به علماء كثيرون . وعلى الرغم من كثرة النظريات التى حاولت الكشف عن مصـــدر تلك اللغة فانها لم تصل الى نتيجة حاسمة ، وأقصى ما يقال فى هذا الموضـــوع أن اللغة نشأت وتكونت عن كل النظريات التى قيلت بهذا الصدد دون التعصب لـــرأى بعينـــه .

٣ ــ نظرة الاخوان الى آدم عليه الســـلام وأنـــه خلق ناطقا متكلما فصيحا مميزا ، فيها رد على النظريـــات الخـــاطئة التى يؤمن أصحابها بتطور الكائنات الحية جسمانيا وعقليا وفكريا ، وبـــأن آدم ظل فترة صـــامتا قبل أن تنشأ لغته. وينطق بأصوات راقية .

٤ ـ اللغة المكتوبة نشأت سدا لحاجة البشر الى تواصل الخلف بالسلف بعد ما رؤى قصر اللغة المنطوقـة واضمحلالها • وهذا التصور أقره المحدثون فى كثير من كتبهم •

أما أن تلك اللغـة كانت الهـاما وتوفيقا فأمـر لم يتفق عليه العلماء قديمـا وحديثـا •

٥ ـ خطوط اللغات كلها ترجع الى الخطين : المستقيم والمقوس• وهذا التصور الذى ينبنى عليه جودة الخطوط وهندستها أرجعه علماء الاجتماع العرب ـ وعلى رأسهم ابن خلدون ـ الى الاجتماع وكثرة العمـران •

٦ ـ اللغة تتغير وتتطـور نتيجة اجتهـاد الفرد ومـا تنتجه قريحته • وهذا التصور قد ساد فترة طويلة ـ بالنسبة للغة المنطوقة ـ الى أن ظهر اتجاه فى القرن التاسع عشر عند المشتغلين بالبحوث اللغوية ينفى اختيار الانسان فى اللغة وتطورها،ويؤكد جبرية الظواهر اللغوية• ومع ذلك ظل لتصور الاخوان أنصار فى الغرب يدافعون عنه الى وقت قريب •

أما بالنسبة لتطور اللغة المكتوبة نتيجة الاجتهـاد الفردى فقد أقره المحدثون ورأو أن الرسم يبدو فى صورة أمور مقصودة تسيرها الارادة الانسـانية •

٧ ـ اللغة تتطور نتيجة صراعها واحتكـاكها بغيرهـا • وهذا التصـور أقره المحدثـون •

٨ ـ اللغة تنتشر وتتفرع الى لهجات ولغات نتيجة عوامل اجتماعية وجغرافية وفسيولوجية • وهذا التصور أقره المحدثون •

٩ ــ كل صوت مسموع يستلزم وجود جسم يهتز ، ولا ينتقل الا عبر وسط نــاقل يتسم بالطواعية والمرونة وسرعة الاســتجابة كالهواء • ومعــدل سرعة الصــوت فى الهــواء أدنى من معدل سرعة الضوء • والأذن تعجز عــن سماع الأصوات العــالية القوة كصوت الصاعقة ، وعن سماع الأصوات الخفية كدبيب النملة • والأذن تقدر على سماع الأصوات المتوسطة بين هاتين الحالتين • وسماع الصوت غير ادراكه • كل هذا يتفق تماما مع تصور المحدثين للصوت بمفهومه العــــام •

١٠ ــ الإفراد والتركيب مســتويان لتقطيع الصوت اللغوى • وهذه النظرة أقرها القدماء من علمائنا قبل المحدثين •

١١ ــ ايجاد تيار هوائى شرط لايجاد الصوت • ومكونات آلة النطق الرئيسية الرئة والصدر والحجــاب والحلقوم والمنخران والفم وما يشتمل عليه من لسان وأســنان وشفتين • وانســياب الأصوات وسهولة اخراجها يتوقف على صلاحية أعضاء النطق ومرونتها الحركية والعصبية نتيجة عوامل جغرافية وفسيولوجية ونفسية •

وفساد الكلام من اختلاف تقطيع الأصوات فى القوة والضعف.•. وكل هذا يتفق تماما مع ما هو مقرر فى الدراســـة الصــوتية ، غير أن الاخوان لم ينصوا على الحنجرة مثل معظم علماء العربية ، وان كان أقصى الحلق يمكن أن يشــملها ، ولذلك اعتبروا أقصى الحــلق أبعد المخــارج •

١٢ ــ مدى الصوت وانتشاره وشدته وحدته وجهارته واختلاف أنواعه وفنون نغماته ووضوحه فى الســمع يتفق مع ما هو مقــرر حديثــــا •

١٣ ــ الدماغ بأكمله هو المسئول عن عمليتى الادراك والتواصل اللغوى بعامة • وهذا التصور ساد فترة طويلة الى أن تغير ابتداءا من منتصف القرن التاسع عشر على يد بعض الغربيين من أمثال «بروكا»، و «فيرنيك» وغيرهما حيث رأيا أن الشق الأيسر من الدماغ هو المسئول عن معظم الوظائف اللغويـة ، وان كنا لا نعدم من يتمسـك بنظرة الاخوان فى هذه الآونـة مثل العالم اللغوى «فندريس» •

١٤ ــ الدماغ فى نظر الاخوان مقسم ــ فسيولـوجيا ــ الى ثلاثة أقسام تتشابك بوساطة مجموعة من الأعصاب : مقدم الدماغ ، ووسطه ، ومؤخره ، ومع أنهم لم يشيروا الى انشـطار المخ الى أيمن وأيسر فان هذا التقسيم فى مجملة يتفق الى حد ما مع ما يراه علمـاء التشريح حين قرروا أن فى كل شق من شقى الدماغ أربعة فصوص : أمامى ، وخلفى ، وصدغى ، وقفوى •

وقد رأى الاخوان أن أجزاء الدماغ تتعاون لتؤدى ثلاث وظائف: استقبال رسوم المعلومات بوسـاطة الحواس ، ويختص بـه مقدم الدماغ الذى يرتبط بتلك الحواس ارتباطا عصبيا •والتمييز والنظر فى تلك المعلومات واصـدار الأوامر ، ويختص به وسط الدمـاغ • وحفظ المعلومـات وتخزينها ، ويختص به مؤخر الدماغ •

وهذا يتفق فى مجمله مع ما يراه المحدثون حين رأوا انسـتمال الدماغ على مراكز عديدة للاحساس والحركة ، واختصاص كل مركز فى المخ بوظيفة معينة ، غير أن تحديد مركز السمع لا يتفق الى حد ما مع ما قرره «بروكا» و «فرنيك» ، ولم يحدد الاخوان مركزى الكلام والكتابة بينما حددتهما بدقة الدراسة الحديثة •

١٥ ــ حركات الانسان نوعان : ارادية وغير اراديـة ، وتعد

الحركات المتصلة بعملية الكلام — والمتمركزة فى مقدم الدماغ — من النـوع الأول •

وهذا متفق مع ما يراه المحدثون ، وان كان بعضهم يرى أن تلك الحركات فى النصف الأيسر من مقدم الدماغ • .

١٦ — وظيفة المراكز المترابطـة للادراك تتوقف على سـلامة الحواس من الآفات ، وبخاصة حاستا السـمع والبصر اللتان يتوقف عليهما الادراك اللغوى بصفة خاصة ، حيث يتوقف على الحاسة الأولى عمل الدماغ فى ادراك اللغة المنطوقة ، وعلى الثانية اللغة المكتوبـة • وهذه النظرة التى تنظر الى التوافق الوظيفى بين مراكز الاحسـاس والحركة فى الدماغ كى يتم الكلام بالشكل الطبيعى ، قد أقرتها الدراسة الحديثة •

١٧ — القلب حاسة مهمة فى الادراك ، ولولا قوتها لبطلت بقية الحواس • وهذه النظرة مؤيدة بشكل واسع فى الدراسات الاسلامية ، سواء الفلسفية منها أو الصوفية ، وان كان اللغويون يرون أن القلب قد يطلق على العقل ، والعقل عنى القلب •

١٨ — اكتساب اللغة يعنى فهم المدركات والتعبير عنها ، وذلك بالتفاعل بين الصبى وبيئته بالاضافة الى القوة الغريزية المزود بها • والاكتساب لا يتأتى دفعة واحـدة ، وانما بالتدريج وعلى مراحـل ، ويتوقف على مدى قوة الفكر ونضجه وسـلامة حواسه من الآفات ، وبخاصة حاستا السمع والبصر واللتان يتوقف على تفاوتهما تفـاوت الناس فى اكتساب اللغة التى تعد من خصائص البشر •

وكل هذا يتردد صداه فى الدراسة الحديثة •

١٩ – المعانى المعبر عنها بالألفاظ انما هى صور وأفكار مختزنة فى الأذهان ، مكتسبة بطريق الحواس . والألفاظ موضوعة بازاء تلك المعانى والصور الذهنية .

وهذا يتفق مع علماء كثيرين فى القديم ومنهم فخر الدين الرازى، وفى الحديث وعلى رأسهم عالما النفس «أوجدن» و «رينشارد» ، بينما المتعارف عليه عند اللغويين أن المعنى لا يتأتى الا بدراسة الكلمة والتركيب صوتيا وصرفيا ونحويا ومعجميا واجتماعيا .

٢٠ – اللغة العربية أتم اللغات الانسانية ، وذلك يرجع الى تشريف الله العربية حين أنزل بها القرآن الذى هو أشرف كتاب أحكمه الله ، والذى تعجز الأمم عن ترجمته ونقله الى لغاتها على ما هو به من الاختصار والإيجاز .

وهذا القول يناله اجماع الباحثين من علماء العربية الا الذين فى قلوبهم مرض .

٢١ – أصل العربية يرجع الى يعرب بن سام . وهذا قول لم يتفق عليه المؤرخون والعلماء .

٢٢ – عدد أصوات العربية الرئيسية ورموزها ثمانية وعشرون، وهذا لا يتفق مع ما أحس به كثيرا من علماء العربية فى القديم ، ومع ما هو مقرر فى الحديث . وهذا يرجع الى أن الاخوان لم يدرجوا فى العدد أصوات ورموز الحركات عدا الألف التى ذكروها فى الألفبائية ، ولم يعتدوا بها .

٢٣ – للسان دور مهم فى اخراج الأصوات ، ويتدخل فى تقطيع واخراج أربعة عشر حرفا . وهذا لا يتمشى مع الواقع ، ومع النظرتين..

القديمة والحديثة الى أصوات العربية ، اذ يتدخل اللسان فى واحد وعشرين صوتا •

٢٤ ـ اختلاف مخارج الحروف فى قوتها وضعفها يترتب عليه اضطرابات فى التكلم ، ويكون من مظهرها ما سموه بالحبسة والفأفأة والتمتمة والعقلة ، والجكلة والرتة واللثغة • وقد صال المحدثون من اللغويين وعلماء النفس وأمراض الكلام ، وجالوا فى تفسير تلك الاضطرابات وتصنيفها وتعليها وعلاجها •

٢٥ ـ الألفبائية العربية تستوعب كل ألفبائيات اللغات المختلفة وقد أكدت الدراسات الحديثة المقارنة صحة هذه النظرة •

٢٦ ـ الخط العربى مأخوذ من الخط الحميرى ، وعلى بن أبى طالب هو الذى نقل شكل هذا الخط الى ما هو عليه الآن •

وهذا تصور لم يتفق عليه المؤرخون للخط العربى ، بل زعمهم أن لعلى رضى الله عنه دور فى اصلاح الخط ليس له سند من التاريخ الصحيح •

٢٧ ـ الهدف من تجويد الخط العربى يرجع الى صون القرآن عن التصحيف والخطأ واللحن ، والى الحفاظ على لغة القرآن • وهذا تصور مقبول •

٢٨ ـ تقسيم الأقاويل المختلفة من جهة اللفظ أو المعنى الى الاشتراك اللفظى ، والترادف والتباين والتواطوء والاشتقاق نابع من النظرة العقلية للاخوان الى المعنى ، ولم يحدثوا عنها بطريقة اللغويين• وحديثهم عن حاجة المفسرين الى الالمام بتلك الألفاظ أمر أكده علماء التفسير •

٢٩ ـ المفهوم الاصطلاحى ، المتداول بيننا الآن للبــلاغة لم يكن قد استقر فى عهد الاخوان ، ولذلك أتت بالمفهوم الواســع الذى كان شائعا فى تلك الآونة ، وهو التوصل الى افهام المعنى بأوجز مقال ليعرف به المراد بواضح البيان ، أو هو التوسط بين الايجاز والاطناب ، وذلك بناء على نظرتهم الى العدل الذى هو التوســط بين النقصــان والافراط ، والبخس والعدوان •

٣٠ ـ التعبير البليغ ينبغى أن يتوافــر فيه الصــياغة اللفظية المتقنة الموزونة ، المتفقة التأليف ، المؤثرة فى النفوس ، بجانب المعنى المفيد المرشــد الى منفعة •

كما نخرج من نظر الاخوان فى اللغة الى نتيجة حاسمة ، لا نقرها ولا نعترف بها ، وهى ارجاع معظم قضــايا اللغة وظواهــر الى تأثير الكواكب والنجوم ، فهم يعتقدون فى الكواكب ويؤمنــون بتأثيرها فى أصحاب اللغة والناطقين بها ، شــأنهم فى ذلك شأن كل المخلوقــات والكائنات فيما دون فلك القمر ، وأنها مربوطة بحركات الأشــخاص الفلكية • وقد عرفنا أن الاعتقاد فى الكواكب والايمان بتأثيرها اعتقاد باطل وزعم مرفــوض •

ومن المسائل اللغوية التى أرجعها الاخوان بشــكل رئيسى الى هذا العــامل الفلكى :

(أ) ظهور الكتابة انما هو نتيجــة تشكل الفلك بشــكل أوجب التغير والاســـتحالة •

(ب) صورة الخط الكتابى المستقيم تشبه عالم الكواكب وسكان الأفلاك التى أشكالها مســتقيمة • بينما صورة الخط المعوج تشــبه ما دون تلك القمر •

(جـ) تطور اللغة وتفرعها انما هو بحسب ما اتفق للأقــوام فى أصول مواليدهم ، حيث تستولى الكواكب عليهم •

(د) عدد حروف اللغة الأولى تســعة ، وهــذا العدد مناسب للأفلاك التسعة الحاوية جميع الموجودات بأسرها •

(هـ) عدد حروف اللغة العربية ثمــانية وعشرون • وهذا العدد مناسب لعدد منازل القمر •

(و) أصوات عالم الأبدان انما هى محاكية لحركــات الأشخاص الفلكية •

(ز) خفة اللغات وسـهولة التصرف فى مخارج الكلام انمــا هو بحسب ما أوجبت للناس دلائل مواليدهم •

(ح) سريان القوى الحساسة للنفس فى مفاصل الجسد كسريان قوى أجناس الملائكة فى أطبــاق السموات •

(ط) اطلاق لسان المولود بالعبــارة ، وفهم اللغة والتعبير عنها انما يرجع الى دفع القمر التدبير الى عطارد صاحب المنطق والتمييز •

* * *

هذا وإسأل الله مغفرة ما زللت فيه ، وارجو القارىء العفو عما غفلت عنه ، واصلاح ماندر من خطأ الفكر أو القلم ••

« وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين » ••

أهم المراجع

١ ـ ابراهيم أنيس : (دكتور) :

● دلالة الألفاظ . الطبعة الثالثة ١٩٧٦م .

● من أسرار اللغة . الطبعة السادسة ١٩٧٨م .

● موسيقى الشعر . الطبعة الخامسة ١٩٨١م .

٢ ـ ابراهيم جمعة :

قصة الكتابة العربية . الطبعة الرابعة . دار المعارف .

٣ ـ ابن جنى ٣٩٥هـ (أبو الفتح عثمان) :

● الخصائص . تحقيق الشيخ محمد على النجار . الطبعة الثانية بيروت .

● سر صناعة الاعراب تحقيق : مصطفى السقا وآخرين . الطبعة الأولى ١٣٧٤هـ/١٩٥٤م .

٤ ـ ابن الخطيب :

الفرقان . الطبعة الأولى دار الكتب المصرية ١٣٦٧هـ / ١٩٤٨م (محكوم بمصادرته في مصر) .

٥ ـ ابن خلدون :

المقدمة . الطبعة الرابعة ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م .

٦ ـ ابن سينا (٤٢٨هـ) أبو على الحسن :

أسباب حدوث الحروف . ط القاهرة ١٣٣٢هـ .

٧ ـ ابن فارس (ت ٣٩٥هـ) :

الصاحبى . تحقيق : السيد أحمد صقر . طبعة عيسى البابى الحلبى .

٨ ـ ابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) :

عيون الأخبار . ط دار الكتب المصرية .

٩ ـ ابن منظور :
لسان العرب • ط دار المعارف •

١٠ ـ ابن النديم (٣٨٥هـ) : محمد بن أبى يعقوب اسحاق الوراق :
الفهرست • تحقيق : رضا تجدد • ط طهران •

١١ ـ أبو حيان التوحيدى (ت ٤١٤هـ) :
الامتاع والمؤانسة • تصحيح وشرح : أحمد أمين ، أحمد الزين •
ط القاهرة سنة ١٩٤٢ •

١٢ ـ أبو السعود الفخرانى (دكتور) :
التجويد القرآنى فى ضوء علم الصوتيات الحديث • رسالة دكتوراه
بمكتبة كلية اللغة العربية بالقاهرة •

١٣ ـ أحمد مطلوب (دكتور) :
البلاغة عند الجاحظ • ط العراق ١٩٨٣م •

١٤ ـ اخوان الصفا :
جامعة الجامعة • تحقيق : عارف تامر • دار النشر للجامعيين
١٣٧٨هـ / ١٩٥٩م •
رسائل اخوان الصفا • ط دار صادر • بيروت •
الرسالة الجامعة • تحقيق : جميل صليبا ط المجمع العلمى
العربى ١٣٦٨هـ / ١٩٤٩ •

١٥ ـ الاشبيلى (ت ٦٥٤هـ) ابراهيم بن وثيق ، أبو اسحاق
كتاب فى تجويد التلاوة ومخارج الحروف • تحقيق ودراسة :
د• أبو السعود أحمد الفخرانى • الطبعة الأولى ١٤١١هـ/١٩٩٠م

١٦ ـ أمين محمد فاخر (دكتور) :
دراسات لغوية فى الصاحبى والخصائص والمزهر • الطبعة
الثالثة ١٤٠١هـ / ١٩٨١م •
● بيان الفرق بين الصدر والقلب والفؤاد واللب • تحقيق
١٧ ـ الترمذى : أبو عبد الله محمد بن على (ت ٣٢٠هـ) •

د٠ نقولا هير ٠ دار احياء الكتب العربية ١٩٥٨م ٠

● علم الأولياء : تحقيق : د٠ سامى نصر ٠ ط القاهرة ١٩٨٣م

١٨ ـ تغريد عنبر (دكتور) :
دراسات صوتية ٠ ط القاهرة ١٤٠١هـ / ١٩٨٠م ٠

١٩ ـ التفتازانى :
الشرح المطول ٠ ط تركيا ١٣٣٠هـ ٠

٢٠ ـ تمام حسان : (دكتور) :
اللغة بين المعيارية والوصفية ٠ ط المغرب ٠

٢١ ـ التهانوى :
كشاف اصطلاحات الفنون ٠ تحقيق : د٠ لطفى عبد البديع ٠ الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ١٩٦٩م ٠

٢٢ ـ الثعالبى (ت ٤٣٠هـ) : أبو منصور :
فقه اللغة وسر العربية ٠ تحقيق : مصطفى السقا وآخرين الطبعة الأخيرة ١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م ٠

٢٣ ـ الجاحظ (٢٦٠هـ) : أبو عثمان :
● البيان والتبيين ٠ تحقيق عبد السلام هارون ٠ ط ٤ الخانجى وطبعة أخرى ١٣٦٧هـ / ١٩٤٨م ٠
● الحيوان : تحقيق : عبد السلام هارون ط القاهرة ١٣٥٦هـ / ١٩٣٨م ٠

٢٤ ـ جبور عبد النور (دكتور) :
اخوان الصفا ٠ سلسلة نوابغ الفكر العربى (رقم ٧) الطبعة الرابعة دار المعارف ١٩٨٣م ٠

٢٥ ـ الجرجانى (ت ٨١٦هـ) : السيد الشريف على بن محمد :
التعريفات : ط مصطفى البابى الحلبى ٠ ١٣٥٧هـ / ١٩٣٨م ٠

٢٦ ـ جرجى زيدان :
الفلسفة اللغوية والألفاظ العربية • مراجعة وتعليق : د• مراد كامل • ط دار الهلال •

٢٧ ـ جمعة سيد يوسف (دكتور) :
سيكلوجية اللغة والمرض العقلى • سلسلة عالم المعرفة • العدد (١٤٥) ط الكويت •

٢٨ ـ حاجى خليفة : كشف الظنون • ط القاهرة ١٩٤١

٢٩ ـ حسن ظاظا (دكتور) :
اللسان والانسان • ط دار المعارف ١٩٧١م •

٣٠ ـ حسنى أحمد السيد حماد :
الحضارة العربية • ط وزارة الثقافة ١٩٦٧م •

٣١ ـ حفنى ناصف :
تاريخ الأدب أو حياة اللغة العربية • الكتاب الأول ١٩٠٦م •

٣٢ ـ الخطيب القزوينى (٧٣٩هـ) :
● الايضاح • تحقيق لجنة من أساتذة كلية اللغة العربية • ط القـــاهرة •
● التلخيص • تحقيـــق : عبـد الرحمن البرقوقى • ط ٢ ـ ١٣٥٦هـ / ١٩٣٨م •

٣٣ ـ الدانى (٤٤٤هـ) •
كتـــاب النقط (مطبوع فى ذيل كتابه المقنع فى رســم مصاحف الأنصار) تحقيق محمد الصادق قمحاوى ١٩٧٨م •

٣٤ ـ دى سوسير (عالم سويسرى) :
فصول فى علم اللغة العام • ترجمة د• أحمد نعيم الكراعين • ط الاسكندرية ١٩٨٥م •

٣٥ ـ الرازى : احمد بن محمد بن المظفر بن المختار (ت ٦٣١هـ) :
حروف المعجم · تحقيق : د· رشيد العبيدى · مجلة معهد المخطوطات العربية · المجلد ٢٠ ط ربيع الآخر ١٣٩٤هـ/مايو ١٩٧٤

٣٦ ـ رشاد سالم (دكتور) :
الأصوليون والنظريات اللغوية · رسالة دكتوراه بمكتبة كلية اللغة العربية ·

٣٧ ـ رمضان عبد التواب (دكتور) :
● التطور اللغوى : مظاهره وعلله وقوانينه · المطبعة الأولى ١٤٠٤هـ / ١٩٨٣م ·
● فصول فى فقه اللغة العربية · الطبعة الأولى ١٩٧٣ · القاهرة

٣٨ ـ زكى نجيب محمود (دكتور) :
حصاد السنين · مقال رقم ١١ بعنوان رؤية واضحة · جريدة الأهرام العدد ٣٧٦٣٢ · السنة ١١٤ · الثلاثاء ٢٠ جمادى الأولى ١٤١٠هـ / ديسمبر ١٩٨٩م ·

٣٩ ـ ستيفن أولمان :
دور الكلمة فى اللغة · ترجمة : د· كمال بشر · ط القاهرة ١٩٧٥

٤٠ ـ السجستانى (ت ٣١٦) عبد الله بن أبى داود :
كتاب المصاحف ط دار الكتب ·

٤١ ـ سعد مصلوح (دكتور) :
دراسة السمع والكلام · ط عالم الكتب ١٤٠٠هـ/١٩٨٠ ·

٤٢ ـ سيد غنيم (دكتور) :
اللغة والفكر عند الطفل · بحث فى مجلة عالم الفكر ـ المجلد الثانى · العدد الأول ·

٤٣ ـ السيوطى (٩١١هـ) : جلال الدين :
● الاتقان فى علوم القرآن تحقيق : محمد أبو الفضل ابراهيم الطبعة الأولى سنة ١٣٨٧هـ ـ ١٩٦٧م ·

● المزهر فى علوم اللغة وأنواعها • تحقيق : محمد جاد المولى وآخرين • ط عيسى البابى الحلبى •

٤٤ ـ عارف تامر :

حقيقة اخوان الصفا • ط بيروت ١٩٥٧ •

٤٥ ـ عباس محمود العقاد :

● الأبجدية العربية أكمل الأبجديات • مقال بمجلة الأزهر جـ ٤ السنة ٣٤ جمادى الآخرة ١٣٨٢هـ / نوفمبر ١٩٦٢م •

ـ أشتات مجتمعات فى اللغة والأدب • الطبعة الخامسة • دار المعارف ١٩٨٢ •

● الثقافة العربية أسبق من ثقافة اليونانيين والعبريين • الهيئة المصرية العامة للكتاب •

● اللغة الشاعرة الطبعة الأولى ١٩٧٧ •

● اللغة العربية بين لغات الحضارة العصرية • مقال بمجلة الأزهر • المجلد ٣٢ شوال ١٣٨٠هـ / مارس ١٩٦١م •

٤٦ ـ عبد الحميد أبو سكين (دكتور) :

دراسات فى التجويد والأصوات اللغوية • مطبعة الأمانة ١٤٠٤هـ / ١٩٨٣م •

٤٧ ـ عبد الرحمن بدوى (دكتور) :

الصلة بين المنطق واللغة • بحث فى مجلة عالم الفكر • م ٢ العدد ١ •

٤٨ ـ عبد العزيز أحمد علام (دكتور) :

● علم الصوتيات (بالاشتراك مع د• عبد الله ربيع محمود) •

● فى فقه اللغة (بالاشتراك مع د• عبد الله ربيع محمود) •

● من التزمين فى نطق العربية الفصحى بمصر المعاصرة : رسالة دكتوراه بمكتبة كلية اللغة العربية بالقاهرة •

٤٩ ـ عبد الغفار حامد هلال (دكتور) :
● أصوات اللغة العربية ١٣٩٩هـ .
● علم اللغة بين القديم والحديث . الطبعة الأولى ١٩٧٩م .
● اللغة العربية : خصائصها وسماتها . الطبعة الأولى ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م .

٥٠ ـ عبد الله ربيع محمود (دكتور) :
● علم الصوتيات . (بالاشتراك مع د. عبد العزيز علام) . المكتبة التوفيقية .
● في فقه اللغة . (بالاشتراك مع د. عبد العزيز علام) الطبعة الأولى ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م .
● من ملامح المنهج العلمي عند علماء العربية . ط ١٤٠٤ هـ .
● الملامح الأدائية عند الجاحظ في البيان والتبيين . الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م .

٥١ ـ عبد الواحد وافي (دكتور) :
● علم اللغة . الطبعة السابعة . دار نهضة مصر .
● اللغة والمجتمع . ط دار نهضة مصر ١٩٧١م .

٥٢ ـ عبد الوهاب ربيع محمود (دكتور) :
النحو الشارد في مشارق الأنوار للقاضي عياض . مجلة كلية اللغة العربية بالمنوفية . العدد السادس ١٤٠٦هـ /١٩٨٦م .

٥٣ ـ عثمان أمين (دكتور) :
في اللغة والفكر . ط معهد البحوث والدراسات العربية ١٩٦٧م.

٥٤ ـ علي الحديدي (دكتور) :
مشكلة تعليم اللغة العربية لغير العرب . دار الكتاب العربي .

٥٥ ـ علي سامي النشار :
نشأة الفكر الفلسفي في الاسلام . ط دار المعارف .

٥٦ ــ الغزالى ٥٠٧هـ (حجة الاسلام ، الامام) :
مقدمة تهافت الفلاسفة ، المسماه : مقاصد الفلاسفة . تحقيق د. سليمان دنيا ط ٢ دار المعارف .

٥٧ ــ الفارابى (٣٣٩) أبو نصر :
الموسيقى الكبير . تحقيق وشرح : غطاس عبد الملك خشبة ، مراجعة : د. محمود أحمد الحفنى . دار الكتاب العربى .

٥٨ ــ فندريس :
اللغة . تعريب : عبد الحميد الدواخلى ، ومحمد القصاص . القاهرة ١٩٥٠ .

٥٩ ــ القلقشندى (٨٢١هـ) : أحمد بن على :
صبح الأعشى . المطبعة الأميرية ١٣٣٢هـ /١٩١٤م .

٦٠ ــ كمال بشر (دكتور) :
- دراسات فى علم اللغة . ط دار المعارف ١٩٧٣ .
- علم اللغة العام : الأصوات ط ٥ دار المعارف ١٩٧٩ .

٦١ ــ كمال يوسف الحاج :
فى فلسفة اللغة . ط بيروت ١٩٦٧ م .

٦٢ ــ كندراتوف (عالم روسى) :
الأصوات والإشارات . ترجمة : شوقى جلال . ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٢م .

٦٣ ــ لويس (عالم بريطانى) :
اللغة فى المجتمع . ترجمة : د. تمام حسان ، د. ابراهيم أنيس ط دار احياء الكتب العربية ١٩٥٩م .

٦٤ ــ ماريوباى : (عالم ايطالى) :
لغات البشر : أصولها وطبيعتها وتطورها . ترجمة : د. صلاح العربى . نشر الجامعة الأمريكية بالقاهرة . نوفمبر ١٩٧٠م .

٦٥ ـ المبرد (ت ٢٨٥هـ) :

المقتضب : تحقيق عبد الخالق عضيمة ٠ المجلس الأعلى للشئون الاسلامية ١٣٩٩هـ ٠

٦٦ ـ مجمع اللغة العربية بالقاهرة :

المعجم الوسيط ٠ الطبعة الثانية ٠ دار المعارف ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م ٠

٦٧ ـ محمد حسن جبل (دكتور) :

● أصوات اللغة العربية : دراسة نظرية وتطبيقية ٠ (طباعة أوفست بطنطا) ٠

● المعنى اللغوي : دراسة نظرية وتطبيقية ٠ الطبعة الأولى ١٤٠١هـ / ١٩٨١م ٠

٦٨ ـ محمد حسن عبد العزيز (دكتور) :

مدخل الى اللغة ٠ ط القاهرة ١٩٨٢م ٠

٦٩ ـ محمد حسنين مخلوف العدوى (الشيخ) :

● حكم ترجمة القرآن وكتابته وقراءته بغير العربية شوال ١٣٤٣هـ
عنوان البيان فى علوم التبيان ٠ الطبعة الثانية ١٣٨٣هـ/١٩٦٤

٧٠ ـ محمد صالح بن عمر (دكتور) :

الثورة التكنولوجية واللغة ٠ الطبعة الأولى ٠ بغداد ١٩٨٦م ٠

٧١ ـ محمد عبد العظيم الزرقانى (الشيخ) :

مناهل العرفان فى علوم القرآن ٠ ط دار احياء الكتب العربية ١٩٨٠ م ٠

٧٢ ـ محمد فريد حجاب :

الفلسفة السياسية عند أخوان الصفا ٠ الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٨٢م ٠

٧٣ ـ محمد المبارك :

فقه اللغة وخصائص العربية ٠ الطبعة الثالثة ١٩٦٨ بيروت ٠

٧٤ ـ محمد متولى الشعراوى (الشيخ) :
أنت تسأل والاسلام يجيب . الجزء الثالث ط دار المسلم ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م .

٧٥ ـ محمود حلمى :
الخط العربى بين الفن والتاريخ . بحث فى مجلة عالم الفكر المجلد ١٣ العدد ٤ سنة ١٩٨٣م .

٧٦ ـ محمود السعران (دكتور) :
علم اللغة مقدمة للقارىء العربى . ط دار المعارف ١٩٦٢م .

٧٧ ـ محمود مصطفى :
اهدى سبيل الى علمى الخليل : العروض والقافية . ط ٩٢ ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م .

٧٨ ـ مصطفى صادق الرافعى :
اعجاز القرآن والبلاغة النبوية ط بيروت .

٧٩ ـ مصطفى فهمى (دكتور) :
أمراض الكلام . الطبعة الرابعة . مكتبة مصر .

٨٠ ـ موفق الحمدانى (دكتور) :
اللغة وعلم النفس ط بغداد ١٩٨٢م .

٨١ ـ ميلسنت أ. سلسام (عالم امريكى) :
لغة الحيوان . ترجمة : د. كامل منصور . دار نهضة مصر .

٨٢ ـ نايف خرما (دكتور) :
اللغات الأجنبية : تعليمها وتعلمها . (بالاشتراك مع د.على حجاج) سلسلة عالم المعرفة . العدد ١٢٦ شوال ١٤٠٨هـ/يونيو١٩٨٨م

٨٣ ـ نورى جعفر (دكتور) :
آراء ومواقف تربوية ونفسية صائبة فى التراث العربى الاسلامى وزارة الثقافة والاعلام العراقية ١٩٨٢ . من سلسلة دراسات رقم ٣٣٤ .

المراجع الأجنبية

John Laver : Phonetic description voice quality, 1980

Heffner : General phonotics madison

The University of Wisconsin Press 1960

محتویات الکتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٢٨٧٨/١٩٩١